Menorah's Dwarf

رواية



قزم مينورا

منى سلامة



للنشر والتوزيع



قزم مِيُنورا

الكتاب: قزم مِيُنورا

المؤلف: منى سلامة

تدقيق لغوي: جمال السبيعي

تصميم الغلاف: محمود شرفاي

تنسيق داخلي: سمر محمد

رقم الإيداع: ٢٥٠٠٣٧٨/ ٢٠١٦

I.S.B.N : ٩٧٨٩٧٧٦٥٤١٠٦١

محمد شوقي : المدير العام

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس/ 01150636428

لمراسلة الدار:Email:P.bookjuice@yahoo.com





قزم مِيُنورا

رواية

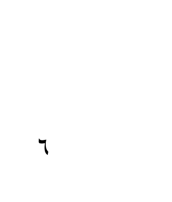
منى سـلامة





" أشَد سُجونِ الحَياةِ قسوَةً، فِكرَة بائِسَة يسْجِن المَرْء مِنَّا نَفسُه بداخِلِها "

مصطفى صادق الرافعي





إهــــداء

إلى كــــل الأقـــــزام



جرائم غامضة

انخلعت القلوب، واضطربت الحواس، اقشعرت الجلود، وارتجفت القوائم لا تقوى على الحراك قيد أَنْمُلَة للوهلة الأولى. يرنو الجميع إلى الدماء المنبثقة من منتصف جبهة مُحدثهم، الذي كان صوته يمور بالقوة والحماسة منذ ثوان.

انطلقت عقيرة الجميع بالصراخ، بات ما يستقر جنانهم من الفزع، تُزلزل أقدامهم -متخبطة الوجهة- أرض القاعة العريقة.

- نرجو من الجميع التزام الهدوء.. لا يغادر أحدكم القاعة..

لم يتوقف أحد ليُبصر صاحب الرجاء المضطرب المستقر أمام مكبر الصوت. تبددت أوامره، وتلجلج منطقه؛ فالخوف على حيواتهم بات ملء ضلوعهم.. البقاء داخل القاعة هو الخطر بعينه!

امتلأت ردهة القصر الرئاسي بالمدعوين الفارين من ملك الموت الجاثم بأنفاسه الثقيلة فوق جسد استوفى أنفاسه المُقدرة برصاصة واحدة. لم يدع لهم الفزع براحًا ليتأسف أحدهم على موتته البشعة، فلم تزل العقول تائهة في ملكوت إنقاذ الذات، يخشى كل منهم أن تدركه مقادير المنايا برصاصة طائشة.

تلقَّى رجال الحراسة الأوامر بغلق جميع منافذ القصر الرئاسي وعدم السماح لأي من المدعوين بأن يخطو خطوة واحدة خارجه.

- يا للكارثة! ستنهشنا الصحافة والرأي العام، سنصبح لقمة سائغة في أفواههم، أي مصيبة تلك التي حلّت فوق رؤوسنا!

بنبرات مضطربة وشفاه مرتعشة هتف الوزير بتلك الكلمات على مرأى ومسمع من كبار رجال الدولة المجتمعين بإحدى قاعات القصر الرئاسي. نطقت الوجوه بالوجوم والقلق. استند رئيس الأمن بمرفقيه إلى الطاولة يحط رأسه بين كفيه، يشاطره رأيه باضطراب:

- وأي كارثة! سيتندر الجميع بفشلنا في تأمين حياة رجالنا. للمرة الثالثة في عام واحد نخفق في اعتقال ذلك القاتل الخفي أو إنقاذ ضحاياه.

ضرب أحد الوزراء كفيه فوق الطاولة بقوة أسْرَتِ الكهرباء بجسد رئيس الأمن، فانتفض مذعورًا واستوى في مكانه جالسًا، تنِدُّ من عينيه نظرة خوف، تلاقت مع نظرات الوزير النارية الملتهبة وهو يزمجر:

- بل فشلك وحدك! كيف تسلل ذلك الملعون إلى القصر الرئاسي؟! كيف انسل بين رجالك وتمكن من الدخول إلى القاعة وقتل الرجل على مرأى ومسمع من الجميع؟!

هتف مدير الأمن مصفر الوجه، يستبد به الخوف:

- لا أدري سيدي الوزير. صدقني! القصر مؤمن تمامًا، قوة الشرطة والجيش والحرس الجمهوري تؤمن القصر من الداخل والخارج، لا يمكن أن تنفذ إليه نملة واحدة إلا وكشفنا أمرها.

- كيف تسلل إلى القصر إذن؟!

انقطع الحوار بولوج رئيس الوزراء شاحب الوجه، وقد ذهبت به الأفكار والهموم كل مذهب، وقف قبالتهم فتعلقت به العيون والأفئدة. هتف أخيرًا بحزم بعد لحظات صمت ثقيلة الوطء:

- الرئيس غاضب جدًا، تكاد أن تهتز الأرض لغضبته، يجب أن نلقي القبض على الفاعل خلال يوم واحد.

تهدَّل كتِفا مدير المخابرات، واعتلى وجهه اليأس والأسى. راود الجميع السؤال نفسه: (كيف سيتمكنون من القبض على القاتل في يوم واحد وقد فشلت جهودهم خلال عام كامل في العثور على أي أثر له؟!) ..

استقر رأس مدير المخابرات مستندًا إلى ظهر مقعده، يسترجع تفاصيل تلك الكارثة التي بدأت منذ عام. الجريمة التي اكتملت أركانها اليوم كانت الثالثة في قائمة قاتل مجهول فشلت كل التحريات وكل أجهزة الدولة والمساعي الدولية في الوصول إليه، لم يترك خيطًا واحدًا يشي بهويته، يتبخر بعد كل جريمة في الهواء بلا أثر!

الضحية الأولى هو البروفيسور التركي "كينان أورغو"، أحد أبرز علماء حقل الفيزياء الذرية وعلوم الليزر، قُتل منذ إحدى عشر شهرًا تقريبًا، عُثر على جثته في حقيبة مغلقة بطائرته الخاصة، مُصفاة تمامًا من الدماء! اشتم عمال الصيانة رائحة نتنة تفوح من الحقيبة، فتطوع أحدهم بفتحها لتطالعهم جثته المتحللة.

كشف تقرير الطبيب الشرعي عن آثار تعذيب بأنحاء متفرقة من جسده، وقد بُترت أصابع يديه وقدميه بالكامل. عاش وحيدًا، واعتاد على الاختفاء فترات طويلة حبيس بيته منشغلًا بدراساته وأبحاثه لذلك لم يشعر أحد بغيابه. أفاد التقرير بأنه قُتل قبل عشرة أيام من يوم اكتشاف

الجثة. لم يُعثر في هذه القضية سوى على شاهد واحد، وهو أحد الحراس المكلفين بحراسة الطائرة، أفاد بأنه رأى عامل صيانة يحمل الحقيبة متوجهًا بها إلى الطائرة، رابه من أمره ما رابه فاستوقفه وتحقق من هويته، ثم سمح له بالعبور. تم العثور على هذا العامل مقتولًا ومُلقى في مكب للنفايات العضوية، وإمعانًا في الغرائبية كان جسده مسلوخًا بالكامل كحيوانات المذبح!

ظن رجال التحقيق في البداية أن جريمة قتل البروفيسور كانت بهدف الانتقام أو السرقة، فيما بقيت أسئلة بلا أجوبة حيرت عقولهم: لماذا خاطر القاتل باستغلال عامل الصيانة لوضع الجثة في الطائرة بينما من الأفضل أن يلقي بها في أي مكان مهجور أو أن يطمس معالمها؟! بدا كأن القاتل أراد أن يراها العالمُ بأسره! ولماذا قُتل عامل الصيانة في نفس اليوم الذي قُتل فيه البروفيسور "أورغو"؟! هل اختلف القاتل معه فقتله وسلخه، أم كانت تلك النية مُبيتة في نفس القاتل من البداية؟! توقف التحقيق يومئذ عند هذه النقطة.

أما الجريمة الثانية التي راح ضحيتها المُخترع الماليزي دكتور"أكمل صائب" فمنذ ستة أشهر عُثر على جثته خالية تمامًا من الدماء بحديقة قصره، أفادت أجهزة المراقبة البصرية والأشعة تحت الحمراء بعدم دخول أي شخص غريب إلى القصر، لم يلج من البوابة سوى الحرس والعاملون فيه. ظهر في شريط التصوير أحد طباخ القصر وهو يسحب جثة البروفيسور "أكمل صائب" إلى الحديقة الخلفية، طارحًا إياها فوق العشب، ثم غادر القصر بهدوء. واجه رجال التحقيق ألغازًا كثيرة في هذه القضية أصابتهم بالصداع، لكن أكثرها عجبًا كان عثور الشرطة على جثة

طباخ القصر مبتورة الأصابع في مكب للنفايات، فقد حياته بالطريقة نفسها التي قتل فيها عامل الصيانة، ثم سُلخ جسده بالكامل! وإفادة تقرير الطبيب الشرعي بأن زمن وفاة الطباخ كان قبل عدة ساعات من مقتل دكتور "أكمل صائب". أي من المستحيل أن يكون هو الشخص الذي سجلت أجهزة المراقبة والتعرف على الهوية لحظة دخوله وخروجه من القصر.

لكن بقى أكبر ألغاز هذه الأحجية: من القاتل؟! وما هدفه؟! فلم يفقد أي من الضحيتين أموالًا ولا أوراقًا ولا أيَّ ما يمكن أن يمثل أهمية للقاتل.

ثم وقعت اليوم الجريمة الثالثة والتي راح ضحيتها عالِمُ الفيزياء والرياضيات المصري دكتور"نائل صالح" برصاصة قاتلة على مرآى ومسمع من الصحافة والإعلام، أثناء الإحتفاء به لتسلمه جائزة "نوبل" في القصر الرئاسي، عن جهوده وأبحاثه في هندسة الظواهر والمواد على مستوى الذرات.

ثلاث ضحايا لقاتل لم يترك خلفة دليلًا واحدًا، أسمته الصحافة "النيوترينو" لأنه شبح يصعب اقتفاء آثاره، كجُسيم "النيوترينو" الشبحي الأصغر حجمًا من الإلكترون، بلا شحنة كهربائية يُستدل بها عليه، وبتفاعل ضعيف مع ما حوله. والمطلوب القبض عليه خلال يوم واحد. لكن كيف؟!

***

كانت النجوم طيّعة لمُراد بدر الدُجى فتبعثَرت حوله تنبض ببريق واهن؛ تأبَى سماء تلك الليلة أن تحتضن بين جنباتها بريقين.

طرقت خطوات حازمة أرض الشارع الهادئ، فضاعف الصدى من قوتها كنبضات خافق واثب. لم يتلفَّت إلى غير وجهته، حتى توقفت قدماه أمام مبنى قديم مُغبَّر يصرخ بالاهمال، ساكنًا راقبه بعيون صغيرة مسحوبة لا تنتمي إلى العيون الواسعة لأهل هذا البلد.

له نظرات تحمل من الغلظة والقسوة بقدر ما تحمل من الغرور والأنفة، وشفتان دقيقتان مذمومتان مقوستان إلى أسفل تنطقان بعناد صاحبهما، غُرة عريضة، وشعر أسود غزير يحيط برأس مستدير ذو بشرة بيضاء مشربة بالحمرة، يتوسطه أنف معكوف، تعلو جسدًا متوسط الطول والبنية.

دسَّ أصابعه في مغارة سترته الجلدية سوداء اللون، بدا مرتاحًا خالي الوفاض، وكأنه يملك الزمان كله. أبصر بطرف عينيه أحد حراس المبنى مقبلًا صوبه، يرتدي الزي الميري المميز، فلبث بلا حراك حتى تلاقا وجهاهما، وبادره بحدة:

- أنت! ممنوع الوقوف هنا؛ هذه مُنشأة ملك للدولة.

رفع عينيه ذات النظرات العابثة، يسترق النظر إلى المبنى المستقر بجوف الظلام، ثم قال ببراءة مصطنعة:

- هذا المبنى خالٍ ومغلق منذ سنوات، عَشش العنكبوت بكل شبر فيه، لماذا تصرفون الوقت والجهد وأموالنا في حراسته؟

وكزه الحارس بكعب سلاحه، وزجره بعنف:

- لا شأن لك بذلك. انصرف وإلا اعتقلتك في الحال.

هازئًا رفع باطن كفيه أمام وجه الحارس باستسلام، ودار على عقبيه بعدما شيعه ببسمة ساخرة، لكن الحارس استوقفه جاذبًا ذراعه، وأداره سيرته الأولى، وبحركة سريعة مدروسة شكَّل الحارس سلاحه كما تتشكل قطعة العجين، وأنتج منها جهازًا مستطيلًا، بدا كشاشة عاجية اللون، مرر أحد وجهتيه أمام وجه الرجل الذي ما فتر ثغره عن الابتسام. كل ما استغرقه المسح الضوئي ثانية واحدة، ثم ظهرت بيانات متتالية فوق الشاشة بلون أرجواني مضئ، مُعد أتوماتيكيًا للقراءة المريحة في الضوء الخافت، أسرع الحارس بإلتهامها بعينيه، ثم ما لبث أن تشكَّلت قسماته بآمارات الدهشة وهو ينظر إلى الرجل قائلًا:

- لماذا لم تقل أنك أجنبي؟

أجابه الرجل ذو السترة السوداء بسماجة:

- لم تسألني.

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

- أتنسَّم الهواء.

استعاد السلاح شكله الأول بحركة أصابع خبيرة، حاول الحارس أن يُضفي على صوته شيء من الحزم قائلًا:

- حسنًا، أرجو أن تتنسَّمه في مكان آخر.

خطفت نسمةٌ باردةٌ الحزمَ من صوته، ثم ردد بآلية:

- ممنوع الوقوف هنا.

انصرف الرجل تتبعه نظرات الحارس الذي ما لبث أن عاد إلى موضع حراسته، يسترق النظر بريبة إلى الوجهة التي سلكها الرجل، حتى تبدد تمامًا في الظلام.

خلع الرجل سترته الجلدية وألقاها خلف ظهره، معلقًا إياها فوق إصبعه كالمشجب. سار في ممرات ملتوية تحت أرض الشارع التي يعلو سطحها قضبان كهربائية خفية كعروق بشرة قرنفلية، ترسم خطًا مروريًا لا تحيد عنه السيارات أثناء سيرها. ممرات ضيقة، لا يهتك ستر ظلامها سوى ضوء مبعثه حلقة ملتفة حول معصمه.

اعتلت ابتسامة مرحة شفتيه، يطيل النظر إلى السقف إذ وصل إلى نقطة معينة علم عندها أنه الآن في هذه اللحظة عبر بوابة المبنى الذي كان يقف أمامه مع حارسه منذ لحظات.

بدا خبيرًا بكل شبر، فعلى الرغم من التفريعات التي بدت عشوائية إلا أنه انحرف فيها بثقة، حتى استقر أمام باب مغلق بقفل إلكتروني، وجهاز لكشف الهوية، ما إن قرب وجهه من شاشته؛ حتى استحال ضوئه الأحمر إلى الأخضر، وانفتح الباب.

أبصره الرجل المستلقى فوق مقعد هوائي، وقد انعقد ذراعاه خلف ظهره، مقيد بأصفاد ليزرية. فانتفض باضطراب وقد نبض عرقًا خلف أذنه، تابعته عيناه بقلق وهو يدلف للداخل، ويعلق سترته بعناية فوق نتوء بارز، ثم يلتفت إلى الجدار المواجه لمقعد الرجل المقيد.

نقر فوقه نقرتين فانفتح الجدار عن شاشة كبيرة، مسح بأصابعه فوقها؛ فأضاء الشاشة لتعرض أهم أنباء اليوم، والذي لم يكن سوى حادثة مقتل العالِم الدكتور "نائل صالح" في القصر الرئاسي.

اتسعت أعين الرجل المقيد في ذهول وهو يُبصر صورة وجهه باتساع الشاشة. انعقد لسانه وارتج صدره بتنفس مضطرب، نقل عينيه بين الرجل والشاشة، تنطق عيناه بسؤالهما في ذهول. خفض الرجل الصوت، والتفت إلى دكتور "نائل" الذي استعاد صوته أخيرًا ليسأله:

- من هذا؟.. كيف يشبهني إلى هذا الحد؟!

- في هذه اللحظة يظن كل مخلوق على وجه هذه الأرض أنك ميت.

سأله الدكتور "نائل" بفزع، ولا يزال ذاهلًا:

- أنت "النيوترينو" أليس كذلك؟..كيف فعلتها؟.. ماذا تريد مني؟

أخرج الرجل من جيبه أنبوبًا يُشبه القلم، وتحت نظرات دكتور "نائل" المندهشة سحب بتراخي ثلاث نملات، وضعهم الرجل في فمه وهو يلوكها متلذذًا، فنطقت قسمات دكتور "نائل" بالتقزز، بينما سمعه يقول:

- بعض النمال يتم تخزين العسل في بطنها، إنها رائعة المذاق، أتريد واحدة؟

هز دكتور "نائل" رأسه نفيًا بقوة. توجه "النيوترينو" إلى أحد جدران الغرفة. كان زجاجيًا مغمورًا بالكامل في إضاءة حمراء، خلافًا لباقي الجدر الإسمنتية التي بدت بيضاء معقمة. وقف أمامه للحظات، ثم توجه إلى مقعد دكتور "نائل"، طرق "النيوترينو" سبابته بإبهامة ثلاثة نقرات -وقد بدا أنه تجاهل أسئلته- فانفتح على إثر ذلك شاشة شفافة مضيئة بلون دخاني، تفحص بياناتها ثم اختار ملفًا بحركة واحدة من رمشه. حرك الشاشة بأصابعه حتى استقرت أمام وجه الدكتور "نائل" ثم قال:

- أريدك أن تقرأ هذا.

استقر بصره على الصفحة الأولى للملف، كُتب فوقها بخط عريض "قزم مَينُورا .. سرِّي للغاية"، بإندفاع أشبه بعناد طفل هتف بالرجل:

- لن أفعل قبل أن تجيب أسئلتي.

نهض الرجل بغتة، ودار حول مقعد دكتور "نائل" الذي حاول أن يلتفت لينظر ماذا يصنع، انقض الرجل على يده المقيدة واستل آداة ليزرية حادة من جيب بنطاله، قرب فمه من أذن دكتور "نائل" وهمس بصوت كالثلج:

- تعلم أنك لن تحتاج أصابعك السمينة تلك في تصفح هذه الملفات، فما رأيك أن أستعير منك واحدًا.

هتف دكتور "نائل" صارخًا بألم رهيب:

- أرجوك لا تفعل.. انتظر..كلاااا!!

***

كان يعلم أن آلام الإصبع المبتور ستزول خلال دقائق، وأن الضمادة المُلتفة حول الجرح بإحكام ستمنع تدفق النزيف. وعلى الرغم من ذلك كاد أن يفقد وعيه ألمًا وفزعًا خلال دقائق بدت كساعات، تلألأت فوق جبينه حبيات عرق لم يُعنَى بمسحها، أبصر "النيوترينو" وهو يضع إصبعه المبتور على طاولة أمامه، ويشير إلى الشاشة المفتوحة محذرًا:

- إن لم تبدأ بالقراءة سريعًا سيتأخر حصولك على عناية طبية لازمة.

قالها وغادر المكان بعدما أغلق الباب آليًا، أحنى الدكتور "نائل" عنقه للخلف محاولًا رؤية الضمادة المحتلة فراغ إصبعه المبتور، لكنه لم يوفق.

ندت من عينيه عبرة قهر فامتصها بكتف قميصه سريعًا. شعر أخيرًا بسكون نبضات الألم بمكان البتر، فالتفت إلى الشاشة المضاءة أمامه والمعلقة في الهواء، محاولًا صرف أنظاره عن أصبعه الذي تركه "النيوترينو" أمام ناظريه كأبلغ تهديد، يتطلع مرة أخرى إلى الجملة الوحيدة التي استقرت أمامه، أغمض عينيه لثانية ثم فتحهما، فانقلبت الصفحة الأولى.

***



قزم مِينُورا

سرِّي للغاية



الملف الأول

ما أجمل العزف على أوتار السماء، تخترق رجفة النسيم جناحيه، فيشعر برذاذ الحرية يُراود الجسد والفؤاد. يرسو تارة فوق أوراق الشجر، وتارة فوق سفح التلة السوداء التي لطالما تسابق صغيرًا مع أقرانه في الوصول إليها. وَدَّ لو استمر حلمه أبد الدهر، وفي أحضان السماء يترنَّم بلحن الحياة. لكن كيف يعانق الشمس دون أن يمسه لهيبها؟!.. أبصر جناحيه وقد أصابهما البلاء، فتساقطت أحلام عمره تحت قدميه أشلاء.

تحركت عيناه بغتة كمقاتل يتحسس خطرًا، يمشط ما حوله بنظرات متحفزة تشهد وضعًا مريبًا، باعثا على الوساوس، شحَذَ عقله ليتذكر أين هو، وماذا يفعل في هذا المكان العجيب!

غاب عن ذهنه بعض صفائه، فقام من مرقده، وانتصب جسده، تريَّث حينًا ملتمسًا أن تخمد جذوة اضطرابه، ويذهب عنه تشوشه.

لا شيء حواليه سوى صخور صماء، وظِل وارف لأشجار باسقات، ومنفذ واحد لا يحرسه ما يحبس مروره لو شاء، فعزم على أن يفعل. ومع خطواته الأولى بَرَز أمامه غريب لم تقع عيناه عليه من قبل، رنا إليه ساكن الطرف متحفزًا، وكذا فعل الغريب متأملًا، كأنه يحاول سبر أغوار فكره. لبثا مليًا، كأن الجو المقبض لهذا المكان قد وأد بداخلهما أي رغبة في الكلام. ثم استدار الغريب راحلًا على حين غرة!

تبعه صائحًا بلهفة:

- أنت! انتظر.

تعجب من الغريب الذي لم يأبه لمطلبه، آنس خدرًا في أطرافه مما أعاق قليلًا لحاقه به. أبصره وقد وصل إلى نهاية الطريق الذي أفضى إلى صخرة كبيرة تطل على نهر أسود يبتلع كل شيء، فظن أنهما يقفان على ربوة عالية، أو لعله جبل شاهق عظيم، لا يدري. وصل إلى الغريب الذي أولى نظره إلى النهر!.. لاهثًا جذبه بحده يستصرخه:

- لماذا لا تجيبني؟! من أنت؟!

لم يدر أن هذا السؤال بالذات سيثير في رأسه دوامات من الأسئلة، تنبَّه إلى أنه لا يعرف حتى هويته هو! فكان أولى به أن يصيغ سؤاله: من أنا؟!

استعمرت الهواجس حنايا عقله، حاول أن يُرتِّق ثقوب ذاكرته فأبَت وتمنَّعت. ألَمَّ الألم برأسه؛ فتوقف عن الغوص أكثر في صفحات ماضيه البيضاء كالثلج. تنبَّه إلى النظرات التي يحدجه بها هذا الغريب، والتي تند من عين واحدة، أما الأخرى فمكانها فراغ بئر رهيبة مظلمة! بدت نظراته غريبة كوصفه، عصية الفهم، غامضة، لم يقرأ فيها سوى بعض الحزن المشرب بالحنان، أو لعلها الشفقة. ابتدره بصوت كحزن الناي:

- تذَّكر جيدًا.. أنت اخترت قدرك بنفسك.

همَّ أن يستفهم لكلامه عن معنى، ويستنطقه بإجابات كل الأسئلة التي تراود أفكاره عن نفسها، حتى لو اضطر إلى أن يلوح أمام وجهه بسلاح

القوة مهددًا، لكن الغريب لم يفسح له المجال قط، نطق بجملته الأخيرة، قبل أن يقفز قفزة الموت قائلًا:

- وهذا هو اختياري.

***

مستجمعًا ما تبقى من شتيت عقله، سار فوق الصخور بأطرافه العارية إلى غير وجهة محددة يقصدها. يبحث عن أي كائن حي في هذا المكان، الذي لا يتراءى في جوانبه أحد، وكأنه سقط من خارطة الأرض. حرارة، وجوع، وعطش تكالبوا عليه وأي واحد منهم كافٍ ليسلبه حياته.كادت أن تخور قواه فتوقف متعبًا. انصرفت عيناه إلى ما حوله متأملًا، بعدما انتهت صفوف الأشجار، لا شيء حواليه سوى الصخور، آلاف منها، متباينة الحجم واللون والشكول. كان سيبدو ذلك بديعًا باعثًا على الجمال لو كان يتطلع إليها بينما هو آمن في سربه، يملك قوت يومه، لكنه الآن في مأزق، وأي مأزق!

أخفق عقله في استعادة ملمح واحد من حياته السابقة، أدام النظر إلى جسده متفحصًا؛ عله يعثر على علامة أو إشارة تفيده في استكشاف هويته، لكن لا شيء سوى جسد بلون أسمر، اتَّسم بالنحافة، وبقامة متوسطة. فطِن الآن إلى أن الغريب ذا العين الواحدة كان يشاطره نفس اللون والبنية تقريبًا، فعسى أن يكون أحد أقربائه، أو لعله مجرد صديق، ربما! لكن ما الدافع إلى انتحاره؟! بدا هادئًا مسالمًا، غير قادر على الإيذاء، فلماذا يؤذي نفسه ويوردها المهالك؟ وما معنى أن هذا خياره؟ تاق لأن يعرف لتكف رأسه عن الغليان بأسئلة لا يجد بنفسه إجاباتها، ولا من يجيب له عنها في هذا المكان الموحش.

صخور، وصخور، والمزيد منها، مزيج نفاذ من رائحة ترابية ومعدنية مغلفة بنكهة مملحة، اخترقت حواسه عنوة، حتى بات لا يشتم سواها. خمَّن أنه يدور حول نفسه في حلقات مفرغة، للأسف لا سبيل لأن يتيقَّن ظنه. ها هي صخرة أخرى عليه أن يتسلقها، فعل بمشقة بالغة هذه المرة، ومفاصل جسده تئن بضراوة. وأخيرًا، عثر على زهرة حمراء بديعة الجمال! تتراقص بغُنْج على نغمات الرياح مستظلة بصخرتين كبيرتين. تطلّع إليها والحيرة تستبد به، انبهر بها حتى عدَّها أجمل زهرة يمكن أن تقع عليها عيناه، اشتم أريجَها المُسكر، يخالطه شيء من المرارة تجاهله. دسَّ يده بين الصخرتين، وانتزع جزءًا كبيرا من إحدى وريقاتها، ثم التهمه بنهم. لم تكد تمر لحظات أخرى حتى تأمل الزهرة بتمعن، كانت تجاورها زهرات أُخر مُعلقات على الفرع نفسه، ساحرة بلونها الأحمر كقلب دامي، انتفض فزعًا ملقيًا ما يحمله منها أرضًا. لقد تذكَّرها! إنها زهرة "القلب النازف"، حتى وإن كان لا يتذكر من يكون، إلا أن ما يعرفه جيدًا هو أنها.. زهرة سامة!

هرول مذعورًا بقلب واجف في الاتجاه الذي أسلمته إليه أقدامه، يلوم نفسه لتسرعه في التهامها، صرخ بعلو صوته مستغيثًا بمن يستنقذه من السم الذي يسري الآن في خلاياه، لكن بقى نداؤه بلا صدى، فكر ساخرًا في لحظة يأس: لعل الموت بسم سريع الأثر أهون من الموت بمعدة فارغة تحت قيظ هذه الشمس الحارقة.

***

أثناء تعجله في السير على غير روية، وقد أهمه التفكير، وأعياه إيجاد حل لورطته، باغته صوت صرخات من حيث لا يحتسب، لاحت له فيه

بارقة أمل، تلفَّت حوله بلهفة مستطلعًا لمصدر الصوت، هرول في الاتجاه الذي ظن أنه ملاق فيه أصحاب تلك الأصوات الصاخبة، يستنجد بهم عسى أن يجد عندهم لعييه دواء.

أبصر مصدر الصوت فكاد أن ينشق صدره من الرعب، حرب ضروس تدور رحاها على بعد خطوات منه، يتساقط فيها القتلى مقطعي الأوصال بوحشية، جثث باردة الدماء، وأشلاء مزقتها الأسلحة ونثرتها في كل مكان، صياح الحرب يزلزل أزيزه الأرض من تحت الأقدام. موت يجثم على وادٍ أسفل الصخرة، وقبل أن يستجمع أشلاء نفسه رأى الكثير منهم يشير إلى الصخرة التي تستقر فوقها أقدامه، ويهتف بعضهم بهلع:

- انقذوا الملك!

وتعالت صيحات أخرى شرسة:

- اقتلوا الملك!

تدلَّى برأسه فأبصر أحدهم يتسلق الصخرة، وقد قارب الوصول إلى قمتها، هربت الدماء من أطرافه، تراجع إلى الخلف فزعًا، وقبل أن يولي مدبرًا، دفعه الملك الهارب بحدة فطرحه أرضًا مهرولًا بعزم طاقته، أبصر آخرين يتسلقون الصخرة وهم يتقاتلون بشراسة، فأسلم أقدامه للريح في الاتجاه الذي هرول فيه الملك. تعالت صيحات المتسلقين من خلفه فاستبد به الذعر، وارتعشت أطرافه، ووهنت قوته فكاد أن يسقط أرضًا، انحشر نصف جسد الملك في ممر ضيق بين صخرتين بدا مكانا مثاليًا للاختباء، التفت يرمق بهلع المتسلقين الذين نجحوا في الارتقاء إلى قمة الصخرة، يتقدمهم بعض أفراد الفريق الذي يبغى بالملك فتكًا، وجوه نهمة تواقة إلى رائحة الدماء! اندفع بحدة يحرر ما عَلَقَ من جسد الملك:

ليتمكن من الاختباء بدوره، آنس في نفسه قوة اكتسبها بفعل الخوف على حياته ورغبته في النجاة، فدفع بعزم وإصرار، حتى مكَّن جسد الملك من العبور، وعلى الفور اندس بجسده النحيل مختبئًا بجواره في ذلك الممر بغير عناء كبير.

سمعا وقع الأقدام تقترب من مخبئهما؛ فأصغيا السمع إلى أن بعُدت عنهما الأصوات شيئًا فشيئًا، فسكن ثائرهما قليلًا.

- لقد أنقذت حياتي!

تنبَّه إلى الكلمات الهامسة للملك فتطلع إليه باهتمام، تعجب من اختلاف جسديهما في اللون والبنية، فلونه الأسمر يقابله الأحمر عند الملك، الذي يزيد عنه في الطول والوزن بمقدار لا يمكن تجاهله. كم هذا عجيب! بدا أن كلا منهما ينتمي إلى عالم مختلف تمامًا عن الآخر، قاطع الملك استرسال أفكاره دون أن تنطق قسماته بمعنى لتلك الاختلافات بينهما:

- لن أنسى معروفك.

لم يجد بُدًّا من الابتسام ساخرًا، فلم تكن خطته إنقاذ حياة الملك قط، ولا يأبه إن عاش أو قُتل. كل ما أراده هو الاختباء من المحاربين في ذلك الممر المستتر، وأعاق جسد الملك نافذة مخبئه فدفعه لينقذ نفسه، لا لينقذ الملك!

ضنَّ بهذا التوضيح وأسرَّ به في نفسه، فعسى أن يساعده الملك ردًّا للجميل الذي يظن أنه أسبغه عليه. سرت قشعريرة بأطرافه فهزها

يجتلب دفئًا يدفع به عن نفسه هذا البرد الذي باغته. ساءت حالته أكثر، واستشعر خدرًا يحجب صفاء تفكيره، سمع صوت الملك بقلق مستفهمًا:

- ما بك؟!

سقط على جنبه أرضًا، في الوقت الذي أبصر فيه بنظر مشوش أحد المحاربين يتطلع إليهما من فتحة الممر وهو يصرخ:

- عثرت عليهما.

لا يدري أيهما أبشع، الموت مقطع الأوصال بسلاح هذا المحارب ورفقائه، أم بالسم الزاحف في خلاياه، آخر ما نطق به بمشقة قبل أن يسقط في بئر عميقة مظلمة:

- القلب النازف.

***

الملف الثاني

مضى الليل إلا أقله، ولايزال الوجوم يعلو وجوه سكان المملكة، غُزلت ريح الموت بأنين الثكالى، والألم يغلي بمرجل أفئدة تحترق بوداع من ذاقوا حتفهم. تند من العيون آهات وحسرات على من فقدوا أطرافهم، وبجروحهم الغائرة تشوهت أجسادهم، يرتجي بعضها برأ وبعضها سيحصد آجال أصحابها بغير عناء، صراع قسري مع الألم سيُتوَّج لا محالة بالموت. مازال مرمَى أبصار الجميع الفظائع التي عاشوها اليوم فوق ما يعدونه أكثر من مكان يجمعهم، إنه وطنهم والمعنى الوحيد لحياتهم. أصوات الحرب يجلجل صهيلها في رؤسهم تأبى أن تبرحها، تذكرهم بتفاصيل تاقوا إلى محوها من ذاكرتهم، ودفنها في وادٍ سحيق إلى الأبد.

شدَّ المحاربون وثاق الأسرى وقادوهم إلى السجن في انتظار قرار الملك، تلظَّى أهالي "مينورا" فوق نيران الحقد والغضب، تتنامى رغبتهم في الفتك بالأسرى دون إبطاء، لكن المحاربين أبعدوهم بحزم، مُبشِّرين بأن ملكهم لن يحرمهم لذة الإنتقام لتنطفئ فورة غضبهم.

لكن عصبة منهم أبوا الانتظار، فاجتمعوا في الساحة أمام مقر السجن، واتفقوا على أن القصاص يجب أن يتم الليلة ولاتزال دماء قتلاهم تعانق التراب. تفتَّق ذهنهم على خطة مُحكمة لمهاجمة الأسرى أثناء وجبة المساء، التي سينهمك في التهامها المحاربون مرهقو الأجساد بعد يوم

شاق عصيب. فتربَّصوا في مخابئهم حول السجن، لا يغيب مدخله عن أعينهم لحظة واحدة، ولذة الانتقام كالحلم تنسجها عقولهم، شاهرين أسلحة حادة، تُقطِّع وتُمزِّق وتجز الرؤوس، نَصلها مُطعَّم بحقد قلوبهم.

***

في الصباح اغتسل منتشيًا مزيلًا عن جسده أردية الغبار ووعثاء سيره الطويل، استكانت نفسه واستراح جسده بعدما ارتوى من كأس الكَرَى، وتدفق السرور من وجهه مغتبطًا بنجاته. يغيب عن وعيه تحركات محاربي الملك وهم يحملونه إلى مملكتهم، ويزيلون من جسده آثار السم، شكر تصاريف القدر أن تمكن من إخبارهم بعِلَّته قبل أن يسكن جسده. غادر الغرفة الفسيحة مستطلعًا المملكة، علم من الخادم الذي اعتنى به وقدَّم له الطعام والشراب أن مملكتهم تُدعى "مينورا"، اسم غريب! لكنه مثير كما الإثارة التي يبعثها في نفسه هذا المكان.

تأمل بانبهار آيات الإبداع الظاهرة للتصميم المعماري لمساكن وممرات المملكة، فُرشت جُل أرضها بالحصى متعدد الألوان والأحجام والشكول، يغلب عليها اللونان الأخضر والأصفر، وغُطى سقفها بقبة عظيمة معروشة من جريد النخل وأوراق الشجر، تنفذ آشعة الشمس ونفحات الغمام من فتحات كثيرة تركت بلا ساتر، قبة مهيبة وارَت المملكة بكاملها؛ فيرتع أهل المملكة في ضوء الشمس الذهبي بعد أن خفَّت حدته وتكسَّرت؛ فتتوالد منه سبعة ألوان من البهجة!

يتوسط المدينة أعمدة عديدة باسقة من سيقان النخيل والشجر، يلامس بعضها القبة والبعض يكاد. أمَّا حواف المملكة من الجهات الأربعة تحدها صخور متراسة متجاورة. يحرس ممرات على مساحات متفرقة بين

الصخور بعض من محاربي "مينورا" الأشداء. لابد أن بناءه بهذا الإبداع قد استغرق من الوقت الكثير، وتطلَّب عمالًا مهرة لا يرقى لمثل مهارتهم أحد. لا يتخيل الوقت والجهد الذي استغرقه صانع المملكة في بناء جنة يلوح على لبناتها سمات الابتكاروالإجادة. الشجرلا ينمو بلمح البصر، فأي صبر هذا الذي حفَّز ذاك الصانع لغرس البذور والانتظار إلى أن ينمو الزرع ويستطيل مُقبِّلا ثغر السماء!

علم مبعث تلك الرائحة العطرة الآسرة التي تنشقتها حواسه، واستحوذت على انتباهه منذ اللحظة الأولى التي استيقظ فيها، رائحة مميزة للأشجار والزهور ينفسح لها الصدر، تقر بها العين، تُسري الهم، وتُجلي الكرب. بُنيت المساكن فوق الجذوع، من الخشب وأوراق الشجر، وأغصان نُزع عنها ألذ الثمار، فأرجت للمملكة كلها بعبير الحياة، لو كان للحياة رائحة مميزة تُعرف بها؛ إذن فلابد أنها تتراقص الآن معانقة نسمات "مينورا".

وصل إلى بوابة المملكة، ودون أن يمر عبرها أبصر خارجها الساحة التي شهدت المعركة الطاحنة بالأمس، اعتملت في نفسه الدهشة لبراءة مظهرها، لا يشي أي ركن فيها بجرم حرب شهدها، ساحة نظيفة افترشها الحصى تُمهد الطريق إلى المملكة.

التقطت حواسه حالة الاستنفار التي تنثر ذبذباتها في هواء المملكة، تحسس التوتر الذي يكسو وجوه جميع من يمر بهم في جولته الاستكشافية، وحركاتهم المضطربة، نظرات غريبة يرمقه بها كل من تتشابك أعينه معه، تتأرجح بين التوجس والرهبة! أراح جسده فوق فرع شجرة عريض، بدا كمقعد كبير مريح، وأعمل نظرة فيمن حوله مندهشًا

من البون الشاسع بين أهل المملكة. بدا له شعبها مختلط الأجناس، وكأنهم شراذم متطايرة من الأمم، تم جمعها من كل بقاع الأرض. لا تُقر سيمائهم بوحدة عرق أو أصل، لبعضهم سمار باهت، وللآخرين لون أصهب، لكن أكثرهم كانوا من أشباه الملك ذو البشرة الحمراء والقامة الفارعة العريضة. عدَّ نفسه أقصر أهل المملكة قامة، وأقلهم حجمًا. تلمَّس المثلث الذي يتوسط منتصف جبهته، ووقر في نفسه أنه تشوهٌ أصابه، زوايا المثلث كما لو كانت بثورًا صغيرة، يؤلمه العبث بها، ولا يدري لماذا هو الوحيد الذي يحمل تلك العلامة الغريبة.

انقض عليه بغتة من الخلف جسد ثقيل طرحه أرضًا، وسمع صاحبه يهتف بحماسة مستجلبًا انتباه المارة:

- أمسكت الأسير الهارب، ساعدوني.

وكأنها إشارة خضراء لينقض عليه البعض، يساعدون صاحبهم على تثبيته بالأرض بعنف.

- أين المحاربون؟

- لسنا بحاجة إليهم، فلنقتله بأنفسنا.

- احذروا، لا تفلتوه.

أفضت إلى الفشل محاولاته المستميتة للإفلات من قبضاتهم التي يكبل كل منها موضعًا من جسده، فاستكان مضطرًا للامتهان، تسرب إلى فمه التراب مختلطًا بلعابه، أفصح بمشقة بالغة وقد أرعشه الخوف:

- أنا لست من تظنون، أنا..

أوقفته ذاكرته العطبة عن استكمال شرحه، فلايزال لا يدري من هو، ليثبت لهم أنه ليس من يبحثون عنه.

- انظروا إليه.. ليس هو.

كاد أن ينهض مُقبِّلًا قائلها لولا أن منعه تكبيله أسفل أقدامهم، حرروا رأسه، فتمكن من التطلع متوجسًا إلى عيونهم المحملقة به، مرتعد الأطراف، بدت الخيبة على وجوههم، اعترض أحدهم بعناد وهو يشير إليه باحتقار:

- إنه واحد من "الجوييم".

- لكنه ليس من "جوييم مينورا"، فلنوفر جهودنا للبحث عن ذلك النجس الهارب، هيا بنا.

سكن ثائره قليلًا متنفسًا الصعداء، مُبصرًا إعراضهم عنه، وآيات التقزز تستقر بجلاء فوق وجه آخرهم إنصرافًا، وهو يمسح يديه بجسده هاتفًا بغيظ:

- سنضطر جميعًا إلى الاغتسال الآن.. "جوييم" نجس.

استنهض متفحصًا جسده المُطعَّم بالخدوش، ثم سار متوجسًا خيفة ومفاصلة تئن بألم. عليه أن يكتشف في أقرب وقت هويته، فطالما هويته مجهولة له، سيُشكل مكوثه في "مينورا" خطرًا على حياته محدقًا، لكنه أيضًا لا يستطيع مغادرتها متخذًا مرة أخرى من المجهول وِجهة، ومن الجهل زادًا، يمخر الخوف عباب قلبه، فعسى لا يكون له مثل حظ الأمس. عمد إلى البحث عن مقر الملك، فإن كان لايزال يظن أنه أنقذ حياته، إذن فعليه رد الجميل، وإسعافه بحاجته.

***



الملف الثالث

التمس مقابلة الملك، ولفرحته لم يخالط ذلك ولا قليلًا من المشقة."أنا الذي أنقذ الملك بالأمس" كلمة السر التي فُتحت له على إثرها الأبواب. كان الملك قد بعث في طلبه، فتلاقت الرغبتان، وجمعت بينهما قاعة الحكم.

ساقه أحد المحاربين إلى شجرة عدَّها أضخم أشجار المملكة، كشمعدان عملاق ذي سبعة أفرعٍ، وأشار إليه أن يتبعه متسلقًا، ففعل بغير مشقة، لها نتوءاتها بارزة بشدة كموطئ للأقدام.

انبثق ألق الإنبهار من وجهه وهو يعاين قاعة حكم شيدت على الفرع الأوسط من الشجرة، مُزدانة بأغصان تعانقت مُحملة بالثمار الناضج فوَّاح العطر؛ لتشكل عرشًا ويستنبت الملك منها صولجانه. سقفها فسيفساء من الأحجار بديعة الألوان مرتفعة بلا عَمد! لا مُمسك لها عن السقوط فوق الرؤوس، كأن الشجر طيّعًا لرغبات الملك، ينمو باسقًا أنَّى يشاء، بلا تمرد ولا عصيان. مكان به الكثير من الغرابة والإبداع.

- أهلًا بالبطل.

كاد أن يُفتضح أمره بالضحك، بطل! فما هو إلا بطلٌ بالصدفة، شيَّد مباني مجده بالخداع، لكنه أعاد التفكير في الأمر وهو يُسَرّي على نفسه:

"لا لست مخادعًا، أنا لم أكذب، ولم أغش، فقط تركت الملك وظنونه، لقد أساء الفهم، ولا ذنب لي في ذلك".

- يبدو أنه فقد القدرة على الكلام.

أعمل نظره في القائل قوي البنية الواقف على مقربة من الملك، له قامة طويلة يتفوق بها على قامة الملك الذي يشترك معه في جسده المشرب بالحمرة، عريض، قوي الصدر، مهيب الشكل.

خرجت الكلمات منه مرتعشة كالرعدة الخفيفة التي أصابت أطرافه:

- سيدي الملك، لم أفعل إلا ما تحتَّم عليّ فعله، لك مني جزيل الامتنان على كرم ضيافتك لي في مملكة "مينورا"، وقبلها إنقاذك لحياتي.

أشار الملك بترفع إلى ذلك المهيب الواقف بجواره موضحًا:

- عليك أن تشكر قائد المحاربين"رِيشَع"، فلولا إصراره على ضم بعض المُداوين للعناصر المحاربة، لما وجدت من ينقذ حياتك أمس.

توجه إلى "رِيشَع" بالثناء متملقًا:

- شكرًا سيدي، لن أنسى جميلك قط.

- أرجو ذلك.

لا يدري مبعث خوفه من هذا الـ"رِيشَع"، ثقته بنفسه واعتداده بها التي كسته القوة والمهابة، أم نظرات عينيه الفاترة، الحادة كشفرة سلاحه، عينان متسعتان تبعثان في قلبه الرهبة والاضطراب. لذلك عندما سأله عن اسمه، والمكان الذي ينتمي إليه؛ تلعثم للحظة ثم أجاب:

- لا أدري، أنا..لا أذكر أي شيء.

ازدادت النظرات التي يحدجه بها "رِيشَع" حدة وفظاظة، تحمل من عدم التصديق ما تحمل من التهديد والوعيد. أشاح بوجهه عنه متطلعًا إلى الملك الذي ابتدره سائلًا بدهشة:

- كيف ذلك؟!

شحَّذ همته ثم انطلق يقص عليهما ما مر به منذ اللحظة الأولى التي أبصر فيها الغريب ذا العين الواحدة، الذي قتل نفسه أمام عينيه، ثم سيره هائمًا على وجهه باحثًا عن مأوى، ثم التهامه لزهرة "القلب النازف" وهو الحدث الذي أفضى به إلى لقائه بالملك. اختتم حديثه باستجداء الملك:

- وأنا أرجو أن يجود عليّ الملك بكرمه، ويساعدني في العثور على المكان الذي أنتمي إليه.

- إن كنت لا تذكر أي شيء كما تدَّعي؛ فلماذا تظن أنك لست واحدًا من شعب "مينورا"؟

ألقى "رِيشَع" سؤاله بخبث وتشكُّك، فأجاب بسرعة ندم عليها كثيرًا:

- لأنني لم أرفي "مينورا" أقزامًا غيري.

ضحك الملك متفكهًا، وأومض البِشر والإستمتاع من ثنايا وجه "رِيشَع" هاتفًا بخبث:

- أتعلم! إنه اسم يناسبك تمامًا: "القزم"، علَّك تتخذه اسمًا بدلًا من اسمك الذي تدَّعي نسيانه.

استشعر حرجًا في نفسه، وبتوتر قال شارحًا:

- أقصد.. لم أر هنا من يشبه سُمرتي، وأنا أقل من الجميع طولًا ووزنًا بشكل ملحوظ.. حقًا رأيت الكثير من الأجناس المختلطة لكني لم..

اقتُطع حديثه بغتة بعدما انقض عليه "رِيشَع" دافعًا جسده بعنف شاهرًا سلاحه في وجهه، كاد أن يسقط أرضًا لولا جزعًا اصطدم به من الخلف، تطلع بخوف وذهول إلى "رِيشَع" الذي احتدم بلهيب حارق، وقد ثارت في رأسه نزوة الغضب، تضاعف الفرق بين جسديهما في عينيه كثيرًا، حتى أبصر وجه "رِيشَع" ملء السماء وهو يقول:

- لسنا شعبًا مختلطًا أبدًا، إننا شعب "مينورا" العظيم، على قلب واحد.. أتجرؤ أيها "القزم" النكرة على إهانتنا فوق أرضنا، الموت لك.

- "رِيشَع"، هذا يكفي.

احتد "رِيشَع" لأمر الملك والتفت هاتفًا:

- إنه كاذب، أُجزم أنه يخطط لشيء ما.

- لقد أنقذني من الموت، وهذا كاف لي.

- لكنه من "الجوييم"، إنه نجس.

- قلت كفى يا "رِيشَع"!

رضخ ولاتزال عيناه تغلي من الغضب. استغل وقوف الملك بصفه فبادره مؤكدًا:

- أنا لا أكذب أيها الملك، أنا بالفعل لا أذكر أي شيء عن نفسي، ولا أريد بك أو بمملكتك ضررًا، فقط أرجو أن تأمر أحد محاربيك باصطحابي

للبحث عن وطني، مؤكد أنه بالقرب من هنا، مؤكد أنني سأجد هناك من يتعرف إليّ ويجيب على أسئلتي.

لم يكن واثقًا تمام الثقة من ذلك، كان مجرد أمل راود نفسه، أشار الملك إلى أحد حراسه وأمره:

- خذه إلى مسكنه الآن، وأكرم ضيافته.

همَّ بأن يتحدث فبادره الملك قائلًا بحزم أخرسه:

- سنتحدث مرة أخرى.

بينما يجاهد في الهبوط من فوق الشجرة، تنامى إلي مسامعه أصوات الملك و"ريشَع" الهادرة بنقاش محتدم.

رنا أثناء سيره مع المحارب إلى ساحة تجمهر كثيرون بها، سأل المحارب بفضول عن سبب هذا التجمهر وهذا الصياح الذي يخترق مسامعه، فأجابه باقتضاب:

- لقد وجدوا الأسير الهارب.

أطال النظر إليهم، يغيب عن علمه انقضاض عصبة من سكان "مينورا" بالأمس على الأسرى بسجن المملكة، واجتزاز رؤوسهم واحدًا تلو الآخر، مطلقين صيحات الحماسة والغبطة، ففر من بين أيديهم واحدٌ أثناء اشتباكهم مع حراس السجن. انقبض قلبه وزلزله الخوف وهو يراقب تشاحنهم، وقع في نفسه أنهم يتشاجرون، ثم استطاع الإحاطة بحالهم، ففطن أنهم إنما يتنازعون على جثة الأسير الذي أسقوه مرغمًا كأس المنية. انقضوا عليه يقطعون أوصاله بأسلحتهم الحادة، وكل منهم

ينتزع قطعة، يحتفظ بها ثم يتوارى فرحًا بمغنمه. أما هذا الذي ظفر من جثة الأسير بعينيه كان كأنما حاذ الدنيا بأسرها، تشيعه نظرات حاسدة!

نبتت بداخله مشاعر بحرارة الجمرات، ملقية بتساؤل أقحم عليه تفكيره، هل سبق له أن شارك في الحرب؟ هل تنامى بداخله الظلم والقهر، وتعطش جسده للذة الانتقام؟ هل فقد بها حبيبًا أو قريبًا فاستحال الكون من بعده كوادٍ من سجِّيل؟ هل كان مثلهم يومًا ما، الرحمة على نفسه كدخيل لا يسعه مجلسًا؟ هل صنع منه الانتقام يومًا وحشًا بلا قلب؟

لا يجد في هذه اللحظة في نفسه شائبة قسوة أو تفهمًا لرغبة الانتقام، فهل حجبت ذاكرته عن عقله الصور التي صنعت ذاته التي لا يذكرها، والتي لربما كانت ظالمة لا تخالط عدلًا؟! أم ذاته التي لا يذكرها هي ما يلمسه الآن بداخله، لم يغيرها غياب الصور؟!

هل فقد سجاياه عندما غابت ذكرياته عن عقله، أم بقيت ملتصقة به التصاق البحر بأمواجه الهاربة؟

اضطرب العالم من حوله وتبلَّد بخيالاته وهواجسه، وما انقضى من عمره، يراوده حنين إلى ملاقاة نفسه.

- القزم!

استلقى تعانق عيناه سقف المسكن الذي استضافه فيه الملك. ناداه بها "ريشَع" وكأنها مسبة، إنه بالفعل أصغر من الجميع هنا حجمًا، والاسم ما هو إلا وصف لذلك الفارق الذي يراه غير عادي. بطبيعة الحال لا يرى في الاسم مفخرة، لكنه أيضًا لا يرى فيه ما يسوِّد وجهه.



- إنه من "الجوييم"!

تذكر الطريقة التي نطق بها"ريشَع" ذلك وكأنها تهمة. وكذلك فعل الذين انقضوا عليه في الساحة. استبدت به الحيرة والفضول حول هؤلاء "الجوييم" الذين يقيمون في "مينورا"ويثيرون هذا البغض والغضب في نفوس سكانها. لابد أنهم قوم أغاروا عليهم ظلمًا وعدوانًا محاولين أن يسلبوهم أرضهم. تَعلُّق أهل "مينورا" بأرضهم وفخرهم بها تَمثَّل في غضب "ريشَع" لكلماته. أي سر هذا الذي تحويه "مينورا" بين جنباتها؟!

تساءل في نفسه هل ينتمي حقًا إلى هؤلاء "الجوييم". إذا كان الجميع يرى ذلك إذن فليبحث عنهم، عسى أن تنتهي حيرته ويتعرف عليه أحدهم.

انتفض مذعورًا مبصرًا "ريشَع" ماثلًا أمامه، قرأ في عينيه شرًا مستطيرًا، واستشعر فيه الخسة. قيَّد نفسه إلى جذع خلفه مبتعدًا قدر المستطاع عن "ريشَع"، تزأركل حشاياه بالخوف، فلعينيه وقع الموت ذاته!

مثلا متقابلين، واستشرف الخطر خلال لحظات صمت ثقيل الوطء، قطعها "ريشَع" هادرًا:

- لم أصدق حرفًا مما قلت، يبدو لي أنك أذكى مما تدعي، أثق أنك تخطط لشيء ما.

ثم أردف بغضب لا يسكن، وهو يشهر سلاحه بوجهه يهدده، متقدمًا منه ببطء حازم:

- وستخبرني ما هو.

***

الملف الرابع

رَنَت الشمس إلى الأرض بشغف، تَرقب تجمهر شعب مملكة "النسر" وملكها وأمرائها وكُبرائها، في "طقوس الطَهارة" التي تجري في اليوم نفسه من كل شهر، وغزلت بسنا أشعتها لنفسها عرشًا متراميًا فوق أرض المملكة فازدانت ببريق خاطفًا للأبصار. نُسجت أرض المملكة من حبَّات ذهبية تحتضن شعبًا لسمرة لونه سحر متفرِّد، يضوي في عين الشمس وغرة القمر.

شُيدت مملكة "النسر" بتفرُّد، فأرضها مقسمة إلى نصفين، النصف الشمالي يحوي مساحات شاسعة خالية إلا من تَلّين عظيمين، إحداهما سوداء، والأخرى حمراء اللون. يفصل بينهما ممرٌّ كبيرٌ من رمال صهباء، يُقام عنده احتفالات المملكة. يحده غربًا نهر عظيم ماؤه أسود! يمتد من النهر شريانان إلى النصف الجنوبي من المملكة والذي يحوي مساكنها، تصميمها غريب عجيب؛ فالملك والأمراء والجَلاوزة القائمون على حراسة وأمن المملكة يعيشون داخل كهف مهيب، ضم مساحات عظيمة تسعهم جميعًا. وللكهف باب واحد يطل على النهر الأسود. أما الجانب الغربي فما هو إلا مساحات مترامية الأطراف من الرمال.

يعيش الشعب تحت الأرض! فبداخل كهف الملوك والأمراء تجويف عميق جدًا، هوة ساحقة، شُيدت فيها منازل الشعب في طبقات متجهة إلى باطن الأرض، بدت وكأنها ممتدة إلى مالا نهاية. طابقها الأول يحرس بوابته

حارس واحد لا قِبَل للعالم بمثله، بوابة ضيقة بدت كبالوعة وسط الكهف، لا يسمح حارسها بخروج أفراد الشعب منها إلى داخل الكهف الملكي أبدًا. للشعب ست بوابات أخر لا يقوم على حراستهم أحد، تتيح لهم الدخول والخروج دون المرور بالكهف، ثلاث بوابات تطل على الجانب الشرقي، وثلاث بوابات تطل على الجانب الغربي. فيكون مجموع البوابات سبعا.

يثير تصميم المملكة الدهشة في النفوس بقدر ما يثيره حقيقة أخرى، فالفرق بين الطبقتين لا يتَمثَّل فقط في الفصل بين مساكنهم، ولا في معيشة أحدهما فوق الأرض والآخر تحت الأرض، بل تَمثَّل في انتخاب طبيعي أكثر غرابة، فالطبقة التي تسكن الكهف يمتلك كل منهم عينين اثنتين، أما كل أفراد الشعب أوله وآخره لا يملك أحدهم في رأسه إلا عينًا واحدة فقط، أما العين الأخرى فمكانها تجويف مخيف كظلمة القبر!

طفق كل واحد منهم يتخذ لنفسه مجلسًا. الشعب فوق التلة الحمراء، أما التلة السوداء فكان سوادها من الملك وحاشيته، الذي توسطهم متربعاً عرشًا مهيبًا مرصعًا بالأحجار بديعة الألوان لا تحتض أرض مملكة "النسر" مثلها. يعمل نظره فيما حوله بإباء، وقد تعاظمت منزلته في العيون، وانحنت لجلالته الجباه. ارتقى البِشر وجوه شعب مملكة "النسر" أعاليها وأسافلها، مُترقبين بشوق بدء مراسم "طقوس الطهارة".

***

- الموت لك يا أحقر الأقزام.

- لا أريد بكم شرًا، صدقني، أرجوك توقف، ستكسر عنقي.

وقف "رِيشَع" خلفه يشد الوثاق حول رقبته،كاد بحركة واحدة أن يلقي به في عالم الأموات، لكنه تراجع في آخر لحظة وقد مر بباله خاطر برقت له عيناه. دفعه عنه بعنف مهددًا:

- لو ثبت صدق ظني فتأكد أنني لن أتركك تنعم بالحياة لحظة واحدة.

ثم خطا نحو الباب مغادرًا دون أن ينتظر ردًا.

متحسسًا رقبته تأمله وهو ينصرف، فهم أن "رِيشَع" هو أكبر خطر يهدده هنا في "مينورا". عليه أن يخشاه ربما أكثر مما يفعل تجاه الملك، عليه أيضًا أن يتجنب الاختلاط بأحد، حتى يفهم سر هؤلاء "الجوييم" الذين يكرههم الجميع، وإن كان بالفعل واحدًا منهم أم لا. ذكَّر نفسه بسخرية أن عليه أيضًا تجنب الأسر، فما رآه من مصير آخر أسير سيقض مضجعه لليالي طويلة قادمة.

أتاه أحد المحاربين بعد قليل يخبره بدعوة الملك على الطعام، وليمة أعدها خصيصًا من أجل الاحتفال بانتصارهم على أعدائهم في المعركة التي أسموها بـ "معركة الإستقلال". تقبَّل الدعوة مُرغمًا، آخر ما كان يريده أن تمتزج نكهة طعامه داخل جوفه بوجه "رِيشَع" الكالح، ونظراته المميتة، لكن الرفض مستحيل، سيعدها الملك إهانة له، ويحظى بعداوته هو الآخر.

اكتشف أن ما أسماه المحارب بـ "الوليمة" كان احتفالية كبيرة اتسعت لتشمل الشعب كله! اصطف الطعام الوفير بمختلف أنواعه في كل ساحات المملكة، خرج الجميع ليشاركوا في احتفالية النصر. خَصَّه الملك بمكان مميز بالقرب من مجلسه، فساوره الخوف واستنفرت حواسه بسبب "رِيشَع" الذي يبعد عنه خطوات معدودة. افتتح الملك الاحتفالية

بكلمة أثنى فيها على شجاعة محاربيه الأشداء وقائدهم العظيم "رِيشَع"، ونجاحهم في الدفاع عن "مينورا". وشدد بحزم وقد احتلت القسوة قسمات وجهه، أن مصير كل من يجرؤ على الاعتداء على "مينورا" وشعبها هو الموت بأبشع الطرق. فتعالت الصيحات تؤيد كلام الملك.

ارتجف قلبه عندما توجه إليه الملك بحديثه، مبديًا آيات الشكر والامتنان، ازداد توتره عندما اتخذت العيون من وجهه قِبلَة، لمع في بعضها الحذر، وفي بعضها الخوف، وفي أغلبها.. النفور والاتهام! لكنه لم يفهم لهذه الأخيرة سببًا. نال قضمة كبيرة من ثمرة تين جافة وهو يتفكَّر بضيق، لماذا يضعه الجميع بموقف المتهم دائمًا؟ والمثير للغيظ أنه لا يعرف التهمة ليتمكن من الدفاع عن نفسه. وبينما كان تائهًا في غمرة هواجسه، ألقى عليه أحد كبار المحاربين بسؤاله متشككًا:

- أحقًا لا تتذكر أي شيء عن حياتك، ولا حتى اسمك؟

تطَّوع "رِيشَع" بالإجابة، بدا أن الأجواء الاحتفالية قد خففت قليلًا من مزاجه العكر، فقال وهو ينهش قطعة من اللحم المجفف باستمتاع نطقت به قسماته:

- "القزم".. اختاره لنفسه، وقد أحسن الاختيار.

انتقل استمتاعه إلى بعض الحاضرين فاستحسنوا الاسم متضاحكين بسخرية، فكبح غضبته وقال ببرود ظاهر:

- لم أختره ليكون اسمًا لي، ومع ذلك لا أرى فيه ما يعيب، نعم فأنا بالمقارنة بأجساد أهل المملكة أعد أقلهم حجمًا.

أردف مستكملًا طعامه وكأن الأمر لا يعينه:

- حتى أعرف هويتي الحقيقية فلا فرق عندي بأي اسم يناديني الآخرون.

استشعر في كلامه السخف بمجرد أن نطق به فازداد حنقًا على"ريشَع" لأنه تعمَّد الحط من شأنه، وعلى نفسه لأنه لا يجد فيها القدرة على مواجهته، تلمَّس بداخله هشاشة لا يعرف إن كانت إحدى جبلاته، أم فرضها عليه الوضع العصيب الذي يكابده الآن. أبحر بخيالاته فتصور نفسه أحد محاربي"ريشَع" الشجعان، يشار له بالبنان، وينقش بطولاته فوق صفحات الأزمان.

كان المكان من حوله يضج ابتهاجًا، عندما استحسن المغادرة لبعض الوقت، ترك لأقدامه القيادة في ممرات المملكة. أما عقله فأهمَّه المخاوف التي انسلت من معقلها، وراحت الأفكار تتلاطم داخل رأسه بين مد وجذر. غريب يسير فوق أرض غريبة، يحن لشيء مألوف ينتشله من غربته، شيء واحد مألوف مهما كان بسيطًا من شأنه أن يعيد إليه بعض ما فقده من أمن وسكينة. لكنه تعجب من نفسه أنه لم يشعر بداخله بالحنين إلى شيء ما، يرى دواخل نفسه كورقة شجر نضرة لم ينقش الزمان فوقها علاماته.

تعجب أنْ ساقته أقدامه بعد سير مديد إلى المكان نفسه الذي ابتدأ من عنده المسير. أعمل نظره في وجه الملك الناطق بالفرح والحبور، فارتأى انها فرصة مناسبة للحديث معه عن وضعه بالمملكة، وعن هؤلاء "الجوييم" الذين يظن "ريشَع" أنه واحدٌ منهم. وما إن تقدم -مُبديًا الاحترام والتوقير- إلى حيث يقف الملك، حتى استشعر اهتزاز الأرض من تحته، رأى البعض يتلفت محدقًا في الأرض بتوجس، فايقن أنهم أحسوا بمثل ما أحس. وفي اللحظة التالية، وقبل أن يتخذ أي منهم ردة فعل

تفجَّرت الأرض أسفل أقدامهم، وتناثر الحصى والغبار فوق وجوههم وأجسادهم، يصاحبه صرخات هجومية من اثنى عشر فردًا نبتوا من باطن الأرض بغتة. تأملهم "القزم" بفزع، تمكن من أن يلحظ الشبه الشديد بينه وبينهم، فوقع في نفسه أن هؤلاء لابد وأنهم "الجوييم"!!

في اللحظات التالية كان المحاربون قد أفاقوا من غمض المفاجأة على أمر "ريشَع" بالهجوم على "الجوييم" وقتلهم. فتلاقت الأسلحة في قلب الساحة التي تحولت من احتفالية إلى معركة شرسة. نجح أحد "الجوييم" بخفته وسرعته في قطع الطريق على الملك وألقى عليه من حزام بطنه العريض حمضًا حارقًا عديم اللون نفاذ الرائحة. أبصر "القزم" والجميع بفزع جسد الملك وهو يذوب أمامهم بلمح البصر حتى سقط على الأرض كتلة محترقة مشوهة لا معالم لها!

هرب "القزم" من ساحة الحرب مهرولًا فارًّا بحياته، يبحث عن مكان يلوذ فيه بالأمان، لكنه فوجئ بمن ينقض عليه من الخلف، فانتفض جسده وهو يلتفت متطلعًا إلى وجه أحد "الجوييم" الملتصق بوجهه حتى تشمم رائحة أنفاسه، وجه يحمل كل آيات الغضب، ملأ سمعه هتافه الناري، وهو يسدد له لكمة قوية أصابت عينه بقوة:

- فلتحترق حيًا يا خائن.

انطلقت عقيرة "القزم" بصرخة ألم هائلة، امتزجت بصرخة "الجوييم" الذي طال جسده هو الآخر الحمض الحارق، فزلزلت صرخاتهما معًا أركان مملكة "مينورا".

***

الملف الخامس

بدأت "طقوس الطهارة" بمملكة "النسر" برقصات أداها زمرة من الجَلاوزة هم كوكب نُظرائهم، بمهارة لا تُجارى ولا تُبارى، مرسلين بريق أسلحتهم البتَّارة في وجه السماء، رمقهم الجميع بافتتان مستمدين من رقصاتهم الإلهام. مستشعرين القوة الكامنة بداخلهم. نُصب الجَلاوزة في فخر المملكة أعلامًا تتسوَّر شرفات العزَّة، فهُم مناراتها التي لا تُهدم. ازداد إيقاع رقصات الجَلاوزة حدة، فالتهب حماس الجماهير مطلقين صيحات الحماسة والإعجاب. أعقب انتهاء الرقصة صمت مهيب، تهيأ الجميع خلاله ليرقبوا ما يدور فوق أرض الممر الذي يفصل بين التَلَّين. تلاشت حاجة الجميع إلى الكلام، يعرف كل منهم الطقوس التي نُفض عنها غبار اللبس، وانزاح عنها حجاب الريب، لكثرة ما دارت رحاها فوق أرض مملكتهم.

ظهر صفَّان من الجَلاوزة في موكب مهيب، يتكفَّل كل أربعة منهم بحمل أنثى مستلقية في استكانة، لا يبدر عنها حركة ولا مقاومة. ثمانية وستون من الإناث يحمل أجسادهن مائتان واثنان وسبعون من الجلاوزة، يسيرون بخشوع الصلاة إلى حيث أفضى الممر، إلى بركان تقشعر القلوب لعظمته وتُفتن العيون بمهابته، يعرفه جميع أهل المملكة باسم "فم النار". ترسل موسيقى الكون السرمدية نغماتها فتنتثر في الأفئدة منابت القدسية.

تقدم أول أربعة من الجَلاوزة حاملين الأنثى الأولى، ودأبوا في ارتقاء جدار البركان بمشقة تحمَّلتها أجسادهم الفَتّية التي لا تقف أمامها عقبة. تعلَّقت عيون وقلوب خَواص المملكة وعوامها بالجَلاوزة حتى وصلوا إلى "فم النار"، وبغتة توارَوا بداخله، اضطربت القلوب، وأطل الشغف من العيون، حتى عاد الجَلاوزة الأربعة سالمين من "فم النار"، دون أن يظهر للأنثى أثر. فهلَّل الجميع بحماسة وابتهاج، ورج صدى أصواتهم في جميع أرجاء المملكة:

- بذرة الشر طعام النار.. قربان النار شريان الشر.

تكرر المشهد سبعة وستون مرة أخرى، نهج الجَلاوزة سبيل سلفهم، واستنوا بسنتهم، ملقين بالإناث داخل "فم النار". كل مرة تكاد القلوب تبلغ الأفواه، ثم يلتهب حماسهم ابتهاجًا برؤية الجَلاوزة الأربعة وهم يرجعون بغير سوء، فتهتز أصوات الشعب الفائرة:

- بذرة الشر طعام النار.. قربان النار شريان الشر.

من بين آلاف القلوب المتقافزة بهجة، ثمة ثُلة من القلوب الدامية، متناثرة بين الجمع، فشلت في التماهي معهم كبثور الزيت فوق وجه الماء. تنضح تلك القلوب بدموع قهر لن يُسمح لها بأن تُراق، يعلمون القوانين السارية بمملكتهم، العين الخائنة التي يغلبها البكاء، ويرثى صاحبها إحدى الإناث بعد "طقوس الطهارة" مصيره الاحتراق داخل "فم النار"، تماماً كمصير قرابين بذرة الشر. ساروا مُكبلين بأصفاد القهر بين الحشود العائدة إلى الديار، كما لو أن هجير النار بـ"فم النار" طال قلوبهم فأحرقها بحميم مسموم.

استمسك كل منهم بزمام جسده حتى لا ينظر إلى الوراء، نظرة واحدة وستنفطر العيون ويتكشف عن قلوبهم المستور. كاد أحدهم ضعفًا أن ينظر إلى "فم النار" الذي ابتلع رفيقة أيامه، أنيسة لياليه، ومن رسم بعطر أنفاسها سدرة منتهى أمانيه، لكنه تجلَّد كاتمًا أنفاسًا قد تفضحه حرارتها، وثبَّت أمامه عينًا لا تطرف ولا عن درب أقدامه تحيد. أوقفه أحد الجَلاوزة يطيل النظر متفحصًا في عين واحدة حوتها رأسه، فردَّ إليه نظره في ثبات، ضجَّت النفس تأمر الجسد ألا يخون عهد الأمان، "لا تبك، لا تبك، لا تبك"! ظلت عينه على موتها فأفسح له الجلواز الطريق، أكمل سيره متخشب الجسد، مبتور الأنفاس، فائضًا صدره بأنين الأشواق. وفي اللحظات الأخيرة قبل أن يتوارى داخل مسكنه، التفت يسترق نظرة واحدة ظنَّ أنها لن تضر، وداع أخير، فاحترق بغير دخان يفضحه، وسقط أرضًا مبتور الحياة.

***

لم يكن الألم وحده ما جعل "القزم" سريع الاهتياج، بل فقده الثقة في كل من حوله، تشابه العدو والصديق، اتفق الجميع بغير اتفاق على أن يتخذوه عدوًا.

- توقف عن الحركة، ستؤذي نفسك.

- أي أذى أكثر مما أنا فيه الآن، لقد تشوه وجهي.

هتف المُداوي بحدة ألجمته، وحدَّت من حركته المضطربة:

- إن لم تتركني أداوي جرحك فسيصير وضعك أسوأ.

- ألم رهيب بعيني اليسرى، لقد فقدت بصري.

- لا لم تفقده، توقف عن الصراخ والحركة واتركني أكمل عملي وإلا أفقدتك إياه بنفسي.

- لقد كنت"القزم" فحسب، الآن أصبحت "القزم الأعمى المشوه".. آااه.

ألمَّ ألم حارق بجرحه الغائر بالجانب الأيسر من وجهه، بعدما وضع المداوي مادة دبقة فوقه استخرجها بفرك رحيق بتلة زهرة صفراء، وأضاف إليها مسحوقًا ترابيًّا ناعمًا، ثم مزجهم بالماء. وكذلك فعل مع عينه اليسرى التي طالها الضرر. بدا مغتاظًا غاضب القسمات وصورة "الجوييم" الذي أراد قتله لا تفارق خياله. أخطأ في إصابة هدفه عندما اختل توازنه فسقط القسم الأكبر من السائل الحارق فوق جسده، فذاق من الكأس الذي أراد أن يسقيه للقزم الذي نجا إلا من رذاذ أصاب الجهة اليسرى من وجهه بحرق يأمل ألا يترك أثرًا قبيحًا.

- انتهيت، لا تُزِل ضمادة عينك، ولا تعرضها للشمس أبدًا لعدة أيام.

ضمادة بدائية من الألياف ثُبتت بمادة لاصقة فوق عينه، تلمَّسها بحذر متفحصًا. تنامى إلى مسامعه صوت منادٍ يأمرهم بالتجمهر عند الحائط الجنوبي للمملكة قائلًا:

- أعلن قائد المحاربين "ريشَع" أن الليلة هي ليلة القصاص لمقتل ملكنا الشجاع من "الجوييم" الأنجاس.

استنهض رغم ألمه دافعًا بنفسه إلى خارج مسكنه ليشهد ما سيحدث، لكنه توقف خائفًا من أن يعترض طريقه أحد سكان المملكة الغاضبين، فكونه من "الجوييم" قد يدفع بهم إلى الاعتداء عليه وقتله في الحال.

لحسن حظه أنه لا يبعد عن الحائط الجنوبي إلا قليلًا، فصوت سكان "مينورا" يطن في أذنه بصيحاتهم الغاضبة.

متحاملًا على نفسه تسلق شجرة قريبه من مكان ضيافته، أبصر بالقرب من الجدار الجنوبي حفرة واسعة اكتظت بعشرات من "الجوييم" وحولهم سكان "مينورا" ومحاربوها، يكيلون لهم الضرب والسباب. وقف "ريشَع" على صخرة عالية يخطب فيهم بصوت لم يصل إلى مسامع "القزم"، ثم أشار "ريشَع" بيده نحو الحفرة فازداد الصياح، وبدا وكأنه أمرهم بما أسرى بقلوبهم البهجة.

ضج قلب "القزم" بالخوف لمرأى سكان "مينورا" وقد انقضوا على "الجوييم" بالحفرة وعاثوا فيهم تمزيقًا بأسلحتهم حتى وُسِمَ حصى الأرض بدمائهم. ارتعب لبشاعة المنظر واختلطت صيحاتهم بهتاف "ريشَع" الناري، لم يسمع منه كلمة واحدة لكنه استشعر ما فيه من غضب وقسوة. ثم تكرر ما حدث مع الأسير الهارب، اقتنص كل واحد منهم قطعة من جسد "جوييم" لكن أولئك الفائزين بأعين "الجوييم" احتفظوا بها مهللين بصيحات النصر، فاحتار "القزم" واضطرب، ثم فزِع وارتعب، أيأكلون عيونهم؟

- حَكَم "ريشَع" بقصاص عادل، أنه فخر مملكة "مينورا".

هكذا سمع أحدهم يقول لصاحبه وهما يمران أسفل الشجرة، فأجابه الذي بجواره:

- نعم لقد أحسن قولًا، مائة كل ليلة لمدة شهر، من "الجوييم" الذين يعملون في خدمتنا نقتلهم بأيدينا في حفرة الموت، مادمنا لا نستطيع

الوصول إلى "الجوييم" الملاعين الذين قتلوا الملك والمتخفين تحت أرض "مينورا".

***

فَهِم الآن سبب هذا التنكيل الذي أحاق بهم، هكذا فكر "القزم" مستلقيًا في مسكنه، تدثره جدرانه بأمان هَش. لقد قتل "الجوييم" الملك وبعض حاشيته، وأغاروا على المملكة منذ أيام وقتلوا الكثير من المحاربين في الحرب التي كان شاهدًا عليها. ولم يكتفوا بذلك بل آذوه وكادوا أن يقتلوه وهو الذي أراد البحث عنهم واستعادة حياته معهم إن كان حقًا واحدًا منهم. لولا وحشيتهم وهمجيتهم ما أنزل بهم "رِيشَع" مثل هذا العقاب، لعلهم رغم كل شيء سبب البلاء الذي لحق بهم.

لاحت أمام عينيه صورة حفرة الرعب المليئة بصرخات الموت فأصابته رعدة. لقد بات واضحًا أن كلا الفريقين يكرهه، ولكي يحتفظ بحياته عليه أن ينال ثقة أحدهما ويأمن جانبه، ولا يغلب على ظنه أن "الجوييم"سيسمحون له بذلك، علَّ الأمل المتبقي مستتر بجعبة "رِيشَع"، لكن كيف يثبت له حسن طويته، ويخبره بتبرُّئِهِ من "الجوييم"، ورفضه ما يقومون به من أعمال فاسدة مُفسدة، كيف يحوذ ثقة "رِيشَع"، حتى يتمكَّن له وِداده؟.. كيف؟!

***

الملف السادس

استغرقت حواس "القزم" لذة في قطعة من ثمرة مشتهاة حلوة المذاق، أرسل بصره بحسرة إلى آخر قطعتين هما كل ما تبقى له من ضيافة الملك قبل مقتله. فمنذ أن تنفَّس الصباح أولى نسماته لم يهتم "ريشَع" بضيافته، ولم ير الخادم الذي كان يحضر له الطعام. التهم قطعة صغيرة ملوكًا إياها ببطء، فانسل من أليافها عصارة غزيرة مسكرة، رطبت فمه، وأنعشت جسده.

أبصر أحدهم قادمًا تجاهه بسرعة، مُكتنز الجسد، يلوح وجهه بالغضب، امتلأ عقل "القزم" بالهواجس، استنهض من مجلسه أسفل الشجرة متحسسًا لسلاحه بترقب، فبادره القادم هاتفًا:

- ماذا تفعل تحت شجرتي؟

بتوتر أجابه مخافة أن يثير حفيظته:

- كنت أستريح في ظلها.

بعينين صادعتين بالجشع هَدَر:

- أنتظر الثمن إذن.

- أي ثمن؟

- ثمن الظل.



- لكن.. ليس معي ما أعطيك إياه.

اختطف منه القطعة الأخيرة من الثمرة ملتهمًا إياها بلهفة، لم يبد "القزم" اعتراضًا ولا ما يمكن أن يُفسر كاعتراض، تأهب للمغادرة، فأوقفه هاتفًا بحماسة:

- إنها "فاكهة التنين".. كيف حصلت عليها؟

- لقد أهداني إياها الملك.

- وهل وافق "ريشَع"!.. كيف؟!.. إنه بخيل جشع، لن يعطي ثمرة "فاكهة التنين" النادرة كهدية.

ثم تحولت نظراته إلى الشك، متهمًا إياه:

- بل قل أنك سرقتها.

نفى عن نفسه التهمة بهلع:

- لا لم أفعل، أقسم أن الملك الذي قُتل، والذي لا أعرف اسمه إلى الآن، أرسل الخادم بها إليّ، ومعها أطايب أخرى من الطعام، وكانت هذه القطعة هي آخر ما تبقى لي.

- اخفض صوتك حتى لا يسمعنا أحد، لا بأس إن كنت سرقتها، قل لي، هل تستطيع إحضار المزيد.

- قلت لك لم أسرقها.

تلمّس في قسماته الخيبة، وراه يجلس تحت الشجرة دون أن يعبأ به، وحينما همّ بالمغادرة، دفعته رغبته في معرفة أمور كثيرة إلى أن يسأله

بحذر عن "الجوييم"، من هم؟ ولماذا هذه العداوة بينهم وبين سكان مملكة "مينورا".

صمت طويلًا حتى ظن أنه لن يجيب سؤاله، ثم قال بخبث:

- فلنعقد إتفاقًا.. سؤال مقابل كل قطعة تأتيني بها من "فاكهة التنين".

أخبره "القزم" بحيرة أنه لا يعرف من أين يأتي بها، فطمأنه بأنه سيدله على مكانها، بينما عيناه تتقدان لهفة.

- سأنتظرك هنا تحت هذه الشجرة.. بالمناسبة اسمي "دُوش".

أنصت باهتمام إلى "دُوش" وهو يخبره عن ندرة "فاكهة التنين" التي لا تطرحها إلا شجرة واحدة بعيدة، عند الجدار الغربي المقدس للمملكة، وأنها شجرة طويلة يشق على "دُوش" الذهاب إليها وتسلقها كلما اشتهى "فاكهة التنين".. وحينما غادره "القزم" ناداه "دُوش" هاتفًا:

- تذكر أن زهرة هذه الشجرة تتفتح فقط في المساء.

بدت تلكم المعلومات غير المهمة، فلم يعبأ بها.

دسَّر نفسه بالعزيمة، ومضى إلى حيث وصف "دُوش" كاسرًا أفق هواجسه التي ما تكاد تبرحه حتى لتعود أشد وطأة. مستريبًا غَذَّ الخطى في الممرات الملتوية للمملكة، التي تكاد تخلو إلا من بعض المحاربين. يرى في عيون النهار أمانًا أكثر من يقظة الدُجى، فسكان "مينورا" يركنون إلى الكسل نهارهم، ويحيون بصخب ليلهم. ارتأى أن المحاربين يعلمون أنه ضيف الملك المقتول، أو أن به مزية تمنعهم من الفتك به، فأعينهم نبع

كره وغضب، لكن مع ذلك لم يجرؤ أحدهم على أن يمسَّه بضرر، فتعمد ألا تتلاقى عينه بأعينهم حتى لا يثير في أحدهم حفيظته.

عضَّ الإرهاق جسده الذي لا يوفيه قسطه من الراحة، لكنه تحامل ليكمل المسير على أقدامه فلا وسيلة نقل غيرها، يتنقل سكان "مينورا" من مكان لآخر محمولين على مَحفَّة خشبيه يحملها اثنان من العمال الأشداء، يقايضونهما بالطعام، حبوب أو فاكهة أو خُضَر، فلا عُملة بـ "مينورا" إلا المقايضة. غلب ظنه أنه لن يوافق أحد على حمل واحد من "الجوييم"، فضلًا عن أنه لا يملك ما يقايض به.

وأخيرًا، رنا إلى شجرته المنشودة، وقف على أعتابها ففاح البِشر من مُحياه وهو يشتم رائحة الثمرة الفواحة، تمامًا في المكان الذي وصفه "دوش". لكن فرحه لم يدم إذ أبصر عددًا كبيرًا من المحاربين يحرسون بوابة لا يرى ما خلفها، استبد الخوف بقلبه، إن رآه المحاربون يقترب من الشجرة ويسرق ثمرها فلعلهم يقتلونه دون استتابة، ألهب ذلك حنقه وغيظه، وتبدَّى له سوء حظه، لكن عَزَّ عليه أن يدور على أعقابه برجاء خائب، وأمل حائب.

كانت الشجرة في أحد الأركان لا في نقطة ظاهرة لأعينهم فكان ذلك نقطة لصالحه، غطَّى ظهره بأوراق الشجر، وزحف على بطنه بروية، قاطعًا مسافة قليلة في وقت طويل، مُذكرًا نفسه بأن الأمان في التأني، والعجلة لن تأتي له بخير. للشجرة ساق عريضة ساعدته على أن يتوارى خلفها بجسده النحيل، تسلَّقها وقد كشَّر عن إصرار وشمَّر عن هِمَّة، متجنبًا أن تقبض عليه أبصار المحاربين من الجهة الأخرى. وثب قلبه مع

كل حركة لأقدامه، مخافة أن تزل فينكشف أمره، للشجرة نتوءات بارزة جدًا ككل أشجار المملكة، تمكن من تسلُّقها برشاقة وخفة.

فارق الخوف رويدًا مكمنه بصدره. تجلى له السقف العجيب للمملكة، وقد بات أقرب إليه من أي وقت مضى، مَلأ بصره بأوراق الشجر المتعانقة في سقف لا مُمسك له! لا دعامة مرئية تمنعه عن السقوط أرضًا، تلتصق ببعضها وكأنها مرغمة امتثالًا لقوة لا تستطيع أن تعصاها، أرسل بصره متعجبًا حتى مرماه، لا شيء! لا دعامة تمسكه ويستند إليها، أمر عجيب وكأن السقف الخضري نبت من ذرات الهواء.. أيلد الهواء أوراق الشجر؟!

صرف انتباهه إلى الثمرة الضخمة، قبل أن يبصرها وقع في نفسه أنها كبيرة لكن حجمها فاق له كل تصور، بسلاحه شق قشور الثمرة البيضاوية السميكة، المشتعلة بلون وردي ناري ذي مظهر خلاب، أشبه بالحراشيف التي تغطي جلود الزواحف. للثمرة أجنحة ورقية خضراء، عرّى لُبها الأبيض المنقوش ببذور كثيرة سوداء صغيرة جدًا، أكثر لينًا من مثيلتها في نسيج ثمرة الكيوي. اقتطع منها جزءًا كبيرًا، أقصى ما يستطيع أن ينوء بحمله، متأملًا الزهرة ضخمة الحجم التي تلوَّى عنقها لأسفل، بأوراقها البيضاء المتدلية كستائر مخملية، أعمل نظره بداخلها، فصافح عينه قلبها المتآلف من مئات الأحبال الذهبية المتدلية كمصباح يشرف عليه من الأعلى، تتمايل يمنة ويسرة متراقصة على نغمات الرياح.

تبدى له أثناء ذلك ما عكف المحاربون على حراسته خلف البوابة، تأمَّل الجدار الغربي الطويل الذي تشابه في بنائه مع الجنوبي والشمالي، في مادته التي صُنع منها وهي ملساء، منتظمة، بلا لون، لم ير لها مثيلًا، ترتفع

حتى السقف الخضري للمملكة. وأمام الجدار صف طويل من الأشجار المتجاورة بلا فراغ يسمح لأحد بالمرور. أما الجدار الوحيد المختلف هو الجدار الشرقي، فقد بُني من الشجر المتراص لكن دون الجدار الأملس الصلب، وبه المنفذ الوحيد للدخول والخروج من المملكة. بوابة ضخمة يحرسها المحاربون بلا انقطاع. وكأن المملكة حبيسة أضلع ثلاثة مُصمتة، وبوابتها الوحيدة في الضلع الرابع.

برز أمام الجدار الغربي الذي دعاه "دُوش" بـ "الجدار المقدس" هيكل بقرة من حجارة صفراء فاقع لونها تَسُر الناظرين، واضحة المعالم لدرجة مكَّنته من التعرف عليها على الفور. يقف أمامها ثلاثة من أهالي "مينورا" يضع كل منهم فوق الأرض جزءًا من أجساد وأطراف مبتورة.. ورأى أحدهم يرفع حجرًا من الهيكل ويدفع تحته عينًا حقيقية!.. تتمازج أصواتهم في بكاء حار، استرعى المشهد إنتباهه فتلكَّأ في النزول من فوق الشجرة، عمد كل منهم إلى دفن الجزء الذي يخصه في التراب حول هيكل البقرة. وما أضاف الفزع إلى الدهشة بقلبه أنه تعرَّف على هذه الأجزاء المبتورة بلونها الأسمر المميز لـ" الجوييم". إذن هكذا يفعل أهالي "مينورا" بالعيون والأعضاء التي يقتطعونها من جثث "الجوييم"!

نزل مضطربًا يجتر الهواجس، ومرة أخرى زحف على بطنه متخفِّيًا حتى وصل إلى حيث عميت عنه عيون المحاربين، فاستقام جسده وأكمل سيره عائدًا إلى "دُوش" الذي يسومه عذاب الانتظار أسفل الشجرة التي تركه عندها، يلتهم طعامًا ما بنهم. هبَّ إليه حين أبصره بلهفة متبسمًا للقائه، فعاجله "القزم" بمبتغاه، تلقَّفه "دُوش" مغتبطًا طروبًا، بادره "القزم" مبتسمًا لنهمه في الأكل وهو يسأله:

- هل أعجبتك.. ها؟

- جدًا.

- حسنًا، الآن سؤالي.. من هم "الجوييم"؟

- جدًا.

- أسألك عن "الجوييم"!

- مممم.. جدًا

كررها "دُوش" حتى أثار استياء "القزم"، لاحت ابتسامه خبيثة على وجهه موضحًا:

- لقد سألتني سؤالك بالفعل: "هل أعجبتك؟".

سرى الغضب فوق قسمات وجهه هادرًا بعنف، لكن "دُوش" قابل ثورته ببرود وقد دار على أعقابه عائدًا إلى مكانه أسفل الشجرة، تتبَّعه "القزم" مستجديًا بعدما فشل الغضب في انتزاع إجابة منه، لم يقبل "دُوش" أن يجيب إلا بعد مقايضة جديدة للسؤال الجديد.

حانقًا محتذيًا حذو فعلته السابقة قفل "القزم" راجعًا مرة أخرى إلى حيث شجرة "فاكهة التنين"، أطلَّ الليل بأهدابه فاهتدى بما تسلَّل من ضوء القمر من شقوق السقف الخضري، وبالأضواء الحية الطائرة التي تُميز مملكة "مينورا" في المساء، سراج أخضر مبهر الضوء محمول على أذنبة حشرات كبيرة، تتهادى ليلًا في سماء المملكة لتنيرها كما تنير النجوم وجه السماء.

اقتطع بسلاحه أجزاء من لُب الثمرة ملتهمًا إياها ليُسكن جوعه. شعر بغتة بصوت خشخشة بالقرب منه فتدلَّى ليرى إن كان أمره قد افتُضح. اختفى الصوت سالبًا إياه أمنه، فعاد إلى استكمال مهمته وقد احتل الخوف مكانًا بارزًا بقلبه، فاقتطع منها جزءً كبيرًا بعجلة. تبصَّر موضع أقدامه للنزول، لكن الوقت لم يكن بصفه هذه المرة، إذ أبصر عاليًا زهرة فاكهة التنين تفتَّحت واستطال عودها، تنفض عنها نعاسها، ثم تتوجه إليه بشراسة أفعى عثرت على عشائها، يبدو أن "دُوش" اللعين تجاهل إخباره أن تلك الزهرة التي لا تتفتح إلا ليلًا آكلة للأحياء!

***

الملف السابع

أسلمَت جسدها للراحة بين جنبات الرمال الصهباء المميزة لمملكة "النسر"، وأرسلت بصرها إلى السحب المتناثرة هنا وهناك، شبَّهت أحدها بسكين بتَّار، يشُج الرؤوس ويشُق القلوب. وبجوارها سحابة بدت كقبر ينتظر ساكنه، تُرى لماذا لا نُدفَن في السحاب؟!

وعلى بعد منها سحابة أخرى رأتها كانعكاس لـ "فم النار"، الذي يبتلع بجوفه الصحب والأحباب. طفرت من عينيها آلام وحسرات، فوجهت بصرها إلى "النهر الأسود"، تمامًا كسواد بقعة كبيرة احتلت رأسها وزاحمت دماءه.

- سُلاس.. سُلاس.

ألهب مسامعها اسمها الذي يتردد من خلفها بلهفة، لم تلتفت لتستطلع القادم الذي يهرول تجاهها، حتى تَبدَّى لها واقفًا جوارها بقامته النحيلة، يلهث تعبًا وهو يقول متلعثمًا:

- بحثثت عنكِ في كل مممكان.. أأنا.. لقد.. أأأنا خشييت أن يصيبك ممكروه.

لازالت عينها في عقدة محكمة مع المياة السوداء. وجد لنفسه مكانًا بجوارها، ثم بدا عليه التردد قبل أن يقول بالتلعثم نفسه:

- كنت أأريدك أن.. أأقصد "داموس" كان ييريد ممنا أن نجتمع ففي الغرفة السررية.. إننه.. يريد أأن يستكمل المهمة.

حلَّت عقدة عينها بالنهر، ورنت إليه محتدة:

- فليحترق "داموس" في "فم النار".. قلت لن أفعل.. موت "بِنان" أنهى كل شيء بالنسبة لي.

بقسمات حملت من الحزن ما حملته من الألم أفصح:

- ككلنا تألمنا لما حدث.. ولازلنا.. للكن "سُلاس" يجب أأن.. أأن..

بغضب هادر هتفت بوجهه:

- الألم لا شيء بالنسبة لما أشعر به يا "حَبوك".. شاهدت كيف أحرقوا "بِنان" حية ولم أستطع أن أنقذها.. كلنا شاهدنا.. وصمتنا.

تجعَّدت قسماتها وهي تردف:

- و"أصلان" المسكين لم يتحمل قلبه ما رآه، فتركنا ولحق بـ"بِنان".

أعادت "سُلاس" عقد عينها بالنهر المُكحَّل بلون الموت، بدت شاردة وهي تُفصح بأسى:

- وقلبي أيضًا يريد اللحاق بهما.. جسدي فعل منذ أمد.. أما قلبي فلايزال ينتظر.. لكنه الآن فقد كل أمل له، ولم يعد يرغب في البقاء.

- "سُسلاس" لاا تقولي ذلك.. أأنت.. أأنا...

استرسلت دون أن تعيره انتباهها، انكمش جسدها لنسمة باردة مرت به:

- الجميع يرحلون.. يتركونني هنا وحدي.

لازالت غير منتبهه له. تلعثم بحنو:

- أأنا هننا.. لن.. لن أأتركك يا "سُلاس".

- أحتاج الذهاب إلى ساحة الصراخ الآن.

***

لم يفلح نصل سكينه إلا في إحداث جروح متفرقة في ساق الزهرة القاتلة. حاول "القزم" كثيرًا لكن قطر ساقها كبير يحتاج ساعات ليبلغ فيه مبلغًا عميقًا. قطْعه بمفرده وبسلاحه المتواضع هو من الاستحالة بمكان. ضَيَّقت عليه الزهرة الخناق، وحبسته بين غصنين، بدت مستمتعة بطريدتها التي فشلت في الفرار من مصيرها الأسود. انفتحت وريقاتها بغتة وانقضت على "القزم" تجذبه إلى قلبها، إلى حيث عصارتها الهاضمة التي ستذيب جسده كذوبان قطعة الجليد في حر قائظ. غرس سكينه في إحدى وريقاتها من الخارج وتعلق به. كان يعلم أن عليه البحث عن حل سريع، لكن قبل أن يتفتَّق ذهنه عن حل أفرزت الزهرة من قلبها مادة لاصقة انسالت فوق وريقاتها فألصقت جسده بها. الزهرة اللعينة تظن في نفسها الذكاء والحنكة. تخيل لو كان لها فمٌ لضحك الآن بملئه على الشرك الذي نسجته حوله بإحكام.

هَزيع من الليل انقضى ولايزال الحال على استقراره. صراع لا غالب فيه. تحركت الزهرة مع نسمات الرياح وقد انتابها جنون الآيسين. لا تملك أن تدني ورقتها التي تحمل فريستها الشهية لتأكلها. بدت له وكأنها ساخطة على جسدها غير المُهيأ لحركات إرادية بسيطة كتلك. تمكَّن ولدهشته من

أن يشتم رائحة غضبها واهتياجها!.. حاول أن يشبهها بشيء يعرفه، فكان الأقرب إلى تصوره رائحة الموت التي انبعثت في أرجاء "مينورا" عشية انتقام سكانها من "الجوييم". تلك الرائحة التي يمتزج فيها الخوف بشهوة القتل، وحقارة التراب بطُهر الدماء. لم تخترق حواسه رائحة الزهرة فحسب، بل انتفض قلبه هلعًا لسماع أنين متقطع،كما لو كانت من لحم ودم، وبها من العواطف مثل ما يمتلئ به قلبه.

أرغم عقله على صرف تفكيره بعيدًا عن هذه الهواجس، لعلَّ الإرهاق ووحشة الليل احتالا عليه ليسلباه رباطة جأشه. أرسل بصره يداعب ما تبدَّى له من القمر، فإن كان للسقف الخضري فضيلة الحماية من الآشعة الحارقة للشمس، فله نقيصة حبس نظره عن استدارة وجه القمر.

تناثرت النجوم كحُلة براقة فوق جسد السماء، ظلَّ مراقبًا لما ظهر منها. أثار هدوء الليل وطول سكونه بعقله تساؤلات، وفجَّر في نفسه بحرًا من المعاني، و إلى حديث سمر تاقت نفسه، فأبحر بخيالاته متأملًا. هو، والزهرة، والقمر، اشترك ثلاثتهم في امتلاك جسد يرغب ويشتهي، لكن كل جسد حبيس قدرة لا يمكن تجاوز أسوارها. فللزهرة حركة محدودة،. رغبتها أسيرة لقدرة الريح ونسماته، يحركها متى وكيف شاء. أما هو فيتفوَّق على الزهرة بجسد يملكه، ويتجاوز به قدرات الزهرة وعليها ينتصر، إذ لا تخضع حركته إلا لمشيئته. لكنه يبقى أسيرًا لهشاشة بُنيانه، فلا تدوم له رغبة ولا جسد. أما القمر خالد بحريته، يتحرك أنَّى يشاء، يشرف على الأرض من عرش اعتلى عنان السماء.. لكن أطلَّ من رأسه

سؤال يباغته، يُلح عليه ويُراوده، أليس للقمر من آسر، ألا عليه مِن قادر؟!

اغتنم هدوء الزهرة التي فترت حركتها بعدما حبس الليل أنفاسه، ونال قسطًا ضئيلًا من نوم يتشوق إليه جسده، وعندما تنفس الصباح استيقظ فزعًا على ألم حارق بقدمه، تلفَّت حوله فأدرك أن الزهرة التي لا تتفتح إلا ليلًا ذبلت لاوية عنقها لأسفل، وأن مادتها اللاصقة فقدت قوتها فسقط فوق أحد الأفرع سقطة آذت قدمه، لكن الغبطة بنجاته أنسته الألم، ومضى ينزل من فوق الشجرة عائدًا أدراجه، ولم ينس أن يقتطع جزءًا من الثمرة وهو يأخذ على نفسه أغلظ المواثيق ألا يخاطر أبدًا بتسلق هذه الشجرة مرة أخرى.. أبدًا.

وجد نفسه منصوبًا بمقام الأبله، عندما أجاب "دُوش" سؤاله الذي ذاق من أجله الويلات، وأبحر في عباب المخاطر، قائلًا:

- جوييم "مينورا" ألد أعدائنا.. فهم متوحشون برابرة.

حاول "القزم" أن يُفهمه أنه يعلم ذلك بالفعل، وأنه يرغب في مزيد إيضاح عن أصل الصراع بين "الجوييم" وسكان "مينورا"، لكن "دُوش" زجره وقد تمثَّل بروده:

- هذا كل ما عندي لإجابة سؤالك.. وإن أردت أن أجيبك عن سؤال آخر فعليك أن...

لم يسمع "القزم" المزيد، انصرف عنه بوجهه، ثم ولى مدبرًا وقد فار فائره واحتدم غيظًا، قذف الأرض بقدمه المصابة؛ فصدمت حجرًا أخلف به ألمًا، فلم يزد ذلك مرجل صدره إلا اشتعالًا.

استبسلت "سُلاس" في السير داخل ممرات مملكة "النسر". متجعدة القسمات، متشنجة الأطراف، تهبط بها درجات المملكة وممراتها إلى الأسفل، إلى جوف الأرض.مضت حتى الطابق الثالث والسبعين تحت الأرض، ولجت قاعة كبيرة وتوجهت إلى حيث استقرت القمامة نتنة الرائحة في أكوام متفرقة. سارت بينها بإصرار. تعرف تمامًا أي الوجهات تسلك. أفضت بها الممرات بين أكوام القمامة إلى جدار تبرز أمامه صخرة. بحركة خبيرة دفعت الصخرة من موضع تعرفه جيدًا بعزم وقوة، حتى انفرجت عن مدخل صغير لنفق ضيق. عبرت خلاله ثم جذبت حبلًا محاطًا بالصخرة لتغلق الفتحة تمامًا. اتجهت يسارًا حتى ضاق بها النفق واضطرت إلى الزحف وحك بطنها بالأرض، ثم اتسع النفق مرة أخرى وتباعدت سماؤه عن أرضه فاستعاد جسدها حرية حركته. بلغت آخر النفق، المسدود بجدار رملي، وبرز أمامه أحدهم يحفر فيه بعزم وإصرار.

انتبه إلى أصوات خطواتها فالتفت مستطلعًا بقلق، وعندما وقع بصره على "سُلاس" تعرَّفها وأبدى ضجره، ثم عاد إلى الحفر بنفس العزيمة. دفعته من الخلف بغلظة لم تؤثر في جسده الضخم الذي أوتي فيه بسطة من القوة. هتفت بشراسة:

- فلتحترق في "فم النار" يا "داموس".. ماذا تفعل؟

حدَّق فيها بحدة، ثم التفت يُكمل عمله. فدفعته بقوة أكبر صارخة بهستيرية:

- هل أنت حجر؟.. ألم يؤثر بك موت أختك؟

أغاظها استمراره في تجاهلها فاسترسلت:

- ليتهم أحرقوك أنت.

انفلت زمام هدوءه؛ فتحرك مقتربًا منها بمشيته المميزة وهو يجر قدمه العرجاء خلفه، ثم صاح بها مشيرًا إلى الجدار الرملي الذي يحفر فيه:

- هذا ما أرادته "بِنان".. إنني أحقق حلمها.. بينما تصرخين أنتِ وتنوحين.

سدَّت بجسدها موضع الحفر وهتفت بعناد:

- نعم كان هذا حلم "بِنان".. لكنها ماتت.. ومات "أصلان" كذلك.. إذن فليمت معهما الحلم.

- ابتعدي يا "سُلاس" وإلا أذيتكِ.

- لن تستطيع فأنت جبان.. بل أنا التي أستطيع أن أؤذيك.. كلمة واحدة مني إلى قائد الجَلاوزة "راعون" أفشي فيها سرك.. وستحترق يا "داموس"!

اشتعلت عينه، فتجاهلت لهيبها وتحركت من مكانها وهي تشير إلى الجدار ساخرة:

- حسنًا أكمل عملك.

ثم أردفت بشماته:

- لكنك تعرف جيدًا أنك تحتاج إليّ.. لا يمكنك أن تسير خطوة واحدة في هذا الطريق دوني، وأنا لن أفعل.

دارت على أعقابها بغتة عائدة بأدراجها بثقة وثبات، فاخترق مسامعها صرخاته النارية الهادرة:



- لا أحتاج إليكِ، أنا قادرعلى النجاح وحدي.

ثم أردف بعد لحظة صمت، وبغضب أعظم:

- وإن لم أستطع فسأجبركِ على تنفيذ ما أريد.

***

استقر بعنق"القزم" سلاحٌ حادٌّ، وتطوَّق من الخلف بقوة كادت تفصل رأسه عن جسده، شُلَّت حركته فأخفق في الاستدارة ليرى مُهاجمه، الذي يتشبَّث بظهره بقوة. استمع بإنصات إلى تنفس الجسد الملاصق له، واستشعر فيه ضعفًا. أكسبته المفاجأة قوة وهمية، فباغته بجذب قدمه بعنف، فاختل توازن مهاجمه، ليسقُط عن ظهره أرضًا فقط ليُفاجئ بأنها أنثى! استنهضت لتعاود الكرة لكنه كان الأسرع فألصقها بالأرض مثبتًا إياها بقوة، هاجت حركات جسدها عبثًا، فسلاحها الوحيد جسد مُكَّبل، وأخيرًا بعدما استبد التعب بأطرافها، استسلمت. هتف بها"القزم" متأملًا وجهها النحيل أسمر اللون.. وهو يهمس لنفسه "إنها من الجوييم":

- ماذا تفعلين في مسكني؟ لماذا هاجمتيني.. ها؟

بذلت جهدها للفكاك منه، لكنه جهد صياد بائس أضحى فريسة لصياد أكثر قوة ومهارة. عاد يهتف بحدة أكثر:

- أجيبيني.. من أنتِ؟

أجابت متقطعة الأنفاس، مرتعدة الأطراف:

- أرجوك لا تقتلني.

- أقتلك!.. من تظنينني؟

- أرجوك لا تُعدْني إليهم.

أثارت نظراتها المستعطفة الاضطراب بقلبه، فخفَّف من وثاقها وطالبها بتفسير وجودها بمسكنه، وممن تخشى، "رِيشَع" ومحاربيه أم سكان "مينورا".

- أخاف "الجوييم".

أبصرها تبتعد عنه بخطوات، وهي لا تزال على الأرض، ترنو بقلق إلى مدخل المسكن، تحاول أن توقف رعشة ألمت بأطرافها، ضعيفة هشة كانت، كطفل فقد أبويه ويخشى الغرباء، فألمَّت به الشفقة:

- لماذا تخافين "الجوييم".. ألستِ واحدة منهم؟

- كنت واحدة منهم.. لكنني أردت مفارقتهم.. فلم يسمحوا لي.

- لماذا.. ها؟

أجابت بتشكك على سؤاله بسؤال:

- مساكن هذه المنطقة تخص الملك وحاشيته، هل هربت أنت أيضًا من "الجوييم" وتكفَّل الملك بحمايتك؟

لم تدر أن لوقع سؤالها في نفسه دويًّا كبيرا، أبحر في أفكاره متساءلًا، هل هذا ما حدث؟.. هل أراد الهرب من "الجوييم"؟.. هل تعارضت مبادئه مع همجيتهم وتوحشهم فلم يسمحوا له بالانفصال عنهم وآذوه؟.. هل أرادوا قتله فنجى بجسده وتدمرت ذكرياته كلها؟.. من إذن ذلك الغريب ذو العين الواحدة الذي لاقاه في بداية رحلته؟.. هل آذاه "الجوييم" أيضًا أم هو واحد ممن أرادوا قتله؟

قطع تدفق أفكاره حركتها المتململة؛ فالتفت إليها مساومًا بعد تفكير وتردد:

- سأسمح لكِ بالبقاء هنا الليلة لكن بشرطين.. الأول أن تغادري بمجرد أن يشرق الصباح، فلا أريد أن تطالني المشكلات بسببكِ.. والثاني أن تقصي عليّ كل ما تعرفينه عن "مينورا" وجميع من يعيشون فوق أرضها.

افترشت أوراق الشجر، واتخذت من غصن طويل مُتكأ، واسترسلت تقص عليه كل شيء.. من البداية.

***

الملف الثامن

في زمن غير بعيد جاء بعض الرحَّالة إلى هذه الأرض، وكان يجمعهم قائد عظيم اسمه "مينورا. أرضًا خربةً كانت، تحمل اسمًا قديمًا نسيه الجميع، مكان لا يُبهر الأبصار، ولا تُشد إليه الرحال، يعيش فيه قلة من الأجلاف، قومٌ جبارون لم يقوَ محاربو"مينورا" على محاربتهم كما أمرهم قائدهم العظيم، فعصوا أمره ورفضوا دخول هذه الأرض؛ فتاه شعب "مينورا" في الأرض لزمن طويل، يحيون كغرباء بلا وطن، جوعى مشردين، هلك منهم الكثير، واستمسك من نجا بالحياة.

وعندما اشتدَّ عضُد أبنائهم وبات لهم في فنون الحرب باع؛ عادوا إلى هذه الأرض يبغون دخولها، فحاربوا ملوكها الجبارين وانتزعوها من بين أنيابهم. ثم ضاقوا بها ذرعًا وأرادوا مفارقتها مخالفين أوامر قائدهم العظيم. ثم عاد بعضهم إليها بعد زمن طويل يبغون استعادتها، نادمين على تفريطهم فيها ومخالفة أوامر قائدهم. لم يجدوا بها أيًّا من الممالك التي ألفوها في الماضي، فقد انتهى عهدهم وتساقطت واحدة تلو الأخرى، ولم يبق في هذه الأرض سوى القليل من "الجوييم" الأجلاف، الذين لا قِبَل لهم بتعمير وتشييد مملكة قوية ضخمة. فعادوا إلى المملكة، ونبذوا الاسم القديم لها، وأسموها بـ "مينورا"، يحدوهم الأمل في أن تتحقق نبوءة آمنوا بها أشد الإيمان، أن يُبعث قائدهم "مينورا" من موتته، ويعود ليُملِّكهم الأرض وما عليها.

"الجوييم" اسم يطلقه سُكان "مينورا" على أي غريب لا ينتمي إليهم، أي شعب غير"مينورا" هم "جوييم" بالنسبة لهم. لكن أكثر من يبغضونهم هم أولئك "الجوييم" الذين لايزالون يؤمنون بأن هذه المملكة أرضهم، ومن حقهم وحدهم.

سمحوا لمن أراد من "الجوييم" بالبقاء فأصبح جنوب المملكة وشرقها وغربها لسكان "مينورا، أما الشمال فتركوه "للجوييم". أجزل سكان "مينورا" "للجوييم" العطاء، يعيشون معًا جنبًا إلى جنب في الجنة التي عكف سكان"مينورا" على خلقها بمملكتهم. أصبحت المملكة حلة فاخرة، وحلية ظاهرة، فنمت الأشجار الباسقات تعانق السماء، وافتر ثغر جنانها عن أطايب الثمار، وتخصَّبت خدود زهورها بأبهى الألوان، واخضرت عيون الزيتون فازدانت بها المملكة.

فلمَّا بلغ "الجوييم" من جنة "مينورا" الوطر، ورفلوا في نعيم المملكة، زجوا بأنفسهم في حلة أطماعهم، واستلوا سيف البغي، وشمروا للحرب العوان، موسومون بكفران النعم، أغاروا على سكان"مينورا"، يقتلونهم، ويطالبون بأن تكون أرض المملكة لهم وحدهم. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف أرض "مينورا" عن شرب دماء الطرفين، طرف يجنح في طلب السِلْم متمسكًا من السلام بأوثق العُرَى، وطرف اشتغل بأن يكون للآمنين مروِّعًا.

ران صمت طويل، كل منهما سابحٌ في أفكاره، مزَّق "القزم" الصمت بسؤال قذفه الفضول إلى عقله:

- أين تعيشون، لم أر منذ قدومي أيًّا منكم في أركان المملكة؟

- كنا نعيش في مساحة خصصها لنا الملك في شمال المملكة، لكن بعد العداوات بيننا وبينه، أصبحنا نعيش تحت الأرض.

- تحت الأرض!

- شعبي ماهر في حفر الأنفاق، ستجد تحت أرض المملكة الآلاف منها فيما يشبه متاهة عظيمة لا يعرف الاهتداء فيها إلا كبار "الجوييم".

لاحت أمام عينه ذكرى مقتل الملك، وكيف انفجرت الأرض من تحت أقدامهم ببعض هؤلاء "الجوييم".

هَمَّ بإغراقها بمزيد من الأسئلة، لكنه أبصرها وقد جنحَت إلى النوم، فخرج من مسكنه ببطء يراقب الطريق لفترة، يستطلع إن كان أحد "الجوييم" متربصًا بهما في الخارج، وعندما تلمَّس بعض الأمان عاد إلى مسكنه ملقيًا، عليها نظرة مطولة.

***

- لقد قبض الجَلاوزة على "حَبُوك".

رمى الخوف بسهامه فلم يجد سوى خافق "سُلاس" هدفًا، فمن غيرها سيهتم لأمر "حَبُوك"؟.. إن لم تفعل فلن يفعل أحد، تعلم أنه ورقة شجر خريفية بمهب الريح، لا يهتم أحد بأي أرض تَحل، ولا بأي حال تكون. لذلك لم تتسرب الدهشة إلى نفسها عندما ذهبت إلى مقر السجن بالطابق الرابع والخمسين تحت الأرض، ورأته متقوقعًا على نفسه في زاوية مع ثلاثة آخرين اكتظ الممر بأصدقائهم وأحبابهم، إلا "حَبُوك" كان وحيدًا لا ينظر إلى المتجمهرين ولا يتفرَّس في وجوههم، كأنه يتوقع ألا يهتم لأمره أحد.



- حَبُوك.

انتفض جسده يخترق بعينه الوجوه حتى استقرت فوق وجهٍ شاحبٍ تناثرت فوقه بقعٌ داكنة، فارتجف خافقه، وعلا البِشر محياه ممزوجًا بالدهشة، أقبل بلهفة محني الظهر كمن يستعد للجَلد:

- "سُلاس"!

لم تسمع همسه، ازدادت الأصوات من حولهما حدة، مخترقة الجموع وقفت أمام صف الجَلاوزة الذين يحولون بأجسادهم بين المساجين الأربعة.

- أثق أنك لم تُذنب يا "حَبُوك".. أليس كذلك؟

تضمنت عبارتها الثقة والشك في الآن نفسه، هز رأسه مجيبًا بحماسة متلعثمًا:

- ننعم، أنا لم أأأذنب..لم أأأذنب.

- إذن ستنجو من اختبار بذرة الشر.. لا تخف .

لا ينجو من اختبار بذرة الشر إلا من كان قلبه خاليًا منها. بذرة الشر هي سبب كل الخطايا والآثام، إن وُجدت بقلب أحدهم استحق العقاب حتى لا يطرح زرعه ويلقي بشروره فوق أرض مملكة "النسر"، الإناث يُلقون بـ "فم النار"، والذكور لهم مصير أكثر بشاعة.

يستمر الجَلاوزة في فحصهم الدوري لجميع أركان المملكة فإن شكوا بأن أحدهم يحمل بداخله بذرة الشر ألقوا القبض عليه، وأخضعوه لاختبار مكون من مرحلتين، من نجا من المرحلة الأولى يُطلق سراحه، ومن

ثبت وجود بذرة الشر بداخله أخضعوه للمرحلة الثانية، فإما أن يستقر عليه الاختيار العشوائي للطبيعة لكي تُطهره من بذرة الشر؛ فتشمله بعفوها وينجو بحياته، أو لا يُغفر له، وحينئذ ليس له من مصير سوى الموت.

تعلم "سُلاس" نقاء "حَبُوك" واستقامته، لا يمكن أن يحمل بداخله بذرة الشر أصل كل الموبقات. وها هو يؤكد لها طهر ذيله فلابد أن الاختبار سيُظهره بريئًا.

صرفهم الجَلاوزة ففعلوا مرغمين. عانقه السُهاد طوال الليل، ينتظر إشراقة الصباح فمعها سيبدأ الاختبار.

- آه يا "بِنان".. انظري ماذا يحدث لنا من بعدك.

نفَّست كلماته عن حرارة بقلبه، استبد به خوف لا يدري كيف يدفعه، وكأنه على شفا جرف هار، ولا منقذ له.

خرجت "سُلاس" من مساكن الشعب، عبر واحدة من الثلاث بوابات بالجانب الشرقي، وقفت فوق الرمال التي لا تزال تحتفظ ببعض من برودة الليل، التفتت تتأمل في الموضع الذي ستنبت منه الشمس بعد لحظات، من خلف بركان "فم النار"، دومًا تولد الشمس من هناك، وكأنها إشارة إلى الألم الذي لن يبارحها قط، والذي يجدد نفسه كل يوم رغمًا عنها.

لم تكد الشمس تلوح في الأفق حتى توجهت إلى تلة الشعب الحمراء على يسار "فم النار" حيث سيقام الاختبار، اعترض طريقها جسدٌ ضخمٌ

أقبل عليها وهو يجر قدمًا أصابها الضمور منذ ولادته، نظرت إليه بحدة وحاولت تجاوزه، لكنه سد عليها الطريق قائلًا بحزم:

- يجب أن نستكمل المهمة.

- ابتعد عني يا "داموس".

- لا تتحامقي.

- قلت ابتعد عني.. ولتحترق في "فم النار".

اتقدت عينه بالغضب:

- لا تتصرفي بعناد، لا يمكن أن أقوم بذلك دونك.

- لا يهمني الآن سوى "حَبُوك".. قُبض عليه بالأمس وسيخضع للاختبار الآن.

لاذ بالصمت لبرهة ثم أفصح بصراحة فجة:

- لا يهمني أمر "حَبُوك".. أساسًا لا فائدة من ذلك الأحدب المتلعثم.. أحتاجكِ أنتِ.

دفعته عنها بعنف بالغ كاد أن يخل بتوازنه، فأمسك بها بقوة آلمتها، ازداد ألمها مع محاولة الفكاك من قبضته، فشهرت سكينًا حادًا وأحدثت بوجهه جرحًا باغته، فدفعها عنه يتلمَّس موضع الجرح وقد اهتاج غضبًا، عاد ليمسك بها مرة أخرى بعنف أشد هاتفًا:

- إن أبلغت عنكِ الجَلاوزة الآن فستخضعين للاختبار ولن تنجي أبدًا.

- أنا لا أخافك.

ثم أردفت بهستيرية:

- أصلًا أنا جثة.. تعلم ذلك أيضًا.

- لا فائدة منكِ.

تركها مغتاظًا، ففرت من أمامه تلملم شتات نفسها وتواري مبلغ ألمها، تحاول أن تجد لنفسها موضعًا بين الحشد. استبد بها القلق وهي تبصر "حَبُوك" مستلقي فوق الأرض بجوار ثلاث مساجين، كل منهم مثبت إلى وتد. وُضع فوق رأس كل منهم قطعة من ورق الشجر، ليس من أي شجرة.. بل "شجرة الطاقة" التي تعكس رائحة بذرة الشر من أي جسد تلامسه، فيتمكن "نمر الأرض" الرهيب من شمه، والفتك بحاملها.

أبواق بدء الاختبار أطلقها الجَلاوزة فلاذ الجميع بالصمت، ومن فوق التلة الحمراء انشقت الأرض عن بوابة عظيمة خرج منها "نمر الأرض" مقيدًا بعشرات الحبال والخيوط المتينة، تنتهي بمئات الجَلاوزة للسيطرة عليه.

استوطن الفزع قلب "سُلاس"، فرَنَت ببصرها إلى "حَبُوك" الذي بدا شاحبًا كشحوب الأموات.

وبدأ الاختبار.

***

لم يتمكن "القزم" من رفض رجاء "أكيلا" بالسماح لها بالبقاء في حماية أركان مسكنه لليلة أخرى، حتى تتدبر أمر فرارها من "مينورا". تعرف نفقًا سريًا يؤدي إلى خارج المملكة مباشرة دون المرور بالبوابة

الوحيد بالجهة الشرقية، والتي يعكف ليل نهار على حراستها عدد كبير من المحاربين. ولكنها لن تستطيع بلوغه إلا في المساء، حيث يقل حراس الأنفاق من "الجوييم"، مع أن ذلك يلقي بها في خضم خطر آخر، فشعب "مينورا" وحراسه الذين يركنون إلى الراحة في مساكنهم نهارًا، يدب فيهم النشاط ليلًا، إلا قليلًا منهم.

استشعر مهمة ثقيلة الوطء ألقيت على عاتقه دون اتفاق، ألا وهي توفير الطعام لها، بل وله كذلك، مضى يسير في الطرقات على غير هدى، لا يملك ما يقايضه بالطعام، ولا من يلجأ إليه ليهديه ما يسد به رمقه.

نظر بغيظ إلى أشجار المملكة المحملة بالخيرات، ومنها إلى الحارسين المتيقظين أسفل كل شجرة، يمنعان كل من يحاول جني ثمارها، فثمار المملكة وخضرها يوزعها الملك على رعاياه لكلٍ نصيب معلوم، لا يزيد ولا ينقص إلا بمشيئته. أما "الجوييم" لا نصيب لهم من خيرات "مينورا" منذ أن نشبت العداوة بينهم وبين الملك.

تقافز بعقله سؤال أثاره، كيف يعيش "الجوييم" تحت الأرض بلا زرع؟! استعر الجوع ببطنه فتعاظم ألمها، لم يهده التفكير إلا إلى أن يذهب صاغرًا إلى "ريشَع" يستجديه الطعام. وقف أمام بركة صغيرة يلهب الظمأ حلقه، يسترق النظر يمنة ويسرة بقلق قبل أن يغالب خوفه، وبلهفة يحسو حسوات من مائها، فارتوى حتى الثمالة.

***

- يبدو أنني قسوت عليك قليلًا.

دَبَّ الأمل في نفسه بكلمات "رِيشَع"، بدا أنه قرر أن يكون رؤوفًا بحالِه، تُرى هل صدَّقه أخيرًا؟

- لقد أسديت لنا عملًا عظيمًا بحماية ملكنا الفقيد الذي أراد لك التكريم بالعيش فوق أرضنا.. فليكن ما أراد.

أشار "رِيشَع" إلى أحد محاربيه إشارة بدت كسهمٍ أصاب فيه فهمًا، فغادر قاعة الحكم تتابعه أنظار "القزم"، تقدم منه "رِيشَع" بخطى ثابتة ثم توقف على بُعد خطوة منه، أطال النظر إليه حتى تلبَّسه القلق، افتر ثغر "رِيشَع" أخيرًا عن بسمة كالحة قائلًا بتحدي:

- لكن عليك أن تُثبت لنا أنك أهلٌ لهذه الثقة.

- كيف؟!

بصوت متلجلج سأل "القزم"، وبحزم لا مزح فيه أجاب "رِيشَع":

- عليك أن تكتشف ذلك بنفسك.

فارقه "القزم" غارقًا في أفكاره، بغتة تسمَّرت أقدامه بالقرب من مسكنه، وجاشت نفسه فزعًا، وقد أبصر المحارب الذي أشار إليه "رِيشَع" مستقرًا على أعتابه، محملًا بوفير الطعام. قفز قلبه يسبق جسده إلى حيث "أكيلا" المختبئة بمسكنه، يفصل المحارب عن رؤيتها خطوات قليلة. زال قلبه عن مستقره لفرط خوفه، وأيقن أنه حتمًا هالكٌ، قدَّر أن "رِيشَع" لن يغفر له حماية واحدة من "الجوييم"، مهما كانت مُنكرة لأفعالهم. وقبل أن يحول بين المحارب وولوج مسكنه، أمسى بداخله!

دلف "القزم" خلفه تكاد أقدامه تتهاوى بحملها، أعمل عينه في المسكن بلهفة ليجده خاليًا، أين ذهبت"أكيلا"! لم يحتج إلا لثانية واحدة

ليعرف الجواب، برزت مقدمة قدمها بوضوح خلف جذع الشجرة الذي اعتاد على أن يتخذ منه مُتكأ، فعمد إلى الوقوف أمامه ليحجب ما بدا منها عن أنظار المحارب.

- أشكرك كثيرًا.. فلتحيا "مينورا" العظيمة.

ولىَّ المحارب مدبرًا من غير أن يعقِّب. التفت بعدما تأكد من ابتعاد المحارب بما يكفي ليجدها تنظر إليه بعتاب صارخ، فأكد لها أنه لم يتعمد أن يعرضها للخطر، وأن خطر انكشاف أمرها في مسكنه خطر مشترك سيزج به أولًا إلى ما لا يُحمد عقباه. اجتمعا حول الطعام يسكنان أنين معدتيهما، وأثناء ذلك سألته عمَّن يكون، ولماذا يحسن "رِيشَع" ضيافته. فقصَّ عليها حكايته من البداية التي يتذكرها، لكنه أحجب عنها نبأ بطولته الزائفة في إنقاذ الملك، لذلك عندما سألته عن سبب إنقاذه تلجلج منطقه:

- هذا ما حدث! أظنني لم أفكر بوضوح. لعلي لو فعلت لكنت ترددت في إنقاذه.

- بل حسنًا فعلت؛ ها أنت تعيش بأمان فوق أرض "مينورا".

نفى قولها بمرارة، متلمسًا ضمادة عينه، والخط المتعرج المشوه فوق وجنته:

- لم أشعر هنا بالأمان قط. أخبرتك أن "الجوييم" أرادوا قتلي، لكنهم أخفقوا وتركوا لي هذا التذكار عقابًا على إنقاذي للملك.. ولا أدري إن كانوا سينجحون في المرة القادمة.

- اهرب معي إذن.

نظر إليها بمزيج من الدهشة والحيرة، ثم أكمل طعامه تلتهمه ظنونه، وبعد فترة ران صمت طويل خلالها، أخبرها بوضوح أنه يظن الخير في أن يبقى في "مينورا"، خاصة بعدما أحسن "رِيشَع" معاملته، ولعله يُدبر له عملًا في المملكة، وتزداد ثقته به، ويحميه من خطر "الجوييم".

- كما تريد.

أنهت الحوار مستكملة طعامها غير مبالية، فعادت تراوده الهواجس إن كان أحسن الاختيار ببقائه في "مينورا"، لكن عندما لاح لعقله المخاطر التي قد يتعرض لها أثناء هروبه عبر أنفاق "الجوييم"، ارتأى أنه بالفعل اختار أقل الطريقين وعورةً.

***



الملف التاسع

ساور السجين الأول شيء من الأمان بعدما ابتعد عنه "نمر الأرض"، مقبلًا على السجين الثاني يتشممه، والذي ارتعدت فرائصه عندما لامس وجه "نمر الأرض" وجهه، مزيج من التقزز والفزع استبد بقلبه، طالت تلك اللحظات حتى بدت له كساعات طويلة من العذاب، أوشكت أن تدفعه للاعتراف بجرم لم يقترفه! لكن الفرحة نطقت بها قسماته عندما ابتعد عنه مقتربًا من السجين الثالث، الذي بدا ميتًا أو هكذا خُيِّل للناظرين، لم تند منه لمحة من حياة إلا عندما انتفض جسده وانطلقت عقيرته بالصراخ بعدما انقض عليه "نمر الأرض" بشراسة، وهو يصرخ صرخة رهيبة، استبسل مئات الجَلاوزة في شد الحبال لإبعاده عن السجين قبل أن ينهش جسده بعدما تشمم منه رائحة بذرة الشر. احتاج الجَلاوزة بعض الوقت لتهدئة "نمر الأرض" قبل أن يجري الاختبار على "حَبُوك" الذي التحمت عينه بالسماء، يعكس جسده ما يشعر به من اضطراب.

- تماسك يا "حَبُوك".

طفقت عينه تبحث بلهفة عن صاحبة الصوت بين الجموع، منعته قيوده بالوتد من رؤيتها فاكتفى بعلمه أنها قريبة منه، وتصدقه، وتدعمه، عادت عينه لاتصالها بالسماء تغشاه السكينة. أعلن الجَلاوزة استعداد "نمر الأرض" لبدء اختبار السجين الرابع، فبذل "حَبُوك" جهده ليبقى على استرخائه، اقترب منه "نمر الأرض" حتى تلامس وجهاهما، فاشتم "حَبُوك"

رائحة مُنفَّرة تنبعث منه، تلك هي المرة الأولى التي يخضع فيها "حَبُوك" لهذا الاختبار، لم يقبض الجَلاوزة عليه قط. بغتة ابتعد "نمر الأرض" عنه بنفور شديد، فهلَّلت "سُلاس" هاتفة بحماسة جلب البسمة إلى ثغر "حَبُوك".

- لقد نجوت!

تملَّص السجين الثالث -الذي ثبت جُرمه- من أيدي الجَلاوزة يبغي الفرار، لكنهم أحكموا قبضاتهم فوق أطراف جسده بقوة آلمته، فتعالى صوته يستجديهم أن يسبغوا عليه من الرحمة شيئًا:

- لم أفعل شيئًا سيئًا! لقد أحسنت إلى الجميع طوال حياتي.. اتركوني.

رمقه بعض الحضور باحتقار صارخ، ورموه بفضلات طعامهم ولسانهم. لا يمكن لـ "نمر الأرض" أن يُخطئ قط، لم يفعل ولا مرة واحدة، يثقون بقدرته الفائقة والحساسة على شم رائحة بذرة الشر وتمييزها من بين ملايين الروائح الأخرى. ساق الجَلاوزة السجين الباكي وألقوا به في غيابة السجن، استعدادًا لإخضاعة للجزء الثاني من الاختبار، إما المغفرة أو الموت بين أنياب "نمر الأرض".

***

ضمتهما الغرفة السرية التي لطالما ضمت اجتماعهما بالفريق الذي تشتت أركانه، وهلك بعض أفراده. جلبت له قشر الرمان الذي يحبه، فتسلمه منها بغبطة أسرت التوتر في جسده، واستشعر نبضات قلبه تتراقص ثملة، أبعد عينه عن مرمى نظراتها، يخفي نظرة كادت أن تشي بحديث قلبه. لمس شرودها وتشتت أركانها، فلم يشأ أن يقطع حبل

تفكُّرها، رفع عينه مرة أخرى يعانقها خلسة، أفسدتها عليه ضربها للأرض بقوة وهي تهمس بجدية بالغة:

- بيننا خائن يا "حَبُوك".. ويجب أن نعرفه.

صمت مليًا ثم أفصح عن موافقته لرأيها، فهذا آخر ما قالته العزيزة "بِنان" قبل إلقائها بـ"فم النار".

أكملت بنفس النبرة الهامسة رغم علمها ببعد الغرفة السرية عن أي مسمع:

- ذلك الخائن وشى بالمُعلم "آصف" وتلاميذه، ثم بـ "بِنان"، ثم بك، ولربما أكون ضحيته التالية.

انتفض قلبه، وانتصب متحفزًا، تفصح عينه عما يحجبه لسانه، سمعها تستطرد بجدية أن عليهما كشف هذا الخائن.

- أأ هل تشكيين في "داااموس"؟

- كلا.

أفصحت "سُلاس" بحيادية أن "داموس" رغم كل مساوئه، وبغضها لعجرفته وغلظته، لا يمكنه أن يدفع بأخته إلى هذه الميتة البشعة.. ولديه من حب مملكته، واستعداده للتضحية بحياته من أجلها ما يمنعه من أن يفسد خطتهم لإنقاذ المملكة.

- من إذن؟

بقى سؤاله معلقًا في فراغ الغرفة، استغرقت في التفكير فاحترم صمتها كعادته، حتى قطعته وقد تملكها الضيق:

- يبدو أننا سنضطر إلى التعاون مع "داموس" الأعرج مرة أخرى.. إننا نحتاج ذلك المتعجرف.. آه! كم أشعر بالغيظ الشديد، أحتاج الذهاب إلى ساحة الصراخ الآن.

يعلم "حَبُوك" أنها أمست تُكثر مؤخرًا من التردد على ساحة الصراخ، فرآى في ذلك أمرًا جيدًا لها، فالصراخ سيخمد من جذوة غضبها. هكذا اعتاد أن يفعل أهل مملكة "النسر" كلما اعتراهم ما يقض مضاجعهم، ويبدو أنه بالنسبة لهم علاجٌ ناجعٌ جدًا!

***

التفت يرمق المسافة التي قطعها داخل النفق الضيق برائحته الخانقة، ولايزال غير مصدقٍ ما انتهى إليه حاله، ثم التفت إلى "أكيلا" التي تسير أمامه برشاقة حسدها عليها، استشعر كل مفاصل جسده تئن طلبًا للراحة.

- احذر، نبات سام.

كانت تلك النبتة الثانية عشرة التي مروا بها منذ أن استهلا رحلتهما تحت أرض"مينورا". ازدانت النبتة السوداء بأوراق غريبة الشكل، بأطراف مسننة حادة، تعلوها أشواك صغيرة. ألهب فضوله لاستكشاف ملمسها، وكيف تمكن "الجوييم" من استزراعها تحت الأرض.

- لا تفعل!

التفت ينظر إليها، فاقتربت متفحصة باهتمام:

- هل لمستها؟.. دعني أنظر.

نفذ إلى مسامه عطرًا داعبه، فاستحسن قربها، لم تطل لمستها، ابتعدت ترسل تحذيراتها:

- بعض النباتات هنا فور لمسها تسبب اهتياجًا بالجسم يعقبه موت سريع.

استكملا المسير يتابع تحركاتها بإهتمام. يسترجع بذهنه كيف ترجته والخوف يسري بقسماتها أن يرافقها حتى تصل إلى نهاية النفق، طمأنته أن النفق الذي اختارته لهروبها قديم لم يعد "الجوييم" يستخدمونه في تنقلاتهم، وأن الأمر لن يستغرق إلا ساعات قليلة يعود بعدها إلى مسكنه آمنًا، طلبت فيه شهامته، فوافق بتردد ملحوظ ولا يزال الخوف يساوره. عمدت إلى رسم خطوط من مادة مشعة تفرزها أغصان إحدى الأشجار على وجهها وأطرافها، وكذلك فعل، فاستنار النفق المظلم مع خطواتهما بداخله.

بدت "مينورا" في تلك اللحظة بعيدة إلى الحد الذي استحسن معه قرار الهرب، كان شاردًا يزن كلا الخيارين، أيهما يصب في صالحه ويجنبه المتاعب، عندما انقض عليهما بغتة من الخلف عشرة من "الجوييم" الأشداء، قيَّده ستة منهم، فيما صرف الأربعة الباقون قوتهم إلى "أكيلا" يثبتونها بالجدار، وقد تعالت صرخاتها تستنجد به.

***

أعملت نظرها فيما حولها مستريبة، ولما تأكدت أن الكل مشغول بشاغله، ولا عيونًا متلصصة بالجوار، اتجهت "سُلاس" صوب ذاك الذي أشار إليها مستوقفًا من خلف زاوية بالممر الممتد يسارًا، بنفس مضطربة

استقرت أمامه ولا تزال أعينها تحوم بالمكان مترقبة. بث الأمان بقلبها بأن الأنظار بمعزل عنهما، ضحك متهكمًا وهو يقول:

- ممن تخشين؟!.. ألستِ ميتة لا يراكِ أحد.

أجابت بجدية بالغة، زادت من سخرية نظراته:

- أخشى أن تتناثر حولك الأقاويل عندما يرونك تتحدث إلى نفسك.. عندها ستفقد مكانتك بينهم.

وحجبت عنه باقي عبارتها "ولن تأتيني بما أريد".. بادرته بحدة تُخفي لهفة تسأله عما يريده منها، فاستقر الحبور على وجهه يبشرها بما أرادت أن تسمعه:

- لقد وجدتها.. أخبرتكِ أنني سأفعل.

فشلت في إخفاء لهفة قفزت من أسوار عينيها فاستقبلها بابتسامة واسعة:

- أين؟ أعطني إياها.

- أنسيتِ اتفاقنا؟

ضاق صدرها، وكيف تنسى! عادت تجول بنظرها في الممر تراقب رواده القِلة، ثم توقفت عنده صامتة، قال:

- لن أنتظر طويلًا.

لم تكن بحاجة لتسمع ذلك، تعرف أن الصبر ليس من خصال "جادور" الحميدة، في الواقع لا يخطر ببالها أي صفة حميدة يتمتع بها

"جادور". تظنه معجزة تعيش بلا قلب. لعله ليس الأول من نوعه الذي تقابله. لكنه بالتأكيد أخبثهم وأوسعهم حيلة.

مكثت بعد رحيله بمكانها للحظات، ثم كأن النشاط دَبَّ فيها. انطلقت مسرعة إلى وجهتها. ارتطمت بأحدهم فلم تلتفت إليه ولم تعنى بسبابه. نزلت الدرجات الملتوية للسلم الذي يربط الطابق الأول إلى حيث الطابق الثالث والسبعون تحت الأرض. تمامًا حيث ينتظرها "داموس" في الغرفة السرية. توقفت قليلًا على أعتابها تحاول أن تطرد "جادور" وحديثه من عقلها. تحاول أن تواري ما تشعر به من إثارة وصوته لايزال يطن بمسامعها "لقد وجدتها".. كبحت لجام نفسها مذكرة نفسها بما جاءت من أجله. وولجت الغرفة.

***

اضطربت خطوات "حَبُوك" لمرأى "جادور" أمام مسكنه أثناء خروجه. يعلم ألا سبيل إلى تجاهله. وصدق حدسه عندما اعترض طريقه مصطدمًا به بحدة لا يغفرها خلو الممر واتساعه. تلاقت أعينهما في نزال رفع فيه "حَبُوك" سريعًا الراية البيضاء. حقًا يهابه. لم يرهبه جَلْد الجَلاوزة لكل جزء من جسده. كان يتلقى ضرباتهم بصبر بلغ الآفاق. ينتظر جلدة بعد أخرى بتؤدة من يراقب ذرات الرمال تتسابق إلى مستقرها في النصف السفلي من الساعة الرملية. كذلك لم يرهبه الموت الذي حاصره مرات. وفى كلة مرة لا يفصله عنه إلا غمضة واحدة. لكنه يهاب "جادور".. ليس لضخامة وقوة جسده الذي يتعاظم به ويتفاخر. ولا لذلك الجاه الذي يتوج اسمه بين شعب مملكة "النسر". ولا بسبب ما جُبل عليه من

خصال خبيثة لا تعرف سبيلًا لحُسن الشيم، بل لأن له من "سُلاس" مأربًا يجهله.

لايزال يذكر وقت أن رآهما يتحدثان معًا في "يوم الزينة" بهمس لا يصل إلى مسامعه، في زاوية بعيدة عن مرمى الأبصار، بدا حديثهما هامًا وجديًا. علم ذلك من وجه "سُلاس" الذي يُفصح دائمًا عما يعتمل بداخلها، أو لعلها مزية تخصه فحسب، قراءة "سُلاس". يومها أنكرت أنها تحدثت إلى "جادور" عندما سألتهم العزيزة "بِنان" إن اعترض طريق أحد من أفراد فرقتهم، لم يهتك أستار سرها أمام الآخرين، ولم يخبرها أنه رآها تتحدث إليه، ولم يسألها لماذا أنكرت معرفته، لكن الشك ملأ قلبه ولايزال، ماذا يريد هذا الخبيث منها!

رنا إلى "سُلاس" بالغرفة السرية منخرطة في الحديث إلى "داموس" فأصاب الحنق منه مبلغًا عظيمًا، دومًا تبدأ الاجتماعات دونه، لا فارق إن حضر الإجتماع أو غاب عنه، فكلاهما سواء. عمد إلى ترك هذا الحنق على أعتاب الغرفة السرية مُذكرًا نفسه بأن هذا ليس خطأ الآخرين، إن كان يعني لهم "لا شيء" فذلك لأنه بالفعل نكرة لا يُقام لها وزنٌ، فلماذا يطالبهم بما يعجز هو نفسه على أن يراه في انعكاس وجهه بمياه جارية.

***

اختطفوها أمام عينه، تُكبله أطرافهم بقبضات حديدية، آخر ما رآه ركلاتها لأحدهم فانهال آخر على جسدها بالضرب، قبل أن يبتلع مرغمًا مسحوقًا كالحنظل زجُّوه بقوة داخل فمه فقد على إثره وعيه، لا يزال يذكر صرخاتها تستنقذه، وتوعداتهم لها بأن يذيقوها مر العذاب.

قدَّر أنه استفاق فجرًا، فلم يكد يخرج من النفق بجسده المتهالك حتى رأى الصبح وقد أشرق على مملكة "مينورا"، بنفس منهزمة وقلب واجف وصل إلى مأمن مسكنه مرتعد الأوصال، أعمل عقله فيما يجب أن يفعله، هل يخبر "ريشَع" بما حدث، لكن وقتها لن يأمن بطشه، سيغضب أشد الغضب لمساعدته لواحدة من "الجوييم" على الهرب، وقد يتهمه بأنه واحدٌ منهم ويختلق قصة جهله بهويته. هل يتركها فريسة "للجوييم" إذن؟.. كيف يفعل؟.. اشتد غيظه لقِلة حيلته فاندفع يركل برعونة غصن الشجرة فانجرحت قدمه، وزاد الألم من غيظه فأطلق سبة لنفسه وهو يروح ويغدو بمسكنه، لا يستقربه المقام على حال.

لم يجذبه من غمرة أفكاره إلا المحارب الذي ظهر بأعتابه يخبره برغبة "ريشَع" في لقياه، فكاد أن يسقط قلبه بين أقدامه، توتر جسده فصدم المحارب أثناء سيره، حتى أنه لم يستطع أن يخرج صوتًا يعتذر به إليه. أبصر هناك على أرض الساحة الكبيرة جسدًا أسمرًا ملقى فوق الأرض، التف حوله ثلاثة من المحاربين، ترك مسار مرافقه بغير كلام واقترب ببطء من الجسد الأنثوي منزوع الرأسه، يتأمل حناياه، كتم شهقة فزع وهو يرمق الخطوط الملونة من المادة المشعة التي عكف مع "أكيلا" على دهن جسديهما بها، التفت يعدو بعيدًا عن جثتها التي كانت نابضة بالحياة منذ ساعات، يحدوها الأمل بالهرب من ذلك المصير الذي لاقته مرغمة في النهاية.. لا أمان فوق أرض "مينورا".. تحررت من عينه دمعة سمح لها بالهروب.

***

الملف العاشر

- جـ.. جـ.. "جادور"

زجَّ "حَبُوك" بالاسم ليجيب عن سؤال اجتمعوا ليعثروا على جوابه، التفتا يتطلعان إليه، لم يستطع قراءة "داموس"، أنبأته نقرة قدم "سُلاس" للأرض عدة مرات متعاقبة بتوترها، لذلك لم يكتنفه شيء من الدهشة عندما استبعدت أن يكون "جادور" هو الذي يعبث بحيواتهم، وكذلك قال "داموس":

- "جادور" لا يعرف أي شيء عن فريقنا، ولا فائدة تعود عليه من أذيتنا.

بدا كلامه منطقيًا، ولعله هو نفسه لا يجد سببًا ليزج باسمه إلى قفص الاتهام سوى ما يثيره فيه من رهبة، وما يبثه اقترابه من "سُلاس" بداخله من ضيق. حتى عداوته السابقة للعزيزة "بِنَان" انتهت بموتها.

- يجب أن نستكمل المهمة التي وكلنا بها؛ من أجل شعبنا.

- كيف؟!

قذفت "سُلاس" بسؤالها الاستنكاري، ثم استطردت بتحدي:

- لا يمكن لثلاثتنا فقط الحفر لبلوغ القبو.. ذلك شاق جدًا.

- بل يمكننا، إن بذلنا جهدنا في ذلك.

أشياء قليلة هي التي تبعث باللذة في نفسها، ومن بينها السخرية ممن يُبدي تفوقه عليها، خاصة إن كان فظًا كـ"داموس":

- أثق بقدرتك على فعل ذلك.. أنت كتلة من الطاقة بلا رأس.

لا تدري ما الذي أغضبها أكثر، صمته عن استفزازها إياه الذي لم يجد لديه صدى، أم مغادرته المفاجئة دون أن يعيرها أدنى اهتمام. ولم يقر بنفسها أن ردة فعله هذه ليست من العبثية في شيء! يعرفها جيدًا.. تكره التجاهل ولا تطيقه، ستعمد إلى الزج بنفسها في طريقه، فقط لتشعر أن هناك من يراها.

***

استقر أمام "ريشَع" بقاعة الحكم ينظر إليه نظر المغشي عليه من الخوف، لم تهدأ بعض نفسه حتى علم مبلغ قصده من استدعائه. أعماه اضطرابه في البداية عن ذاك الذي يتبوأ من عرش الملك مجلسًا، حتى عرَّفه "ريشَع" بأنه "ملك مينورا الجديد"!

رغم الود المفقود بينه و"ريشَع" إلا أنه أعجب بمقالته التي خلص منها إلى أن منتهى غاية "ريشَع" حماية أرضه وشعبه، ولا مطمع له غير بذل حياته كلها من أجل "مينورا".

رنا "القزم" إلى الملك الذي اتخذ موضعه فوق العرش، لم يجد به ملمحًا ظاهرًا أو خفيًا يشكل فرقًا بينه وبين الملك المقتول، بدا متشابهين إلى الحد الذي نسي معه شكل الملك السابق، مزج عقله الوجهين ليصيرا وجهًا واحدًا!

استقبل ثناء الملك الجديد على بطولته في إنقاذ الملك القديم بهزة رأس وهمهمة غير مفهومة، فيما مشهد جثة "أكيلا" منزوعة الرأس يأبى أن يفارق خياله، لا يدع لجوارحه فرصة لأن تسكن. حاول التركيز على كلام الملك ببذل استطاعته، لكن وعيه استقر فقط على جمل متفرقة مبتورة استطاع أن يشكل منها معنى لدعوة الملك إياه بالمكوث في "مينورا" آمنًا تحت سلطانه، وسيوفر له العمل الذي يثير في نفسه استحسانًا، موضوعًا تحت أنظار الملك واختباراته حتى تبلغ ثقته به مبلغًا جيدًا.

وبينما يفكر في صياغة شكر يليق بالعرض الكريم للملك، تنامى إلى مسامع الجميع بوق إنذار ذكَّره بليلة قتل الملك القديم، فاقشعر جسده، وتأهبت حواسه، وقبل أن يبادر "ريشَع" بمغادرة قاعة الحكم ليستطلع الأمر، اقتحمها أحد المحاربين يتوجه بحديث الملهوف إلى "ريشَع" بعد أن أدى تحية سريعة إلى الملك:

- لقد هربت إحدى الهدايا!

استقر الهلع بقلبه بعدما سمع صيحة "ريشَع" الغاضبة في وجه محاربه. غادر "ريشَع" القاعة يعقبه المحارب ممتقع الوجه، ومن خلفهما احتمى الملك بزمرة من المحاربين، سمعهم يطلبون منه أن يصحبهم إلى المسكن الآمن.

"هل قال إحدى الهدايا!.. بالتأكيد قصد إحدى السبايا" حدَّث نفسه وهو يجد طريقه إلى خارج المكان الذي يرسل ذبذبات التوتر بجميع خلاياه. لكن أوقفه مرأى إحدى الحشرات الضخمة وهي تمر بذنبها المضئ في لحظة خاطفة بجوار شجرة قريبة من تلك التي تستقر فوقها قاعة

الحكم، لا يدري إن كان خُيِّل إليه بفعل اضطرابه، وتشوش تفكيره، أم أنه أبصر أحدًا ما يحاول أن يتوارى بين الأغصان.

دقق النظر، لم يلمح جسدًا هذه المرة، بل رأسًا تعلو جسدًا انحشر بين غصنين عريضين، التفت حوله يبحث عن أحد المحاربين يرشده إلى أسيرتهم الهاربة، لكن لمع بذهنه حلًا يستنقذ به نفسه، ويثبت به عند الملك قدمًا، ويستحوذ به ثقة "رِيشَع" وإعجابه.

متسلحًا بسرعته وخفة حركته انسل بهدوء وخطوات مدروسة متواريًا خلف سيقان الأشجار، لا يحيد عن مراقبة هدفه، استرق نظرة إلى الجسد المختبئ يرصد حركة بدرت عنه، فاطمأن لعدم هروب فريسته، وازداد مع كل خطوة عزمًا على إيقاعها في شباكه. اهتدى إلى الشجرة فتسلقها بحذر، وبصبر بلغ مداه. ساعده انقسام ساق الشجرة إلى فرعين متجاورين لا تفصل بينهما إلا مسافة صغيرة تسع جسده النحيل، فأصبح بمأمن عن عيون فريسته، وعن أنظار المحاربين المتناثرين في أركان المملكة في حالة استنفار للبحث عن الهاربة. بدرت عنها حركة عندما اقترب من مقدمة الشجرة فتوقف عن تسلقها، ولم يعاود صعوده إلا بعدما أمن عدم اكتشافها لأمره، عليه بالصبر والحذر، إن هربت منه ستضيع كل جهوده سُدى.

استطاع أن يتبيَّن مقدمة رأسها وهي تحركها باضطراب في جميع الاتجاهات، رأى أن أمامه فكرتين لا ثالث لهما، إما الإمساك بها وتقييد حركتها وإنزالها من فوق الشجرة إلى حيث يسلمها للمحاربين، أو يدفعها من مكانها فيسقطها أرضًا ليباغتها ويأمن عدم انفلاتها منه، إذا أصابتها السقطة بألم أعجزها عن الحركة. تدلَّى ليرمق الأرض العشبية أسفل

الشجرة وقد غلب ظنه أن سقطتها لن تكون مميتة، فقط ستسبب لها أذى يشل من حركتها، ويحد من مقاومتها، ويضمن له الفوز بها.

دفع بها!..لم يستطيع أن يمنع قلقه المتنامي وهو يبصرها فوق العشب بجسد هامد بعد صرخة ملتاعة بطول المسافة من مخبئها فوق الشجرة إلى أسفلها. تحركت فاستكان قلقه، نزل من فوق الشجرة واستقر أمامها لاهثًا، سقطت على وجهها فلم يتبيَّن ملامحها، حاولت النهوض بصعوبة تتلمَّس قدمها متوجعة. "إنها واحدة من الجوييم القتلة" هتف في نفسه.

استغرق في البحث عن أحد المحاربين ثم توقف بغتة وبدا له أن من الأفضل أن يسلمها لـ "ريشَع"بنفسه، استرق نظرة إليها وهي لاتزال تجاهد للنهوض، بحث عما يصنعه كقيد لها، فلم يجد إلا صخرة دحرجها حتى اقترب منها ثم رفعها ووضعها فوق ظهرها، قدَّر أنها لن تؤذيها، وسيتوقف عملها على إعاقة هروبها إن حاولت، خاصة مع قدمها المصابة.

"لم تستجديه ليطلق سراحها".. جال هذا الخاطر بنفسه، قفز قلبه غبطة إذ وقع نظره على "ريشَع" بقسماته الحادة، بين محاربيه الذين منعوه من التقدم نحوه، فإذ به يهتف ليلفت إنتباهه:

- أيها القائد العظيم "ريشَع".. لقد أمسكت بالهاربة.

تكاد تسبقه بلهفة خطواته، ساق "ريشَع" إلى حيث أسيرته التي لم يعثر لها على أثر!.. تاركة له الصخرة وكثير من العشب المنثني كتذكار. فضَّل أن يبحث عنها في الجوار عن مواجهة "ريشَع" المتشبع بالغضب، حتى لمحها تجر جسدها الهزيل بصعوبة فصرخ يرشدهم إلى مكانها.

***

مستلذًا بما أسبغه عليه "رِيشَع" من أجود طعام وشراب المملكة توسَّد الجزع بمسكنه، وطفق يملأ بطنه بما اشتهاه وما لم يتخيل وجوده، ثملًا بثناء "رِيشَع" الذي دغدغ حواسه فأفضى به إلى مرتع الانتشاء. أشعل بجذوات من نار حطب زهوه، وغذَّي بروح الحياة أناه.

لم يقض مضجع سكرته، ويسرقه من نشوته إلا تذكُّره لأوامر "رِيشَع" التي وجهها إلى محاربيه قبل أن يغادر المكان:

- شدوا وثاق هذه النجسة بمسكني الخاص.. سأجعل من الليلة ذكرى لا تُنسى لكلينا.

***

الملف الحادي عشر

لم يهتد قلبه إلى سبيل الراحة رغم استشعاره بالأمان، طفق يتحرك باضطراب في مسكنه، ساورته المخاوف، واستيقظ ضميره من مرقده، استقر برأسه ألم مقيت وهو يتذكر كلمات "رِيشَع".

"سأجعل من الليلة ذكرى لا تُنسى لكلينا".

ضرب برأسه الجذع عله يتوقف عن حماقته، ما شأنه وتلك التي تنتمي إلى "الجوييم" البرابرة، فما حدث للمسكينة "أكيلا" لا يُمكن غفرانه. إنهم متوحشون همجيون، بات أكثر يقينًا من أن ما يحصدونه الآن من تنكيل وقتل وتعذيب جزاءً وفاقًا لما زرعوه طوعًا واختيارًا، لا تزرع بذور الحنظل وتأمل أن تجني غصن الزيتون!.. هتفت شيوخ الهواجس بداخله "وما أدراك أنها لم تثر عليهم وتهرب كما فعلت "أكيلا"؟!". ازدادت خطاه سرعة باطراد، أقدامه تدق الأرض بحدة واضطراب، وفي قلبه لهيب الزفرات.

"سأجعل من الليلة ذكرى لا تُنسى لكلينا".

"رِيشَع" بمعزل عن التفهم والتماس الأعذار، مهما ترجته لن يشملها بعفوه ورحمته.

"ذكرى لا تُنسى"!!

استصرخته نفسه " أتظنه سيقبل شفاعتك، لن تجني سوى غضبه المقيت، ستمسي عن بابه مصدودًا، وعن جنابه مُبعدًا، بل والأسوأ، سيشملك عقابه أيضًا وستصير ليلة لا تُنسى لثلاثتكم! أما ظهر لك بالشهامة الخسران؟ أما فطنت إلى أن السلامة في أن يظل ضميرك نعسانا؟!

مضى في الطرقات مسرعًا، تسوقه أقدامه إلى حيث الشجرة التي تحتضن بجذوعها مسكن "ريشَع".. يردد النظر إليها متخبطًا. استقر أمامه محاربٌ عدائيٌّ دفعه بمقدمة سلاحه وهو يأمره بالمغادرة، فاستجمع شتات شجاعة زائفة، وأخبره برغبته في لقاء القائد "ريشَع" لأمر هام لا يحتمل التأخير. لا يدري كم من الوقت وقف ينتظر عودة المحارب، متجنبًا النظر في عيون باقي المحاربين التي تطفح بالبغضاء. تنحصر نظراته بين مسكن "ريشَع" وطريق العودة إلى مسكنه. لكن سبق السيف العزل، انطلقت الكلمات من فمه ولا سبيل إلى ردها.

تمنَّى في لحظة أن يجود عليه المحارب برفض "ريشَع" لمقابلته، متشبثًا بأهداب أمل انفصم عراه سريعًا، وأضحى أنه ولا بد مواجهًا تبعات قراره الأحمق. متقدمًا من "ريشَع" الذي بدا مرتاحًا إلى حد لم يعتد أن يراه به خارج مسكنه الخاص، يقدم رجلًا ويؤخر الأخرى. أعمل نظره سريعًا فيما حوله، فاستقرت عينه على الأسيرة مقيدة الأطراف، منهكة القوى، تجاهد لتُشبع خلاياها بالأكسجين، أبصر على ما بدا له من جسدها جروحا وكدمات، وقر الخوف بقلبه، و"ريشَع" نافذ الصبر يسأله عن الأمر الهام الذي لا يحتمل التأخير.

- أنا أعرف تلك التي ماتت في الساحة صباح اليوم.

لم يجد أفضل من ذلك يخبر به "ريشَع". فساعاته متشابهة لا يحدث فيها ما يستحق أن يُروى، استطرد بتوتر تملَّك منه:

- لقد أتت إلى مسكني وطلبت مني الحماية، لأن "جوييم مينورا" يسعون وراءها لقتلها، لأنها أرادت مفارقتهم.

- ثم؟

أردف وأنظاره مُعلقة بالأسيرة التي لا يبدر عنها صوت أنين أو بكاء:

- أبقيتها في مسكني لليلة ثم طلبت منها المغادرة.

ثبت عينه بعيني"ريشَع"، لا يشيح عنه بوجهه ليثبت له صدق هذه الكذبة! لمس في وجهه خيبة وضيقًا، يبدو أن ما قاله لم يكن مهمًا كما توقع ليخرجه من استغراقه فيما كان يصنع. أشار إليه بالانصراف، أعلنت أقدامه على رأسه عصيانًا، فارتسمت الدهشة على وجه "ريشَع" لتباطئه في تنفيذ الأمر؛ عليه أن يجد ما يقوله، وبسرعة.

أشار إلى الأسيرة المقيدة وهو يقول بنبرة متلجلجة ظاهرها الود، بها من السخرية والتحدي ما لم تخطئه مسامع "ريشَع":

- هل يتغذى القائد العظيم "ريشَع" على فضلات "الجوييم"!

في الواقع لا يهمه ما يفعله "ريشَع" بها بقدر ما يهمه ألا يكون سببًا في ذلك، بعدما سلمها إليه طواعية. التوى على "ريشَع" صوته لا ينطق ولا يبين، وقد احتدت قسماته واتقدت عيناه، حتى بدا طيف بسمة على وجهه، دانيًا من "القزم" قائلًا:

- أتعلم.. لقد أبديت إلى الآن من الشجاعة والذكاء ما يجعلك تستحق مكافأة.

ثم أشار إلى الأسيرة، واتسعت ابتسامته:

- خذها.

ارتسمت نظرة بلهاء بعين "القزم"، وقسماته تشي بدهشة وحيرة، بينما عادت قسمات "ريشَع" إلى حدتها، مستطردًا بنبرة مهددة لا مزح فيها، لا تقبل صدًا ولا ردًا:

- وأعدها في الصباح.. منزوعة الرأس!

***

الملف الثاني عشر

تطارده أشباح خيالاته السوداء مضى يطوف بمسكنه حول الجسد الذي ألقاه المحاربون فوق الأرض. الآن فقط استطاع روية وجهها، تمكَّن من أن ينظر بوضوح إلى الفراغ الذي يحيط بالمكان الذي من المفترض أن يحوى عينها اليسرى، إنها بعين واحدة!.. تمامًا كالغريب الذي ألقى بنفسه من فوق الجبل، والذي بدأت حكايته عنده.

اكتنفته دوامة حيرة، هل يشير هذا التشابه بينهما إلى أمر ما، أيكون لديها حلًا لذلك اللغز الذي استيقظ ذات صباح ليجد نفسه محاطًا به من كل اتجاه، ما نسبة الصدفة في أن يقابل خلال أيام معدودة فردين يملك كل منهما عينًا واحدة؟.. قدَّر أنها قليلة جدًا، الصدفة لا تلعب دورها بهذا الاحتراف.

تمشَّت رعدة في أعضائه فبينما يجثو على قدمه، يدنو منها ليفحصها، ثبتت نظراتها على وجهه، فحَلَّق طائر الخوف في عينها، تدفعه عنها بقوة لم يتوقع أن يمتلكها جسدها المنهك. حاول أن يُبدد خوفها، ويدفع غضبها بإظهار حُسن نواياه، غلَّفها بعبارات مبتورة، شكَّلت حكيًا يبعث على الضحك.

لم يتنبه إلى نظراتها التي طردت عنها الريبة لتحل بمجلسها اللهفة، وهي تجاهد ألمها لتسأله:



- من أنت؟ هل أرسلك "أصلان" لإنقاذي؟ هل هو معك هنا؟

تلفتت حولها مستطلعة، بما سمحت به قدمها المصابة، ثم عادت تسقط نظراتها على وجهه الذي بقى على حاله من الغم والأسى، ماذا يفعل بهذه الكارثة!

- جائعة جدًا.

أدنى منها الطعام، التهمته بنهم وهي تقول.

- لماذا لم تجبني؟ شكرًا لإنقاذي أولًا.

تولَّى عنها مدبرًا يتكئ إلى الجذع، يواري بسمة ساخرة، ولما ألحَّت عليه في سؤالها، أجابها باقتضاب ونفاذ صبر بأنه لا يعرف شيئًا عما تقوله، لا يعرفها ولا يعرف ذاك الـ "أصلان" الذي تتحدث عنه، ولم يرسله أحد لإنقاذها.

لمس خيبتها جلية، غرق عقله في إيجاد حل لورطته، إما رأسه أو رأسها!.. وعندما سألته عن خطته لهروبهما، كاد أن ينفجر غيظًا، عن أي هروب تتحدث، ألا تعلم من هو "ريشَع"، إنه يمسك "مينورا" بقبضة من حديد، لا يلجها أو يفارقها أحد إلا بعلمه، وإن حاولا الهروب عبر الأنفاق سيلاقيا نفس مصير "أكيلا" على أيدي "الجوييم".

يبدو أنه لم يستطع الاحتفاظ برأيه لنفسه، خاصة مع إلحاحها في معرفة خطته العبقرية للهروب، لمس دهشتها البالغة وهي تسأله مستنكرة:

- لماذا تدعوهم بـ"جوييم"؟!

كاد أن يجيب: "أليس هذا اسمهم؟!".. لكنه أحجم عن ذلك، يبدو أن هذه المخلوقة ذات العين الواحدة تعرف أكثر مما يعرف، لم يمنع نفسه من استراق النظر إلى عينها، ينتقل منها إلى الفراغ الذي يجاورها يحدوه فضول بالغ، حتى تنبه إلى نظراتها وحركة رأسها، مستنكرة تفحصُّه فيها، فأشاح عنها وجهًا مضطربًا.

حملت له اللحظات التاليه صراعًا نفسيًا هائلًا، الكارثة التي ابتلي بها تحثه على الهرب، تظن أنهما ينتميان إلى الفريق نفسه، ومن جهة أخرى يرى في قتلها أمرًا مستبشعًا، لن يقوى عليه مهما شحَّذ له من رغبات. وفي خضم صراعه مع نفسه ألقت عليه معلومة ساعدته على اتخاذ قراره؛ إذ دار بينهما هذا الحوار، سألته:

- لماذا أنت هنا؟

- .....

- هل واجهتك مشكلة؟.. هل هربت من المملكة؟

- أي مملكة.. ها؟!

- مملكتنا.

- لا أعرفها؟!

- هل تلعب معي؟!

قالتها بعنف، عليه أن يعترف أن رؤيتها بعين واحدة أمر يبعث في نفسه بالرهبة، لكن رؤية الغضب يشع من قسماتها التي تحيط بهذه العين لهو

أمر مفزع حقًا. حملت اللحظات التالية الدهشة لكليهما، لكن النصيب الأكبر كان لـ "القزم".

- هل تعني أنك لا تتذكر أنك من مملكة "النسر"؟

- هذه هي المرة الأولى التي أسمع بهذا الاسم.

ثم استطرد باهتمام بالغ:

- لكن لماذا أنتِ واثقة أنني من أبناء مملكتكِ؟

- بسبب هذا.

أشارت إلى المثلث الذي يتوسط جبينها، فدنا منها يحدق فيه متلمسًا ذاك الذي يتوسط جبينه هو الآخر، وهو يسألها ليجلي عن نفسه الحيرة:

- هل هذه العلامة تخص أبناء مملكتكِ فقط؟

أومأت برأسها، فخفق قلبه بابتهاج، وأخذ مكانها في شحذ الهمم للهروب.. الآن! فها هو يتجه معها بعد أن غزت الشمس سماء "مينورا" إلى النفق الوحيد الذي يعرفه، ليهربا عبره، وعندما أبدى لها تخوفه من أن ينقض عليهما "الجوييم"، أعربت عن دهشتها وغضبها للمرة الثانية وهي تسأله بحدة:

- لماذا تصر على مناداتهم بالاسم الذي ينعتهم به أعداؤهم.. لا تخفهم لن يؤذونا بالطبع!

قالتها بثقة اعتبرها حماقة، أحجم عن إخبارها برأيه، انتبه إلى أنهما وصلا إلى فتحة النفق دون أن يحاولا العثور على المادة المضيئة ليدهنا بها

جسديهما قبل عبور النفق، لم يكد يخبرها بذلك حتى احتدت بنفاذ صبر بدا جليًا أنها لم تتحلى به يومًا:

- هل تلعب معي!

دلفت إلى النفق دون أن تدع له فرصة للرد، فامتلأ غيظًا وهمَّ بأن يغادر للبحث عن المادة المضيئة إلا أنه لم يحب أن يفوت على نفسه فرصة رؤية هذه العنيدة وهي متخبطة في الظلام، عائدة بأدراجها إليه، تعتذر منه على سوء تقديرها للأمور.. دلف إلى النفق يبتلعه الظلام الدامس، لكن ابتسامته الشامتة التي أعدها ليستقبلها بها وئدت على وجهه فور ولادتها، فقد كان على موعد مع أغرب مفاجأة تلقاها حتى الآن.. إنه يرى في الظلام!!

دَبَّ ذعر بارد بأطرافه للوهلة الأولى، تلمَّس جدار النفق متخبطًا، وقف ملتصقًا لفترة ليست بالطويلة حتى اتزن جسده واتضحت الرؤية أكثر، إنه ذلك المثلث الذي كان يعده تشوهًا أصاب جبهته، هو ما يجعله يرى في الظلام، ما أغرب ذلك!..ولايزال ملتصقًا بالجدار مضى بخطوات بطيئة ثم زاد من سرعتها حتى تمكن من بلوغ المسافة القصيرة التي قطعتها مرافقته وهي تمس من حين لآخر قدمها المصابة، تمر فترات تقف فيها لتلتقط نفسًا أو تغالب ألمًا فيسبقها بخطواته، وعندما يرى تباعد المسافة بينهما كثيرًا يحد من سرعته حتى تتقلص. ملتفتًا إلى الخلف كل عدة ثوان يخشى هجومًا مباغتًا كسابقه.

- ظننتك أخرقًا لكن ليس إلى هذا الحد!

أفزعته صرختها فنظر أمامه ليبصر نهاية النفق، بعد سير طويل مرهق، ليتفاجئا بسد ضخم من الرمال يقف أمامهما مادا لهما لسانه!



وقبل أن يفيق من دهشة، تلقى تقريعها بصوتها الجهوري:

- أجعلتني أقطع كل هذه المسافة بقدمي التي تكاد تقتلني ألمًا داخل نفق عطن الرائحة، ضيق كالقبر، له مدخل وليس له مخرج!

احتد وقد زادت صرخاتها من غيظه:

- وكيف لي أن أعرف.

- ولماذا اقترحت أن نهرب من خلاله إن كنت لا تعرف؟

- أعتذر منكِ.. في المرة القادمة التي سأقرر فيها الهرب برفقتكِ سأختبر طريق الهروب أولًا!

- حسنًا تفعل.

ثم استطردت وهي تستقر ملتصقة بالجدار وتمدد قدمها:

- يبدو أن هذا الفيروس الذكوري لا ينجو منه أحد.. تظنون أنكم تعلمون.. فتتباهون بأنكم تعلمون.. ثم يتضح بالتجربة أنكم تجهلون، وتجهلون أنكم تجهلون.

شعر في هذه اللحظة أن خيار إعادتها إلى "ريشَع" منزوعة الرأس لم يكن سيئًا إلى هذه الدرجة.

***

"المسافة بين النية والإرادة تتناسب طرديًا مع حجم الظروف المضادة، كلما زادت دفعت بنا إلى ولوج أكثر الأبواب إلينا بُغضًا".

تلك هي التدوينة الأولى التي قرر أن يكتبها فوق حائط ذاكرته، فإن كان قد نسي خبراته الماضية التي شكَّلت منه ذاته، بإمكانه دومًا أن يبني خبرات أخرى، تعينه على استعادة الأولى، أو تضاف إليها، أو على الأقل تعمل كبديل لها.

الخبرة التي جعلته يدون أولى تدويناته، لم يكتسبها من سيره الحثيث داخل نفق لا مخرج له، ولا في محاولته السيطرة على أطرافه حتى لا تمتد إلى عنق مرافقته، ولا في طريق العودة إلى الفتحة الوحيدة في النفق بمفرده بعدما تركها تجتر آلام قدمها داخله، بل فطن إليها وهو فوق شجرة فاكهة التنين يقتطع أكبر جزء ممكن من ثمرتها بسكينه وقلبه يكاد ينفجر خوفًا من أن تقع عليه أنظار المحاربين، أو تقرر الزهرة الشرسة أن تستيقظ في غير موعدها!

فها هو يعود إلى الشجرة التي عاهد نفسه ألا يقترب منها أبدًا، وها هو يستريح أسفل الشجرة التي اعتاد أن يلتقي عندها "دُوش"، وعينه تبحث عنه حتى سمع صوته من خلفه يستصرخه:

- هذه شجرتي.. إليّ بثمن الظل!

لم يحتج "دوش" إلى إلحاح، وكان حوارهما قصيرًا جدًا، منحه "القزم" قطعة من الثمرة ثم سأله:

- هل تعرف مدخل لأحد أنفاق "الجوييم" المهجورة والتي تُفضي إلى خارج "مينورا"؟

- نعم أعرف.

- أين هو.. ها؟



- هذا سؤال آخر.

تخشَّبت ابتسامة "دُوش" فوق وجهه، يرنو إلى مثيلتها الخبيثة على وجه "القزم" وهو يمد إليه قطعة أخرى من الثمرة، ويقف متحفزًا في انتظارجوابه.

مضى ونظرات الظفر تند من عينه يعيد ولوج النفق لإحضار تلك التي تنتظره بداخله ليُعلمها بنبأ طريقهما الجديد للهرب، بينما عقله يرسم التدوينة الثانية فوق حائط ذاكرته "لا تُدحَر الحيلة إلا بمثلها".

لم يكن الأمر هذه المرة بسهولة المرة الأولى، فقد صرفا الكثير من الوقت والجهد في إزالة أوراق الشجر ودفع الأغصان والحجارة عن مدخل النفق، بدا أنه لم يُستعمل منذ وقت طويل، رائحة عطنة تفوح من جدرانه دفعتهما إلى السير ببطء في البداية، ثم ذكَّرها بأنهما في خطر ويجب أن يخرجا من "مينورا" قبل أن يبدأ "ريشَع" في البحث عنهما. حامت نظراته المشفقه حول قدمها المصابة وهي تجرها بغير تذمر، إلا أن أمارات الألم ندَّت من وجهها، فسكب ذلك ملحًا على جرح مروءته الملتهب.

استبطأت في سيرها مرة أخرى حتى تجاوزها بمسافة كبيرة، عاد أدراجه ليجدها مستندة إلى الجدار ووجهها يعتصر ألمًا.

- يجب أن تتحاملي على نفسك قليلًا، كلما تأخرنا كلما ازداد الخطر.

- ألا ترى أني أفعل!

أخرسته حدتها، ومرقت بجواره كمحاربة مرفوعة الرأس، رنا إليها لبرهة ثم استكمل طريقه، حتى أوقفهما صوت ارتطام ارتج بغتة داخل النفق، أعقبه أصوات أقدام تتجه صوبهما، تقترب أكثر فأكثر، تبادلت

أعينهما نظرة فزع، وقبل أن يبتعدا عن مصدر الخطر بمسافة كبيرة، كان عددًا من "الجوييم" جاثمًا فوق أنفاسهما، تملأ صيحاتهم منهما السمع، فتاهت عقولهما في لُجة الهلع.

***



الملف الثالث عشر

أمسى يتضور أمنًا، يتقلَّب ظهرًا لبطن، محاولًا إفلات نفسه من براثنهم، وقد أثخنته قلة الحيلة. سيقا إلى فتحة جانبية بجدار النفق، لم تكن موجودة حينما مرا عبره، بدا وكأنها حُفرت للتو، لكن أصابه الهَم إذ أدرك أنها كانت مغطاة بورقة شجر كبيرة بلون جدار النفق للتمويه. دفع اثنان من "الجوييم" بأيديهما خلف الورقة وحلا عقدة ربطتها بإحدى الصخور خلفها بالنفق السري، أزاحاها عن مكانها برفق، وبعدما استقر الجميع بداخل النفق السري، قاما بإغلاق الفتحة بالورقة بعد ربطها بالصخرة مرة أخرى. تبين له أنهم داخل ممر آخر طويل كسابقه، لكنه أكثر سعة ونظافة، اختفت الرائحة العطنة لتحل محلها أخرى طيبة. أبصر فتحة صغيرة بالسقف مغطاه بألياف طوليًا وعرضيًا تعمل كشبكة، يبدو أنها صُنعت للتهوية، أو لهروب اضطراري، أو كنقاط للمهاجمة.

أبصر على جدار النفق على الجانبين حفر برزت خلاله رسمة واحدة تتكرر بطول المسافة التي قطعوها بداخله حتى الآن، نحت لسهم يتجه للأعلى! بدا هذا غريبًا له ومثيرًا للدهشة، لماذا لا تتجه الأسهم إلى الأمام حيث امتداد النفق، أو للخلف، فالأعلى لا يقود إلا لأرض "مينورا"!

خامره شعور المساق إلى حتفه، وكأن قبضات "الجوييم" على جسده ما هي إلا المنية تنشب به أظافرها، قبل أن تنزل به صرعة الموت. "تُرى هل

يقطع "الجوييم" أوصال قتلاهم من أعدائهم كما يفعل أهل "مينورا" بجثث أسراهم؟.. "هل يترفَّع "الجوييم" عن تعذيب أسراهم أم أن القتل الرحيم ليس من سجاياهم؟. التفت يحدق في مرافقته المُساقة أمام ثلاثة من "الجوييم" حادي القسمات، لم تكن مقيدة الحركة كما الحال معه، تسير بثقة مقاتل يرفض الاعتراف بهزيمته، يبدو أن كل هذه النوائب لم تنل بعد من رباطة جأشها، أم تراها استسلمت لمصير لا فائدة من شحذ الهمم لدفعه؟

مرا بجوار فتحة في الجهة اليمنى لقاعة كبيرة جدًا لم يتصور أن "للجوييم" من الهمة والعزيمة لحفر مثلها، وقعت أنظاره على أعداد وفيرة منهم، تطلَّع إليه بعضهم بفضول. لم تكد تمر بضعة خطوات أخرى حتى انفتحت الجهة اليسرى عن قاعة أكثر رحابة من سابقتها، تباطأ في سيره قليلًا، فاستطاع أن يتبين مئات الرؤس لذكور وإناث وصغار يتخذون أماكنهم داخل القاعة في شكل مجموعات صغيرة، كل قاعة مر بها تضم فيما يُشبه العنابر، كل عنبر يعمل كمسكن مخصص لمجموعة من "الجوييم". وما رآه في القاعة قبل الأخيرة التي مروا بها أثار دهشته واستياءه معًا، ضمَّت القاعة عددًا من"الجوييم" قويِّي البنية يدربون مجموعة من الصغار على استخدام أسلحتهم، وقفت مجموعة من المدربين خلف صف من الصغار في مواجهة جدار بالقاعة، يدربونهم على قذف الحمض الحارق في علامات محفورة فوق الجدار، عندما انطلقت قذائف الصغار الحارقة تلمَّس "القزم" عينه التي حجبتها الضمادة وهو يتذكر الألم المميت الذي شعر به عندما قذفه "الجوييم" بهذا السائل.. فسرت رعدة في أوصاله.

بالكاد انتبه إلى أنه وصل إلى محطته الأخيرة، قاعة ضمَّت عددًا من كبار "الجوييم" ترأسها الصمت البارد. تتطلع إليهم الأعين في ترقب، بدا البعض متحفزًا بتلمس أسلحتهم. قدمهما إليهم قائد المجموعة التي قبضت عليهما بصفتهما جاسوسين أرسلهما "ريشَع" فأيقن أنها ولا بد النهاية، فزهد في التوسل إليهم ليعتقوا رقبته.

- المُعلم "آصف" يُقرؤكم السلام.

استوقدت الحيرة في قلبه وهو ينظر إلى مرافقته، ثم ينقل نظرة إلى وجوه "الجوييم" ليعرف تأثير كلماتها عليهم، دنا منها أحد "الجوييم" بدا أنه كبيرهم، له هيبة لم تسه عنها عين "القزم". يسألها عما يثبت له أنها حقًا من طرف المُعلم "آصف"، لا جاسوسة لـ "ريشَع". رنا "القزم" إلى ثباتها فأصابها بعين حاسدة، أكملت بنفس النبرة الهادئة، وهي تشد قامتها بثقة، تنظر بثبات إلى عيني مُحدثها:

- "قوة الكون" رابضة بالقبو الآن، تنتظر شرفاء هذه الأرض، وإن شحذنا الهمة وامتلكنا الإيمان الكافي، فخلال وقت قصير سيلتقي طريقانا.. هذا إن كنتم لازلتم على العهد مع المُعلم "آصف".

- طبعًا لازلنا على العهد.

دوت أصداء كثيرة لكلماته كداء تفشَّى فيهم، بعدد "الجوييم" الموجودين في القاعة الآن والذي يقارب المائة، سرت رعدة بجسد "القزم"، انبثق الفرح بقلبه، وأذهب كثير قلقه، لا يدري ما يتحدثان بشأنه، لكن غلب على ظنه أن ما يحدث أمر طيب، ولعل المعجزة تحدث ويعتقا رقبتيهما.

لكن المعجزة كانت أكبر من أمنياته، فقد تعهَّد أحد كبراء "الجوييم" بتوفير الطعام لرحلتهما، وأن يرفق معهما أربعة محاربين أشداء يوصلونهما حتى مخرج النفق، خارج مملكة "مينورا".

أمضيا الليلة برفقة "الجوييم" طلبًا للراحة، في أحد عنابرهم، ولم يتعرض إليهما أحدٌ بسوء، غير أن النظرات الفضولية كانت تند من عيون الجميع. عكف أكبر مداويهم على معالجة قدم مرافقته المصابة، بدا ماهرًا إلى الحد الذي أذهب بألمها خلال ساعات قليلة. أعطاها مسحوقًا زيتوني اللون، وطلب منها أن تحسو من حسوات صغيرة كلما هاجمتها الآلام.

في الصباح الباكر غذيا الخطى بعد أن شيعهما "الجوييم" بكثير من الود والأمل.. لم ينس "القزم" أن يهتف محييًا قبل مفارقة محاربي "الجوييم" عند مخرج النفق:

- خالص الشكر والامتنان لشعب "الجوييم" العظيم.

لم يدرك فداحة ما فعل إلا حينما أبصر الشرر يتطاير من أعينهم، يتحسس أولهم سلاحه وقد انقبض وجهه واكفهر، فيما صاح الثاني مزمجرًا، أما مرافقته فقد دفعته بعنف آلمه وهي ترسل للمحاربين شكرها، ثم تسرع معه في المغادرة. توقفت بعد فترة لتهتف به ساخرة:

- أنا واثقة أن عقلك يعاني من خلل ما.. أنت أخرق بشكل لا يُصدق.

كظم غيظه وأفصح ببرود:

- لا أعرف لهم اسمًا غيره، إن تفضَّلتِ عليّ بذكر الاسم الصحيح لكنت استخدمته.



- هل أنت بالفعل نسيت كل شيء، أم تتظاهر بذلك؟

ازداد غيظه ولم يستطع أن يكبح جماح حدته:

- ولماذا أتظاهر.. ها؟

أجابت تفضح ما يساورها من شك:

- وما أدراني.

ثم أردفت:

- تظاهرك بأنك....

توقفت عن الاسترسال فجأة، شردت بقسمات جادة، لم يطق صبرًا على هذا الصمت، فقال بنفاذ صبر وهو يحدق في بوابة "مينورا" الشرقية القريبة من مكان وقوفهما:

- من الأفضل أن نرحل من هنا فرؤية "مينورا" يوترني.

- "باسطين"!

صرخت بها بوجهه، فنظر إليها مستفهمًا، أوضحت بغضب:

- هذه الأرض اسمها "باسطين".. إن قلت "مينورا" ثانية فلا شيء سيحميك من ردة فعلي والتي -صدقني- لن تسرك أبدًا.

قالتها وانطلقت في طريقها، رنا إلى قدمها التي وإن تحسنت إلا أنها لازالت توسم سيرها بعرج خفيف لا شك أنه مصدر ألم، قذف بعنف إحدى الحصوات، التفتت تحدق فيه فتلاقت نظراتهما، توقفت عن

السير وبدا أن لديها ما تود قوله، لكنها ترددت، ثم استكملت سيرها مرة أخرى.

التفت إلى بوابة "مينورا" للمرة الأخيرة. قبل أن يدخلا معًا إلى الغابة التي وصلا عبرها إلى "باسطين". كان عليهما تسلق الصخرة التي سبق للملك المقتول تسلقها أثناء هروبه من الحرب التي دارت رحاها فوق المكان الذي يجمعهما الآن. لم يكن ذلك شاقًا عليهما، جاور الصخرة عدة صخور صغيرة فوق بعضها البعض متباينة الحجم على شكل سُلم.

- لكِ اسمٌ ، أليس كذلك؟

رد عليه الصمت، فلم يُعقِّب. مرا على الصخرة التي اختبأ خلفها مع الملك، ومر بخاطره كيف أنقذه وقتها أنْ ظنه الملك بطله، وتأمل ساخرًا موقفه الآن، لم ينقذ حياته إلا ظن مرافقته أنه بطلها!

وبدأت الرحلة!

***



الملف الرابع عشر

أخفت "سُلاس" بجيب أمام بطنها، الكتلة العجينية التي أخذتها من "جادور" خلف قاعة الدفن. أثناء عودتها إلى مسكنها ناداها أحدهم قائلًا:

- "٥٥٠" تعالي هنا.

لكنها مضت في طريقها مسرعة دون أن تلتفت، فاندفع مع صاحبه وجذباها بقوة إلى حيث أرادا، وبقهر لا حد له لم تقاومهما وتركتهما ينتزعا منها كل ما شاءا. هرولت إلى مسكنها مرتعشة الأطراف، ترتجف أنفاسها بأنين يمزق طيات القلوب.

ما إن عانقتها جدران مسكنها حتى نفضت رأسها بقوة وكأنها تُفرغه من كل ما تكره أن يعلق بذاكرتها، وأخرجت الكتلة العجينية تحدق فيها، بلونها الرمادي ذي البذور البنية، لم تصبها لزُوجتها بأي نفور بل عمدت إلى ملامستها بشغف ككنز ثمين. اقتطعت منها جزءًا يقترب من الربع، وأخفت الباقي بزاوية مسكنها. دهنت بها جسدها كله بلهفة منفرجة الأسارير. انتهت من مهمتها فشرعت تنزوي إلى أحد الأركان وهي تعيد فرك جسدها ببطء. لن يقدر أحد غيرها قيمة ما تصنع، لن يفهم أحد دوافعها ولا رغباتها التي هي في أمس الحاجة إلى تلبيتها. ترك فرد يموت جوعًا لا شك أنها جريمة مستنكرة، ووصمة في جبين من يملك أن يقدم له ما يجنبه هذا المصير. لكن هناك احتياجات ورغبات تتمثل أهميتها للبعض

كأهمية الطعام والشراب، من يملك أن يُقِّيم احتياجاتها إن كانت ضرورية وحيوية كأهمية الحياة والموت؟

ترى أن إشباع حاجات النفس يفوق أحيانًا أهمية إشباع رغبات الجسد. لذلك لا أحد غيرها يستطيع أن يقرر ما المهم وما الأقل أهمية، هي وحدها تستطيع ترتيب هرم أولوياتها. فجسدها يخصها، وكيانها لن يشعر به سواها.

لا يقض مضجعها سوى ما اضطرت أن تقدمه نظير تلبية هذه الحاجة التي اقتربت فيها إلى حد الهوس، تعلم أن عليها كبح جماح نفسها وإلا ستوردها المهالك، عليها أن تقف بوجه "جادور" ليكف عن ابتزازها مستغلًا نقطة ضعفها، عليها أن تغلق بوجهه الأبواب، وأن تبحث عن وسيلة أخرى لتحصل بها على تلك العجينة العجيبة التي ستعيد لجسدها رونقه وشبابه، دون أن تضطر إلى أن تدفع لـ "جادور" الثمن من احترامها لتلك النفس التي تسكن جنباتها.

لكل شيء ثمن، ولكل فعل تبعاته، عليها أن تقف على التوازن الذي يحقق لها رغباتها، دون أن تخسر أشياء تمثل لذاتها قيمة حقيقية؛ لأنها ستفقد مع كل تنازل جزءًا من تلك الذات، وستصبح يومًا لتجد أنها لم تعد "هي"، وسترى على وجه الماء انعكاسًا لـ"هي" أخرى.. وهذا هو أبشع كوابيسها؛ أن تفقد تمامًا كل ما تعرفه عن نفسها.

ظلت عكرة المزاج طيلة النهار إلى الحد الذي دفع بها لنهر "حَبُوك" لتباطئه في جلب حجرٍ يعجبها، ويحتاج إلى الحفر في رمال الجهة الشرقية للعثور عليه، رغم علمها أن الأعمال الجسدية الشاقة لا تناسبه. وارى عنها ألمه، وجمع كل طاقته في أطرافه.

ظل ظليل، ونسيم عليل، وأريج الرياحين تتنفس عنها جنبات الغابة، فتؤثر فيهما المتعة بالرغم من وعثاء الرحلة، ووعورة المهمة.

أعدَّت الطبيعة بسحرها مقاعدًا فاتخذا منها مستقرًا ومقامًا.

تجلَّت رؤوس الأشجار حيث الهواء العليل بأزهار صغيرة، أما ظل أوراقها حيث الرطوبة فقد احتضن أزهارًا كبيرة بديعة، من كل جنس ولون.

مرا بصحبة من نبتة الأُقحوان طيبة الريح، دقيقة العيدان، لها نور أبيض كأنه ثغر جارية، يتوسطها قلب أصفر بهيج. ثم بالأوركيد المتنكرة في شكل إناث النحل، تخدع الذكر فيدنو منها لتطبق عليه بأوراقها، ولا تحرره إلا وقد حمَّلته بلقاحاتها فيطير بها ويرسو حمله فوق زهرة أخر.

لا يشوب صفاء صمتهما كدر، سارا طويلًا دون توقف، حتى كلَّت منهما الأقدام، وتجلَّى التعب. كانا أمام كساء خضري زاهي من نباتات البروميليا الهوائية، والتي لا تحتاج للأرض لكى تنمو وتزدهر، بإمكانها أن تشبث جذورها بسيقان الأشجار وجذوعها، وكذلك تفعل مع الصخور والتلال. ذهلت أعينهما بتنوع أشكالها فلزهرتها ألوان ساحرة، أبصر مرافقته وقد تسلقت إحداها، فأخبرها أن لا وقت لديهما للراحة، فلعل محاربي "ريشَع" في أثرهما الآن، فأجابته بأنهما يحتاجان إلى شرب الماء. اقتربت مرافقته من أحد مئات الصهاريج التي تحملها الشجرة الضخمة، والتي تحتفظ فيها بالمياه عن طريق سحب الرطوبة من الهواء! لم يدهشه التكوين البديع للشجرة بقدر ما أدهشه أن تعرف مرافقته هذا القدر من المعلومات عن الغابة وسُكانها من الشجر.

أبصر من مكانه النهر الأسود شمالًا، يوازي الغابة ويسير معها جنبًا إلى جنب كصديقين حميمين. دفعه فضوله إلى أن يسألها لماذا لم يتخذا من النهر معبرًا للجانب الآخر بدلًا من الغابة، فأجابته بسخرية التقطتها مسامعه فورًا:

- وكيف برأيك سنعبر المياه؟.. ثم أظنك لا ترغب في ملاقاة "كلب النهر".

وكما توقعت سألها بفضوله عن ماهية هذا الكلب النهري، فأجابته وهي تستمتع بإخافته:

- سمكة ضخمة، فمها مليءٌ بالأنياب الحادة، أكبر وأشرس سمكة قد تراها في حياتك. صحيح أنني لم أر في حياتي سمكة غيرها، لكن أؤكد لك أنها آخر من ترغب في التعامل معه.

ألقى نظرة أخرى على النهر لكن هذه المرة بشيء من الخوف. شربا حتى ارتويا وامتلأت بطونهما، فنزلا من فوق الشجرة، وعندما حاول مساعدتها رفضت ذلك بحزم.

- لم تُجيبيني بشأن اسمك.

- البنفسج العطري!

- البنفسج العطري!.. مممم.. اسمك غريب لكن...

- يا أخرق.. أقصد هذا النبات.

لم يسأل لماذا سُمي هذا النبات بالبنفسج العطري، فببساطة ألوانه متدرجة من زرقاء إلى بنفسجية وشذا عطره فاح في الأرجاء. استمتعت به

حواسها منتشية، وهي تقتطع بعض وريقاته واحتفظت بها في جيبها، لاحت على وجهها البهجة وهي تهتف بجزل مُحبب:

- هناك شخص أعرفه يحبه كثيرًا، نطحن هذه الوريقات ونخلطها بالماء، ثم نصنع منها شايًا عطريًا لا مثيل لروعته.

حاول أن يُبدي الاهتمام لقولها، لكن في الواقع لم يدر ما المميز في خلط زهرة بالماء حتى يبدو وجهها بمثل هذا الإبتهاج!

ساعة أخرى من المسير قضت على قوتهما فاستراحا تحت ظل شجرة يتشاركان في الطعام الذي تزودا به قبل رحلتهما. ثم استكملا المسير مرة أخرى حتى أقبلا على جدارٍ مرتفعٍ من الصخور، فنظرت إليه مرافقته بقلق وهي تقول:

- لقد وصلنا.. هذا الجدار يُمثل نهاية أرض "باسطين".. ومن خلفه جدار يمثُل بداية أرض "النسر".

انفرجت أسارير "القزم" وهو يستعد لتسلقه، لكنها جذبته بسرعة تستوقفه، فرَنا إليها مستفهمًا وهو يحرك رأسه، قالت بجدية بالغة، وفي عينيها مسحة خوف:

- بين الجدارين يعيش "البنغول".

- "البنغول"!

أشارت إليه ليتسلق بحذر الجدارَ الممهد لموطئ أقدامهما. قفز قلب "القزم" فزعًا، شخص بصره حيث الحيوان الضخم الذي احتل الممر الوحيد الذي يصل بين الجدارين، وأسفل الممر بركة تَغطَّي جُل سطحها بالطحالب. أمعن النظر متفحصًا في الحيوان الذي اكتسى كل جسده

بالحراشيف التي تشبه درعًا واقيًا، له مخالب ضخمة جدًا، فمه الخالي من الأسنان ورأسه يُشبهان معًا خرطوم الفيل، تطوق رأسه أذنان صغيرتان، وعينان دقيقتان. أخبرته مرافقته أن "البنغول" لا يرى بوضوح، ويملك حاسة سمع ضعيفة، إنما يصطاد فرائسة عبر حاسة الشم حيث يُبقى أنفه ملامسًا للأرض! لسانه طويل جدًا مُغطًّى بأشواك صغيرة، وطبقة لزجة من اللعاب لتسهيل مهمته في الإمساك بفرائسه، رنَا إليها مستفهمًا وقد انقبض قلبه، وتشنَّجت أطرافه:

- ولماذا لا نعبر البركة عن طريق هذه الطحالب.. ها؟

- لأنها سامة.. لمسة واحدة منها تسبب شللًا بالأطراف ينتهي بالموت.

نزل أرضًا وهو يصيح بها:

- هذا جنون!.. لن نستطيع أبدًا المرور أمام هذا الحيوان البشع.. سينتهي بنا الأمر كمقبلات شهية بمعدته.

- الأمر الجيد أن "البنغول" مُقيد.. ببعض التمويه والحذر نستطيع تجاوزه.

قالت ببرود، فأفصح محتدًا:

- وماذا يفعل هذا البشع المُقيد هنا؟

- إنه حارس ما بين المملكتين، ليمنع العبور بينهما.

- لماذا..ها؟!

أجابه الصمت، تسلَّقت الجدار لتلقي عليه نظرة طالت حتى تملَّك منه الملل، نزلت وأخبرته بخطتها، إذ سينتظران حتى ينام "البنغول" ثم يمران

بجانبه، لكن يجب أولًا حجب رائحة جسديهما برائحة أخرى للتمويه حتى لا تلتقط أنف "البنغول" رائحتيهما. ودون أن تنتظر رأيه بخطتها تركته وراحت تبحث حولها، حتى غدت مغتبطة وهي تخبره بلهفة أنها عثرت على شجرة بَلَسان مورقة، تحوي دهنًا عطرًا، عمدا إلى دهن جسديهما بحَبها حتى فاح منهما أريج ذكي.

لم يزل القلق يساوره، والخوف ينشب براثنه في قلبه، لكنه مُرغمٌ!

انتظرا حتى استكان "البنغول" واستسلم للنوم، فتسلقا الجدار والحذر ثالثهما.

***

الملف الخامس عشر

سَلَبه الأرقُ راحةَ البال، لا تزال مشكلة إيجاد الخائن تؤرِّقه، لا يخاف على نفسه، فلها عنده منزلة أدنى من أن يبذل الجهد ليصونها. أما "سُلاس" فقد حازت من خوفه الحظ الأوفر. وجمت السماء بوجهه تُمطره بالسهاد، فروى به شغفه إلى استكمال تجاربه التي لم تدل النتائج بعد على تمكنه من بلوغ مراده منها. عمد إلى حجر بمسكنه يستل من خلفه ما واراه عن الأعين من مواد تجاربه، معمل خاص به أخفى أمره عن الجميع، إلا العزيزة "بِنان" التي اكتشفته بغير قصد، شجعته بابتسامة حنون حتى ظن بنفسه خيرًا.

فلا يزال يخلط هذا بذاك حتى أشرق الصبح. ورغم الخيبة التي حفَّت تجاربه ككل مرة، لكن عزمه لم يذوِ، وجهوده لم تفتر. هكذا تعلم من أخيه الأكبر المُداوي قبل موته؛ ألا يسمح لليأس أن يدب بقلبه، اليأس هو السلاح الأشرس الذي يجب أن يحاربه خلال معركته مع النجاح، كان يرى النجاح خصما ذكيا، يراوغه ويبارزه لئلا يستحوذ عليه، باليأس حينًا، وبالكسل والجهل والضعف أحايين أخرى. لكنه عزم على أن يُكمل من حيث توقف أخوه، ولن يهنأ حتى يجد التركيبة المناسبة لهذا الدواء الذي سيقذف بدوي الفخر بقلب "سُلاس". لن يعود مجرد "حَبُوك"، بل سيصير "حَبُوك" الذكي الذي حقق لشعب "النسر" معجزة الشفاء. فبهذا الدواء ستنبت للجميع عيون في الفراغ المظلم الذي يشوه وجوههم،

ويسلبهم حق العيش في الكهف الفسيح كسائر الأمراء. سيستأثر من نفس "سُلاس" أعلى المنازل، ويرفل في نظرات إعجابها، منتشيًا بثنائها. ستراه "سُلاس"، ولعلها تتمكن أيضًا من قراءته، مثلما يراها ويقرؤها.

أمسك بقطعة عجينية طيبة الرائحة، كان يواريها خلف الصخرة. قبض عليها بقوة كمن يقبض على كل لحظات عمره القادمة في كفه، مخافة أن تُفلت منه ثانية واحدة. فهذه هي تذكرة نجاته غدًا في احتفالية "الفداء الكبير"!

***

رغم علمهما أن "البنغول" ضعيف السمع إلا أنهما سارا ببطء فوق العشب متفاديين خشخشة خطواتهما. وما إن اقتربا منه بمسافة كافية، حتى استيقظ فجأة من غفوته، وهَجم عليهما. ضجَّت صرخاتهما تُعكر للغابة صفو سكونها، و"البنغول" يحرث الأرض بشراهة ليلتقطهما طعامًا لمعدته التي تزأر بالجوع. كادا ينشق قلباهما من الرعب وكل منهما يُهرول متعثرًا في اتجاه الجدار الآخر.

- كيف اكتشف أمرنا.. ألم تقولي أنه ضعيف السمع والبصر.. ها؟!

- يبدو أن العطر لم يكن كافيًا.. انتبه إنه خلفك!

عندها ارتفعت أصداء صرخاتها أكثر، فالتفت" القزم" إليها ملتاعًا و"البنغول" يحاصرها بقدمه اليسرى فيما تنقض مخالبه لتنهشها، بالقرب من حافة الممر التي تُفضي إلى البركة المغطاة بالطحالب السامة. وصل "القزم" إلى الجدار الذي يفصله عن مملكة "النسر"، عندما انشغل "البنغول" بملاحقة مرافقته. طاشت مخالب "البنغول" في الهواء

ولم تُمسك بها، فقرَّب فمه منها، ذلك الفم الذي انفتح أمامها كظلمة "النهر الأسود" الذي يخيفها، بأسنان قاطعة كحدة أنياب "كلب النهر" التي اعتادت أن تراها تنهشها في أسوأ كوابيسها. أعمل "القزم" نظره فيما حوله فلم يجد ما يدفع به "البنغول" عنها، لم يجد سوى صرخاته وهو يهتف به أن يبتعد عنها، وكأنها كافية لردع الحيوان المفترس!

أيقنت أن الموت قادمٌ، لكنها لم تتقبل أن ينتهي جسدها متحللًا بالإنزيمات الهاضمة بمعدة "البنغول"، ألقت نظرة على البركة، نظرة كافية لتقرر أن الموت بالسم سيكون أقل الموتتين بشاعة، وفوق ذلك ستحرم هذا "البنغول" من اللذة التي ينتظرها. فقفزت إلى البركة ليصيح "البنغول" بغضب هادر، وقد خسر هذا الجزء من عشائه.

خانته أقدامه فكاد أن يسقط من فوق الجدار، لكن التفات "البنغول" صوبه جعله يتسلقه مسرعًا ليخطو أولى خطواته فوق أرض مملكة "النسر". وحيدًا متكئًا إلى الجهة الأخرى من الجدار تعالت دقات قلبه، بات ما يستقر جنانه من فزع المصير الذي لاقته مرافقته. ضاقت عليه المسالك، وانقصمت عُرى آماله فلم يحرك ساكنًا، وللمرة الأولى يشعر أنه بات لا يملك دمعه، فترقرقت واحدة لا يدري إن كانت حزنًا على مرافقته التي فقدها، أم قهرًا لعدم تمكنه من إنقاذها، أم جزعًا مما هو آت، وما عليه أن يواجهه بمفرده في أرض غريبة كل ما يعرفه عنها أنه واحدٌ من أبنائها.

لم تُفزعه صيحة "البنغول" الغاضبة من خلف الجدار، لكن ما قذف كل رعب الدنيا في قلبه، هو السقوط المدوي لهذا الجسد الثقيل تمامًا فوق رأسه، فانطلقت عقيرته بصيحة هادرة!



- آسفة، فقدت توازني.

- أنتِ.. أنتِ..!!!

تلجلج حديثه فلم يستقم لكلامه معنى، حدَّق بها مندهشًا وهي تزيل البلل عن جسدها بأوراق شجر تفترش الأرض، رنت إليه بعينها الوحيدة بغضب لم يحجبه صوتها:

- شكرًا لك لإنقاذي!

- هل أنتِ.. ماذا تقولين.. أنا لم أكن.. انتظري لحظة، كيف كنت سأنقذك من هذا "البنغول" العملاق؟!

- دعك من هذا.

ازداد ضيقه، فأردف محتدًا:

- لن أفعل، لقد سخرتِ مني وكأنني تقاعست عن مساعدتكِ.

قالت وقد وتعاظم غضبها:

- لو كنت مكانك لسعيت لإنقاذك، هذا ما نفعله مع رفقاء المهمة، لا أن نتركهم وسط الخطر لنهرب بحياتنا.

- لم أهرب.. لقد حاولت.. لقد صرخت عليه و...

- رائع، عظيم، إذن دعني أقدم لك خالص امتناني من أجل صراخك!

- هذا كله سخيف، أتعلمين، أنتِ أكثر من قابلتهم تقلبًا في المزاج.

***

باتت الأشجار أقل كثافة، فاتسعت رقعة السماء من فوقه تشي بألق نجومها، تجاذبته أحاديث المنى، فطافت به حيث الدفء والأمان والطعام الوفير، وصحبة يألفها وتسكن إليها نفسه، تساءل هل كانت حياته الماضية أقل خطرًا وأكثر استقرارًا، أم أنها على الوتيرة نفسها من التذبذب؟ هل يفتقده أحد؟ هل يشتاق إليه أهل أو صاحب أو شريكة درب؟ هل سيعثر على ذكرياته الهاربة بأرض "النسر" أم سيظل أبد الدهر ظلًّا بلا ملامح؟ و"ريشَع"؛ هل نسي أمره وأخرجه من حساباته أم أن رغبته في الانتقام ستطاله ولو بعد حين؟

مسَّته الحيرة إلى الحد الذي لو تُرِك له حق اختيار مصيره فسيقف عاجزًا عن اتخاذ قرار، فعادت نفسه لتتساءل هل حقًّا يملك اختيار مصيره، وإن لم يكن لحقها مالكًا، فمن الذي يملك عليه سُلطة الاختيار؟

تأمل ورقة شجر قررت أن تقطع مشيمة حياتها وتبرح عنق جذعها لتتخذ من الأرض ضريحًا لها، فراوده السؤال نفسه بشأنها، هل ملكت سُلطة اختيار مصيرها، أم أن قوة خفية دفعتها لتفعل، هل أرادت فتحققت مشيئتها، أم استسلمت لرغبة سُلطة غامضة تملك المشيئة؟

- استمر، بقى القليل.

أعمل سكينه في ورقة الشجر الكبيرة بعزم طاقته، اختلس النظر إلى مرافقته التي تعينه هي الآخرى بسكينها، كادت همتهما أن تفتر من التعب، لكن الظمأ دفع بهما إلى بذل طاقتهما، حتى تفتَّحت عين لبن شهي، من الفتحة التي صنعاها بالورقة الضخمة لشجرة "البَشَام" طيبة الريح بلا ثمر. انفرجت أساريرها وبجذل الصغار صاحت صيحة فرح، ثم انقضت على العين التي أهرقت سائلها ترتوي متلذذة، أبعدت رأسها بعد حين

وعينها تدعوه ليفعل مثلها، استغرقت حواسه في لذة مذاقه، حلو، به قليل من الحموضة، ودسم الطعم، تمامًا كاللبن.

- تعرفين كل أشجار الغابة كأنكِ تعيشين فيها!

- طبيعي بالنسبة لمزارعة.

توقف عن الشرب لينظر إليها بدهشة بالغة، فطنت إليها فسألته:

- ما الغريب في ذلك؟

- لا أعرف كيف تبدو المزارعات لكن لا تبدين لي كمزراعة، أنتِ أشبه بمحاربة.

ندم فور انتهاءه من جملته مخافة أن يغضبها، لكنها -ولدهشته- ندّ وجهها عن ابتسامة ساحرة، ارتبكت للحظة وعادت لتشرب، ثم رفعت رأسها ليحذو حذوها. سألها:

- قلتِ أن الطحالب سامة، ثم اتضح أنها ليست كذلك.

أطلقت تنهيدة حارة، ثم قالت وهي تعقد جبينها:

- لقد كذبوا علينا.

- من؟!.. ها.

قالت بنفاذ صبر:

- من برأيك!

حل الصمت ضيفًا فرحبا به. ماجت رؤوس الأشجار، وهبَّ النسيم بحدة، كأنما يبثها نجواه؛ فتجيبه بحفيف أوراقها.

- "بِنَان".

حرك رأسه بفضول مستفهمًا بالهيئة التي ألفتها منه، فمر بعينها طيف ود لم يألفه منها، ثم أردفت:

- إنه اسمي.

***



الملف السادس عشر

ودَّ فقط لو اهتمت بسؤاله إن كان يملك ما يُفدي به نفسه اليوم في احتفالية "الفداء الكبير". لكنها كما لو كانت لا تهتم إن عاد سالمًا أم خسر المبارزة أمام خصمه منتهيًا به الحال إلى أن يُتخذ عبدًا. ظن أنها بدأت توليه اهتمامها، رأى ذلك في ردة فعلها عندما قبض الجلاوزة عليه، لكن ها هي تعود إلى سيرتها الأولى معه، تعامله كأنه هواء، أو أقل. لم ينجح في كل المبارزات السابقة في احتفالية "الفداء الكبير" إلا بفضل العلم الذي حفظه عن أخيه قبل موته، ولولاه لانتهى به الحال سريعًا في حظيرة خصمه، في انتظار لحظة بيعه إلى أحد أفراد الشعب، أو الأسوأ.. أحد الأمراء!

"سُلاس" التي لا تملك ما تخسره، لن تأخذ هذا اليوم بالأهمية التي يفعل بها كل أفراد شعب "النسر"، و"حَبُوك" الذي يملك نبعًا لا ينضب من العلم لن يخشى مصير مبارزة اليوم، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يستطيع قبل كل احتفالية أن يمنع رأسه من التفكير في أولئك الذين لا يملكون ما يفدون به أنفسهم. يعلم أن الطبيعة هي التي اختارت، ووضعت كلًّا منهم في المكان الذي يقف فيه الآن، يعلم أن قانون العبثية هو المعنى الأكبر لرغبات الطبيعة ونزواتها، وتسييرها لشئون الحياة. لا أحد يستطيع أن يجابه الطبيعة بالوقوف ندا لها، أو مجرد إبداء تذمر لن يؤثر على خياراتها في شيء.

- "داامووس".. هل تملك ما تفدي به نفسسسك اليوم؟.. أأستطيع مساعدتك.

- هذا ما ينقصني.. أتقبل مساعدة أحدب وضيع، مُدنَّس بخطايا غيره، لا يستطيع أن يُتم جملة واحدة دون تعلثم.

وجمت قسماته، وتجلدت عينه لحبس ماء المذلة. أبصر في قسمات "داموس" اضطرابًا لم يعهده، ولذلك شعر بنفسه مدفوعًا لسؤاله. لم يخفَ اضطرابه أيضًا على "سُلاس" التي لم تجد سوى "حَبُوك" لتبوح له بظنها:

- أظن أن "داموس" سيخسر مبارزة اليوم.

- حاولت مساعدته.

- لا تحاول.. فلعل الطبيعة اختارت له هذا المصير لينكسر غروره؛ هذا المتعجرف.

انتبهت إلى اضطراب "داموس"، واحتجبت عينها عن خلجات "حَبُوك" التي تشي بعظيم أمره.

اصطف شعب مملكة "النسر" بصفوف متوازية فوق التلة الحمراء، كل فرد يعرف مكانه مسبقًا. بدأت عادة احتفالات "الفداء الكبير" منذ كارثة "الانفجار العظيم" الذي عاث في أهل المملكة تقتيلًا، وترك لهم ندوبًا لم تبرأ حتى اليوم. ومنذ تلك الكارثة تغيرت قوانين المملكة، ونشأت حياة جديدة في عالم فريد. يوما بعد يوم استقرت القوانين الجديدة في القلوب، اتفق عليها الجميع بغير اتفاق مكتوب. تركوا الكهف الذي كان يجمعهم للملك وحاشيته ومحاربيه الأشداء، ولكبراء المملكة من ذكورها

وإناثها، واتخذ الشعب من السُكنى تحت الأرض مأوى لهم. ضحى ذوو الرفعة والمكانة بأمانهم الشخصي لحماية الشعب، حتى إذا ما تعرضوا لكارثة أخرى كانت الصفوف الأولى للقتلى من بينهم.. فأي فداء أكبر وأعظم من ذلك!

بدأ الاحتفال الذي يتكرر مرة كل عشرة ولادات للشمس، بكلمة ألقاها "راعون" قائد جلاوزة مملكة "النسر" ختمها بكلماته التي تروي بذور الفخر:

- ولنهتف جميعنا بشعار مملكة "النسر" التي نفخر بها دومًا.

ردد الجميع الشعار معًا، وبكثير من البهجة:

- "النسر أولًا.. نسر دائمًا".

بدأ الجزء الخاص بتضحية الشعب من احتفالية "الفداء الكبير" بالطقوس التي يعرفها الجميع عن ظهر قلب، وبالترتيب الذي اعتادوه دومًا، كل فرد من الشعب له رقم متسلسل يحفظه جيدًا، والشعب مقسم إلى فريقين حسب تسلسل الأرقام، أرقام فردية يقابلها أرقام زوجية، كل فرد ذي رقم فردي يقف أمامه مُبارزه ذو الرقم الزوجي. وفي كل احتفالية يأتي دور أحد الفريقين لتقديم الأضحية التي سيفدي بها نفسه. الاحتفالية الماضية كانت من نصيب الأفراد ذوي الأرقام الفردية، ولذلك فالدور في احتفالية اليوم على الأفراد من ذوي الأرقام الزوجية. يجب على كل منهم تقديم أضحيته، من طعام أو شراب أو أي شيء يحمل قيمة مادية أو معنوية. وكلما زاد حجم الأضحية زادت رفعة المُضحِّي وارتقت مكانته في القلوب.

هكذا تتم المبارزة، كل فرد يحاول تقديم أفضل ما عنده لينال مكانة أسمى في قلوب الجميع، ليس في قلوب الشعب فحسب، بل كذلك قادة وأمراء المملكة الذين يحثونهم على التضحية. كيف لا وهم أكثر المُضحِّين شجاعة وإقدامًا، يبذلون حيواتهم وحياة ذويهم ويعرضونها للخطر بالسُكنى فى الكهف حتى يهنأ الشعب بأمان مساكنه تحت الأرض!

استقر "حَبُوك" في مكانه أمام الفرد الذي اعتاد مبارزته وتبادل الاثنان بسمة وَدود، قدَّم له "حَبُوك" العجينة العطرية التي صنعها بنفسه، تعمَّد أن تكون صغيرة الحجم، حتى لا يُكبِّده مشقة رَد الأضحية الكبيرة بمثلها في الاحتفالية القادمة. سرى بينهما هذا الاتفاق الضمني ووقعه الاثنان بنظراتهما منذ بدء النزال بينهما، ألا يُكبِّد أحدهما الآخر مشقة لا يقوى على حملها، ولتكن أضحياتهما أمام بعضهما صغيرة تحفظ لكليهما ماء الوجه، وتراعي قصر ذات اليد.

أطلق "حَبُوك" نظراته على "سُلاس" التي وقفت على مقربة من مكان "داموس" الذي يبعد عن مكانه بعشرين رقم. ترقبه باهتمام فضحته نظراتها، بدا عليه توتر كبير لم تعتد طبيعته الكتومة أن تُظهره، فأحست "سُلاس" بعظم الخطب الذي ألَمَّ به، لكن خالط ذلك شعورها بتَصنُّع انفعالاته!

لم يكن المبعث الأول لاهتمامها "داموس" نفسه، بل مبارِزه والذي لم يكن سوى "جادور". لا تدري من منهما تتمنى خسارته أكثر كصفعة على وجهه. تلك هي المرة الأولى التي يتبارزان فيها أمام بعضهما البعض. كان خصم "جادور" في المبارزة حسب التسلسل الرقمي هي "بِنان"، لكن من بعد إلقائها في "فم النار" بعد آخر احتفالية، مُنح لـ "جادور" حق اختيار

خصمه، منحته تلك المزية المكانة التي يتمتع بها بين الجميع. فطن الجميع إلى أن اختياره وقع على "داموس" –الذي يحظى الآن برقم أخته- من أجل الانتقام من "بِنَان" التي كادت أن تُذيقه مر الهزيمة مرات ومرات، ف "داموس" لا قِبل له بطبيعة النزال الذي كان دائرًا بين أخته و"جادور"، فلم تكن مبارزتهما على المستوى نفسه الذي يتبارز فيه معظم أفراد الشعب، ولا حتى بكيفية نزال "حَبُوك" لخصمه، بل ارتقت من مستوى الحفاظ على النفس بإفدائها حتى لا يتخذ الخصم منه عبدًا له إن لم يجد ما يقدمه له كأضحية، إلى مستوى يبحث فيه كل منهما على مكانة أعلى، بإثبات تفوقه على الآخر.

لم تخش "سُلاس" على أيهما أن تنتهي به المبارزة ليكون عبدًا للآخر، فهي تعلم أن كليهما يملك ما يفدى به نفسه، لكن الخسارة ستتمثَّل في من منهما سيفشل في إثبات تفوقه بتقديم أضحية أكبر.

الاحتفالية الماضية ضحَّت "بِنَان" بكمية كبيرة من فِطْر نادر، يزن حجم الفِطْر من "جادور" الوزن نفسه! يومها أخبرتهم بفخر واعتزاز أنها استزرعته في قاعتها الزراعية. فاتسعت أعين الجميع دهشة ، أن نجحت في إنبات هذا الفِطْر تحت الأرض. اليوم تراءى لـ "سُلاس" أن "داموس" يخشى خسارة المكانة التي وصلت لها أخته، بعدما نازلت "جادور" لفترة نزالًا ضاريًا.

لم يبق سوى ثمانية أفراد ثم يأتي الدور على "جادور" لتقديم أضحيته، ودَّت لو ظلَّت بمكانها لم تبرحه إلى أن ترى ماذا سيُقدم "جادور" وكيف سينتهي نزال اليوم، لكن التفات "داموس" إليها وهو يهتف بخبث:

- لماذا لا تشاركيننا النزال يا "سُلاس"؟

أسرى الغضب كالنار في خلاياها لهذه المهانة، وكأنه لا يعرف لماذا لا يُمكنها المشاركة أبدًا في احتفالات "الفداء الكبير"، فولَّت مدبرة بقوة سهم انطلق من قوسه، وهي تتمتم على رأس كليهما بأشرس اللعنات، وبأفظع البلايا والرزايا. حادت عن اتجاه مسكنها وقد راودتها فكرة إضفاء بعض التعكير على مزاج "داموس" فتوجَّهت رأسًا إلى مسكنه، وأفكارٌ كثيرة تتقافز في رأسها. لم تكد تدخل مسكنه الذي اقتحمته عنوة حتى أطلقت شهقة فزع هائلة، ثم هتفت بصوت حمل كل الدهشة واللوعة:

-"بِنَان"!!

***



الملف السابع عشر

((في الليلة السابقة))

انطلق "القزم" يقتفي أثر "بِنَان" باذلًا جُل طاقته. حتى رنَا بطرفه إليها مهرولة قبل أن تحجبها عن نظره إحدى الشُجيرات. ناداها صارخًا:

- "بِنَان" توقفي.. أرجوكِ.

لم تمتثل لأمره واستمرت في العدو. قفزت ذاكرته القصيرة إلى قبل ذلك بساعة فحسب، عندما أخبرته باسمها وسألته عن اسمه. ألجمه الغضب الذي تبدَّى على وجهها، وهي ترمقه بإزدراء وتلومه أن سمح للحقير "ريشَع" –كما وسمته- أن يُلقِّبه بـ "القزم". ثم فارقته مغادرة مجلسهما فوق الشجرة واستلقت فوق العشب. رمقها للحظات لم تطل، ثم عاد ليشرب من لبن شجرة "البَشَام". شعر أن الاحتكاك الذي تتسبب به ضمادة عينه لم يعد محتملًا، فنزعها بقوة أسرت الألم بجسده، فسبَّ المُداوى الذي استخدم مادة لاصقة بهذه القوة لتثبيت الضمادة فوق عينه، لكن الغبطة حلت محل سخطه إذ بعد تشوش في الرؤية لم يدم طويلًا استطاع أن يرى بها بوضوح، فتهللت أساريره.

نزل أخيرًا من فوق الشجرة لينظر أي موضع سيتخذه للراحة قبل أن يستكملا طريقهما إلى مملكة "النسر". تحركت من مكانها وسارت باتجاه شجرة "البَشَام" لتستكمل شربها، وعندما تلاقت أعينهما رأى بعينها رعبًا لم ينبثق عنها وهما في أشد لحظات رحلتهما خطورة. وقفت جامدة لبرهة

استدعت في نفسه كل الحيرة، ثم هتفت بجملة واحدة قبل أن تنطلق مهرولة بغتة وقد تشرَّبتها حمى الهلع:

- لقد خدعتني!

ظَل يلاحقها ما يقرب من الساعة، كشفت له عن سرعتها، ورشاقة قدها، قلَّت الأشجار كلما توغل مقتربًا من مملكة "النسر"، مما سهَّل رؤيتها أمامه تسبقه بمسافة تزيد وتقل. كان يمر على هياكل لها شكل الأشجار لكنها من الإسمنت، اتحدت لتصنع جبلًا شاهقًا، فتعجب غاية العجب من هذا الجبل الأسمنتي، ولو كان يملك وقتًا لأدام فيه النظر متفحصًا. حتى لاح له النجاح وقد اقترب منها بمسافة تدفعها لسماعه، فصرخ عليها مرة أخرى أن تتوقف عن الركض وتتحدث إليه، لكنها لم تول لمطلبه اهتمامًا. حتى تمكن أخيرًا من الإمساك بها في المساحة المكشوفة الخالية من الأشجار، وقد باتت الأرض أمامه صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، يخترق جسده من الليل برودته، ومن الظلام حدته، وتنغرس أقدامهما في رمال ناعمة غزيرة.

- "بِنَان" توقفي عن ضربي.. اهدأي.. "بِنَان".. آآي.

لم يُسكِّن رجاؤه من هياجها، وبحركة سريعة من جسدها كانت سكينها فوق رقبته تنغرز فيها إلى حد بلغ به من الألم ما حثَّ أطرافه على ردة فعلٍ أكثر شراسة، فوكزها ببطنها بقوة حتى أفلتت رأسه متألمة لموضع الضربة. حلَّ التعب بالاثنين حتى بدا شجارهما يسري بخمول، يبعث على الضحك أكثر مما يبعث على القلق. لاهثًا قال:

- أنتِ.. شرسة.. جدًا.. توقفي وتحدثي مثل.. مثل شخصٍ ناضجٍ.. آآه.

ألقمته بحجر اصطدم برأسه فأحدث فيها جرحًا، تلمَّس موضع الضربة متألمًا ثم نظر إليها بغضب تأجج بصدره. انحلت عقدة صبره، وتداعت حصون شهامته، وقبل أن تهرب قيَّدها بعنف دون أن يبالي بألمها، بل استعذب أن يؤلمها كما آلمته. رشقَته بالسُباب دون أن تتوقف عن المقاومة، لم تجب على أي من أسئلته، لكن كلماته الأخيرة استفزتها بشدة حينما قال معاتبًا:

- كنت أظن أنه يمكنني الوثوق بكِ.

انتفضت صارخة:

- أنا من يجب أن تقول هذا الكلام.. لقد خدعتني.

قال وهو يغلي من الغيظ:

- لم أفعل.. لم أفعل.

- أوقعتني في الفخ لتسلمني إلى "راعون" ليقتلني أو لعيدني إلى "ريشَع".

- لم أفعل.

- لقد وثقت بك وساعدتك على الهرب من "باسطين".. ولم أتخيل للحظة أنك أحد الذين ألقوا بي هناك.

- لم أفعل.

- لا تستمر في الكذب.

- توقفي إذن عن اتهامي بما لم أفعل.. أعطيني دليلًا واحدًا على أنني فعلت ما تقولين.

نظرت له بازدراء، بصقت فوق عينه اليسرى وهي تهتف ببغض وحقد ملء قلبها حتى أفاض:

- هاك الدليل يا أمير"النسر" –دام عُلاه-!

شلَّته المفاجأة، خفَّت قبضته حول أطرافها، وقبل أن يتخذ ردة فعل أفلتت نفسها مهرولة مرة أخرى مبتعدة عنه، لكنها لم تستطع الابتعاد كثيرًا، إذ فوجئت بثلاثة من الجلاوزة يلتفون حولها ويقيدونها بعنف. كاد قلب "القزم" أن يتصدع، شعر بنبضاته كما لو كان عزفها بالقرب من مسامعه، كان غضبه منها وحنقه عليها أكثر من أي وقت مضى، لقد أوقعتهما برعونتها وعنادها في هذا المأزق.

- هل أنت بخير يا أمير"النسر" –دام عُلاه-؟

تطلَّع بنظراته الدهشة إلى الجلواز الذي وقف أمامه متفحصًا جُرح جبهته، نقل بصره منه إلى "بِنَان"، ففاضت عينها بكره دفع بالحزن إلى قلبه. أثاره اللقب الذي خوطب به.. "سمو الأمير!"، لم يخطر له ذلك في شطحات خياله ولا نزوات أمانيه. أيقن أن نجاتهما مرتهنة بقدرته على ارتداء العباءة التي يراه فيها هؤلاء الثلاثة، لكن رغمًا عنه خرجت كلماته مضطربة، وسرت رعدة في أوصاله وهو يخبر هذا الجلواز ألا يقلق بشأنه، ثم طلب منهم أن يدعو "بِنَان" التي التوت أطرافها أسفل جسدها في وضعٍ مَرآه فقط مبعث للألم والاختناق. حلَّت الدهشة فوق وجه الجلواز وهو يخبره أنه وزميليه سيتكفَّلون بنقلها إلى حيث شاء مخافة أن تؤذيه مرة أخرى. فتنحنح وبقدرة أكبر على صبغ كلماته بالأمر الأرستقراطي قال:

- قلت دعوها.. سأتولى أمرها بنفسي.

لم يجد الجلاوزة بُدا من النزول إلى رغبته، والانصياع لأمره. انصرفوا ولايزال القلق يساورهم، لخروج أحد الأمراء في هذا الوقت من الليل إلى العراء بلا حراسة، وبصحبة واحدة من الشعب، وتجرُئِها بالانقضاض عليه كما شهد على ذلك ثلاثتهم.

لم يُذهِب تصرفه بنظرات البغضاء من عينها، لكنه بالتأكيد دفع بجواره قلق لم يقل عما استشعره الجلاوزة، الذين بدت أجسادهم الآن كظِلال بلا هوية تُفرِّق بينهم وبين أمير أو غفير!

- لن تستطيع أن تخدعني بذلك.

رغم دهشتها مما فعل إلا أنها لم تجد في نفسها مبررًا يدفع بها إلى الثقة في واحد من أمراء مملكتها، صاحبها طوال رحلة هروبها وهو يخفي ذلك عنها. دَكَّ التعب جسده إلى الحد الذي حرَّضه على افتراش الرمال، تطلَّع إليها قائلًا:

- اسمعي، أنا لا أريد سوى أن أفهم، من أنا، هل حقًا أنا من تظنونني إياه، ولماذا تبغضيني إلى هذا الحد، هل تقابلنا من قبل، هل سببت الأذى لكِ أو لغيركِ؟

اشتد هجير آلامها، هدَّها الإرهاق فأسقطت جسدها هي الأخرى فوق الرمال، عضَّ بطنها الجوع والتهب جوفها عطشًا، أجابته بشك واضطراب لم توارهما:

- هل أنت حقًا لا تذكر أي شيء؟.. أي شيء على الإطلاق؟

هز رأسه إيجابًا. تحاملت على نفسها لتنهض وهي تقول له بحزم أن عليهما أولًا مغادرة هذا المكان مخافة أن يعود إليهم الجلاوزة مرة أخرى.

سارا لوقت ليس بالطويل، حتى وجدا هضبة من الرمال، يحوطها فضلات الطعام والأوساخ، تواريا خلفها، كانت آخر ما استطاعت أقدامهما حملهما إليه. نظر إليها مستفهمًا، ظن أنها ستُسهِب في شرح كل ما استعصى عليه فهمه، لكنها قالت باقتضاب قبل أن تُسلم نفسها للراحة:

- الشيء الوحيد الذي بإمكاني أن أخبرك به، نعم أنت واحدٌ من أمراء مملكة "النسر"، ولقد حكمتم عليّ وعلى أخريات غيري بأننا بذرة شر، وأفهمتم الجميع أنكم ستلقون بأولئك الأشرار داخل النار التي تتغذى على أمثالنا، لكن الحقيقة المُرة هي أنكم تُقدمون إناث شعبكم هدايا لمحاربي"رِيشَع".. هل تعرف ما معنى ذلك؟

كان مأخوذًا بحديثها، وبما تلقيه على مسامعه من معلومات تمزقه الحاجة إليها، هزَّرأسه نفيًا ببطء، فأردفت بكُره تَشبَّع به فؤادها:

- سبايا بين أيدي محاربيه، يمارسون عليهن من السادية كل ما يخطر لك ببال، يعتبروننا أنجاسًا بلا روح ولا شرف ولا كرامة، ويُصدق كُبراء "النسر" على ذلك بأفعالهم فينا.

تاه عقله في لُجة هذه التُهم البشعة، رافضًا أن يصدق أن هذه هي الحقيقة التي ارتحل للبحث عنها، مات بداخله الكلام، وتقافزت هواجسه داخل رأسه حتى ألَمَّ به ألم غير محتمل فتلمَّس رأسه محركًا إياها عل ألمها يسكن، تطلع إليها وقد وجمت قسماتها وشردت في غمرة أفكارها، قال:

- لكن لو رأوكِ..سيقتلونكِ.. ها.

صافحه الصمت في البداية، ثم وافقته بهزة من رأسها، أولت إحدى بوابات المملكة اهتمامها وهي تحدق فيها من خلف الهضبة، ثم قالت وكأنها تسري إلى نفسها:

- هناك من سيحميني.

دومًا رآها تُقاتل بضراوة، بقوة وإباء، لم يلمس طيلة رحلتهما هذا اليأس الذي وشت به عينها، فرقَّ قلبه لحالها، واستشعر ندمًا على ذنبٍ لا يذكر أنه يومًا جناه، حاول طرد هذا الشعور وقد سبب له حنقًا بالغًا.

- غدًا احتفالية "الفداء الكبير".. سيخرج كل الشعب من مساكنه إلى التلة الحمراء، عندها سأتمكن من الدخول.

- تصحيح.. سنتمكن.

رنت إليه فتلاقت أعينهما، صمتا للحظات، ثم قال مستجديًا:

- عقلي مشوش، أحتاج لأن أفهم قبل أن أقرر ماذا سأفعل.

- وما الذي يدفعني إلى المخاطرة باصطحابك إلى مسكننا الخاص؟

- لأنكِ مدينة لي، لقد أنقذتكِ.. مرتين.

لم يندم على كذبه بشأن الأولى منهما، فهو بحاجة إلى بذل طاقته لنيل موافقتها، لكنه لمح في عينها نظرة غضب، لم يلبث أن تبدد بعضه، ثم قالت:

- لكن بشرط.

- ....؟

- ستفعل كل ما آمرك به.

ثم أردفت بشراسة متعمدة:

- إن عصيت لي أمرًا واحدًا سأخبر "أصلان" أنك جاسوس لـ "راعون".. وعندها سيبتر أطرافك حيًا.

***

أمضيا ليلة أصعب من سالفتها، وقد وضعت الليالي الحُبلى بدرًا شاهدًا على حالهما. تلظَّت فوق نيران شكوكها ووساوسها، متيقظة، حذرة، لا تمنح كل الأمان لرفيقها، تُفكر فيما لاقته في رحلتها من عجائب ستُذهل رفاقها. واكتوى هو بهجير حقيقة رمته بها، وَدَّ لو أصبح بها جاهلًا، واستعر به توق لأن يزجيها عنه، ويقف على غيرها. تتجاذبه الحيرة بين أمر بغيض، منذ أن عرفه أمسى مُنكِرًا له، وبين رفيقته التي تتجلى كل الثقة بحديثها، كأنما أصابت كبد الحقيقة بيقينها.

ولج أبوابًا من الحيرة ما كان عارفًا بوجودها، فأضحت مهمته صيد الحقيقة الضائعة بين كل الأكاذيب والأوهام التي اكتست بردائها؛ إذهابًا لوحشة نفسه، وليثبت أنه براء من كل التهم التي رمته بها. بساحة الوساوس والظنون حطا رحالهما، وَدَّا ألا يطول فيها المقام، ويبلغا برجائهما بر الأمان.

اخترق الهدوء الذي استتب طيلة الليل وحتى الإشراقة الأولى للصباح أصوات الجماهير المندفعة من البوابات، أبصرهم "القزم" وقد استعارت الدهشة لنفسها بعينيه مقعدًا، أين احتفظ باطن الأرض بكل هذه الأعداد الغفيرة، كيف استقامت لهم بداخلها الحياة! استوفى دهشته

وقد تزايدت الأعداد المنضمة لرفقائهم فوق التلة الحمراء، آلاف الذكور والإناث والصغار، اصطف كل بالغ في صفوف متوازية بمد البصر، أما الصغار فتناثروا في الأرجاء بمرحٍ وصخب، لاهين لاعبين وبعضهم ظل لذويه ملازمًا.

بلغا الميقات لعبور البوابة بعد أن توقف السيل الحي المنهمر عبرها، تبادل مع رفيقته النظرات، بدت مترددة قبل أن تُفصِح:

- فقط سأوافق على استضافتك لمدة يوم واحد، بعدها تبحث لنفسك عن مكان آخر، لا أريد أن أُبلى بك.

- يومان.. وأعدكِ ألا أسبب لكِ أي أذى.

قست نظراتها محذرة:

- إذا بدر منك أي شيء يدعو للشك...

- أعلم، أعلم، سيبتر هذا الـ"أصلان" أطرافي حيًا.

قالها ببرود أتبعه ببسمة كالحة، لم تُقابله بمثلها. أشارت إلى البوابة التي يحجبهم عنها هضبة الرمال، وأخبرته أنهما سيتوقفان أمامها يرددان شعار مملكة "النسر" حتى يسمح لهما الحارس بالمرور بعدما يتأكد من هويتهما.

- لكنني لا أحمل هوية!

- بل تحمل، رائحة جسدك.

أطلّت الدهشة من قسماته فوضّحت على عجالة وهي تنهض وتمسح أرجاء المكان بنظراتها متفحصة:

- حراس البوابات السبع لمملكة "النسر" لا عيون لهم، لكنهم يتمتعون بقدرة فائقة على تمييز رائحة أبناء المملكة.

- وماذا يحدث إن حاول دخول المملكة غريبٌ عنها؟

- يقتلونه فورًا، بلا تردد.

اتجهت صوب البوابة فحذا حذوها، وقبل أن تعبرها أبصر حارسها الذي يسد بجسده الضخم كل الفتحة المحفورة في الأرض بشكل مائل. أوقفها وقد زاد اضطرابه وتمكَّن الشك من فؤاده، ماذا لو كانت مخطئة، ماذا إن كان لا ينتمي إلى هذه المملكة، لو لم يكن واحدًا من أمرائها كما تظن، عندها سيقتله الحارس بلا تردد كما أخبرته.

- ما الذي يجعلني أثق بكلامكِ؟ قد تكون خدعة منكِ للتخلص مني.

رفرف طير المرح بعينها، فمر نسيم التحدي ببسمتها:

- إنه اختبار ثقة إذن، إذا أردتني أن أثق بك، فعليك أن تثق بي أيضًا.

لم تترك له فرصة لاتخاذ قرار، أو ليخبرها أنه يكره الاختبارات. اختفت من أمامه وتاهت في غياهب الظلام، بعدما طاف الحارس حولها عدة مرات. استجمع شجاعته واستدعى كل ما يُذكِّره بأنه لا يملك سوى أن يثق بها، لا يملك إلا الخضوع للاختبار. اقشعر جسده والحارس يتلمَّسه بغدده الشمِّية، تذكَّر أنه لم يردد شعار المملكة، فقال بلهفة واضطراب:

- "النسر أولًا.. نسر دائمًا".

انزوى الحارث مبديًا له فسحة للمرور، فخفق قلبه فرحًا، ولمع في غرته نور البِشر. لقد كانت محقة، إنه أحد أبناء هذه المملكة، بل أعظم من ذلك، إنه أحد أمرائها. عبر أولى خطواته بداخل مساكن الشعب وقد امتلأت نفسه بالثقة أكثر من أي وقت مضى.

عبر ممرات وأدوار بدت كأنها بلا نهاية، وصلا أخيرًا إلى مسكن محفور بجدار أحد الممرات، ترك "بِنَان" تتجاذب أطراف الحديث مع أحد الصغار بداخل المسكن أثناء تفحصه لما حوله. بدا له المكان مذهلًا، أكثر اتساعًا وبراحًا مما ظن، لا يدري كم استغرق حفر كل هذه المدينة تحت الأرض بهذه الدقة والمهارة دون أن تنهار أركانها، لكنه بالتأكيد عمل عظيم يدل على خصال الدقة والمثابرة والإبداع التي يتمتع بها أبناء شعب "النسر".

ساقته "بِنَان" إلى ممر آخر أفضى إليه الممر الأول، ثم نزلا ثلاثة طوابق قبل أن يدلفا إلى خامس مسكن إلى يسار الممر، وعندما سألها إن كان هذا المسكن يخصها لم يتلق ردًا، أبصر على وجهها أمارات القلق، وشعر وكأنه يسمع خفقات قلبها قوية متسارعة ممتزجة برائحة أنفاسها! فتفرَّس فيها علَّ قسماتها تَفضح له ما ألمَّ بها، وبدَّل حالها.

فجأة اقتحم عليهما المكان أنثى بعين واحدة أبصرها وقد تهدلت رأسها فوق جسد ممتلي، بطنها منتفخة كما لو كان بالونًا، وبقعًا باهتة تفترش جسدها. توقفت ما إن وقع نظرها على "بِنَان" وهي تُمعن فيها النظر بدهشة ملأت أركان المسكن، ثم تهتف بلوعة:

- "بِنَان"!!

***

الملف الثامن عشر

عادت السماء تزدان بألق نجم غاب يومًا وأفل، فاجتمعت المفاجأة مع اللهفة، وفاضت عبرات المآقي. ازدهر سراج الحبور بوجه "سُلاس"، واندفعت تعانق "بِنَان" بابتهاج. تجلَّت السعادة على وجه "بِنَان" وفاضت عينها بسرها غزيرًا، فرحة بعودتها إلى مكان تألفه، بين من تحن إليهم وتأمن جانبهم.

تقافزت الأسئلة في رأس "سُلاس" فهتفت بها جميعًا بوقت واحد، لا تدع لـ "بِنَان" فسحة للجواب، ألَمَّ بها تعب ليال من الأرق والعذاب، فقدَّمت لها "بِنَان" وعدها:

- سأخبركِ بكل شيء، فلدي الكثير لأقصه عليكم.. لكن دعيني أرتاح قليلًا.

ثم أردفت وقد ارتجف خافقها يشوبه لوعة الاشتياق، يسوق الغيوم لحجب عينها بعناق:

- لكن أخبريني أولًا أين "أصلان"، ولماذا يقيم آخرون بمسكنه؟!

تخضَّب وجه "سُلاس" بالارتباك، فالتفتت تطلب العون من الفراغ الذي كشف لها عن "القزم"، ارتجف صوتها بشهقة عالية وعينها تلتحم بوجهه. نزعتها عنه بمشقة لتعلقها بوجه "بِنَان" متسائلة بجزع:

- أمير!.. في مسكني!.. لماذا؟!



دنا "القزم" منها يبث في نفسها الأمان، قائلًا:

- لا تخافي، لن ألحق بكِ الأذى.

شهقت شهقة عالية وهي تتطلع بوجهه، دفعت به لأن يتراجع إلى الخلف بوجل، تعاظمت دهشته عندما ألقت عليه بسؤال فاجأه، ولم يعرف إن كانت به جادة أم مازحة:

- كيف تتحدث إليّ.. هل تراني؟!

شعر بسخافة بالغة وهو يجيبها:

- طبعًا أراكِ.

شهقت مرة أخرى وهي تردف:

- كيف؟.. كيف تراني؟

ألجمه سؤالها لبرهة، ثم قال بنفاذ صبر:

- وما الغريب في ذلك؟ لم أفهم؟.. أراكِ كما يراكِ الجميع.

- لا يراني الجميع.. فأنا ميتة منذ زمن!

نقل بصره منها إلى "بِنَان" التي لم يند من وجهها ما يدل على استغرابها من تلك المحادثة، وهذا التصريح العجيب لصديقتها، اعتصمت بالصمت وهي تتطلع إلى "القزم"، لكنه لمح في عينها طير الاستمتاع مرفرفًا بجناحيه. بجدية قال وقد تعكر مزاجه كثيرًا:

- الوقت لا يناسب المزاح.

لكن "سُلاس" ظلَّت ترمقه بشغف، وهي تردد بصوت خافت "إنه يراني!". ثم التفتت إلى "بِنَان" تنشدها أن تحل لها كل هذه الأحاجي التي تراها أمامها وكأنها تتناثر من حقيبة حاوٍ، زفرت "بِنَان" بقوة، ثم بدأت تروي لها كل شيء.

***

نفضت التعب عن وجهها حينما أبصرت "حَبُوك" الذي ذهبت "سُلاس" في استدعائه، يتطلع إليها ذاهلًا، متجمدًا كأنما تحول إلى صخرة، استفاق من سكرة الدهشة فتهللت أساريره مُبديًا غبطة وسعادة، لم يسعها قلبه ففاضت من كل جوارحه. استثارت حواسه وهو يستمع إلى قصتها التي ترويها للمرة الثانية. أشارت "سُلاس" عليها أن تؤجل إخبار "داموس" بأمرها، وعندما أبدت "بِنَان" اعتراضها، فأخوها يجب أن يكون أول العارفين، أقنعتها "سُلاس" أن في إخبار "داموس" بأمر الأمير خطر على حياة كليهما. الجميع يعلم بغض "داموس" لسكان الكهف، قتلوا أخاه الأصغر عندما فشل في النجاة من اختبار بذرة الشر. ولا يزال يحمل لهم في قلبه الحقد والكراهية، هكذا يُصرح دائمًا كلما لاحت له الفرصة. اقتنعت "بِنَان" بتأجيل إعلام أخيها بنجاتها يومين حتى يرحل الأمير عنهم، وقتها لن يجده "داموس" لافتعال المشكلات معه، عندما تقص عليه كل ما حدث معها منذ أن حملها الجَلاوزة لإلقائها في "فم النار".

لكن إخبار "حَبُوك" كان أمرًا لابد منه، فلن يستطيع أحدٌ غيره صناعة ضمادة تخفي عين الأمير عن أنظار سكان المملكة حتى لا يكتشفوا أمره،

وصناعة أخرى لـ "بِنَان" تخفي بها جزءًا كبيرًا من وجهها حتى لا يتعرف عليها أحد.

أدام "القزم" النظر إلى "حَبُوك" منحني الظهر وهو يصنع مع "بِنَان" ضمادة كالتي صنعها له المُداوي من ألياف الأشجار، وخيوط الحرير، ثم ثبتها فوق عينه بمادة لاصقة، وكذا فعل مع وجنة "بِنَان". وعندما أبدى "القزم" شكًا من أن يكتشف أحدٌ أنها ضمادة تخفي عينه، أجابه "حَبُوك" بتوتر -فما ظن يومًا أن يكون على هذه الدرجة من التبسُّط في مخاطبة أمير- أن كثيرًا من شعب "النسر" يوارون فراغ أعينهم اليسرى بأوراق الشجر، أو بأنواع مختلفة من الأزهار كمظهر جمالي، لذلك لن يكتشف أحدٌ أمره، فتسرب إلى نفسه شيء من الأمان.

استقر بهم الاتفاق على أن يقيم "القزم" بمسكن "حَبُوك"، وتظل "بِنَان" برفقة "سُلاس" حتى انقضاء اليومين.

- يجب أن يعرف "أصلان".

استرق "حَبُوك" و"سُلاس" النظر إلى بعضهما، واكتسى وجهاهما بقناع الاضطراب، ألجمهما عن الكلام، فتسرَّب القلق إلى نفس "بِنَان".

- أين "أصلان"؟ ماذا تخفون عني؟

نكَّس "حَبُوك" رأسه، نقل "القزم" نظراته بين الجميع يعلو الفضول وجهه، ألقت بسؤالها مرة أخرى بحدة كشفت عن ارتعاشة صوتها، دنت منها "سُلاس" بخطوة، ثم أخبرتها مشفقة:

- لقد فقدناه يا "بِنَان"يوم إلقائكِ في "فم النار".

اختلج قلبها بجرح فاض نزفه، فلسعتها دفقة من الدماء، وخنقتها عبرة تَخِز خاصرتها أبت مدامعها أن تسكبها، متمسكة بذيول وعيها تساءلت:

- هل بكى أمامهم؟.. هل عاقبوه؟

- لا، لكن قلبه فعل.

***

أمسى لا يطلب إلا أرضًا مستقرة يحط رحاله فوقها، ينشد فيها سكن النفس وراحة البال. تزاحم برأسه ما مر به خلال الأيام الماضية، يبذل جهده في جمع الصورة من أجزاء مبتورة متناثرة، وما صعَّب مهمته، ونبأه بفشلها، أن إطارًا واحدًا لا يمكن أن يوحد كل هذه الأجزاء المتنافرة. "بِنَان"، و"سُلاس"، و"حَبُوك"، و"داموس"، وشبح "أصلان" الذي لا يعرف إلى الآن موضعه من الصورة.. عليه أن يتعامل مع كل هؤلاء خلال اليومين القادمين، دون أن يدع أحدًا من "الجَلاوزة" يكشف أمره. والأهم أن عليه أن يستخرج منهم أكبر قدر من المعلومات عن هذا العالم الذي زج فيه نفسه، قبل أن يفارقهم وقد اتخذ قراره فيما يجب أن يصنع، وإلى أي وِجهة يجب أن تكون خطوته التالية في رحلة بحثه عن هويته.

وعلى ذكر الأشباح قفزت إلى ذهنه "سُلاس" غريبة الأطوار، بوجهها الشاحب المرقَّع بالبقع والقشور، وضخامة جسدها المنتفخ لدرجة لا تُصدق، وبحديثها غير المنطقي بشأن موتها، لام نفسه أنه لم يُسكتها بإفحامها أنها تجاذبت الحديث مع "بِنَان" و"حَبُوك". ثم ارتأى أنها كانت تمزح في وقت لا يسع مزاحًا، فلعلها تفتقر إلى النضج فلا تحسن اختيار أوقات المزاح.

قفز عقله إلى صورة "بِنَان" وهي تُخرج من جيبها وريقات البنفسج العطري فتساقط بعضها أرضًا، تُعلق بها أنظارها وهي تهمس:

- أحضرتها من أجله.

كان هذا آخر ما رآه قبل أن تقترح "سُلاس" بصيغة آمرة متسلطة أن يغادرا مسكنها، حتى تنال "بِنَان" قسطًا من الراحة بعد رحلتها الطويلة. لكن على بُعد خطوات من مسكن "سُلاس". تشمم عطر البنفسج مختلطًا برطوبة ندى ملحي، وأنين مكتوم.

تقلَّب ذات اليمين وذات اليسار. رنَا إلى "حَبُوك" الذي انخرط منذ ساعات في خلط مواد ببعضها البعض، دون أن كلل، لم يتجاذبا خلالها للحديث طرفًا. بدا وكأنه لا يشعر بضيفه المؤقت. أو نسي تمامًا أمره.

فلما تلبَّسه الملل وعيل صبره على احتماله، دنا منه وهو لايزال صارفًا جُل تركيزه على ما يعمل. مستهلًا حديثه يعرض مساعدته، بدا كمدخل للكلام أكثر منه رغبة جدية، فأجابه "حِبُوك":

- أ.. أ.. أنا بخيير.

متعجبًا تفرَّس فيه "حَبُوك" الذي لم يعتد هذه المعاملة، ومن أمير! بدا أكثر اضطرابًا وكأنه تذكَّر بغتة أنه يشاركه مسكنه ليومين.

- يا لي منن أأحمق.. لم أأشأ إهانتك.. لقد.. أأنا كنت....

- هوّنِ عليك.

تلطَّف معه "القزم" إذهابًا لتوتره، فسأله "حبُوك" إن كان جائعًا ليحضر له طعامًا آخر، شكره "القزم" مُبديًا رغبته في الحديث. لم يكن

لـ"حَبُوك" طبع الثرثرة، لذلك كان على "القزم" أن يبادره بسؤال تلو آخر، وهو الأمر الذي وجده شاقًا إذ لا يدري عن أي شيء يسأل، ثم اهتدى إلى سؤال فضفاض يضمن له جواب يحمل تحت عباءته عدة إجابات أخرى.

جاش إليه "حَبُوك" بالكثير الذي أبهره عن مملكة "النسر"، واجه "القزم"في البداية صعوبة في الوقوف على المعنى الصحيح لكلماته المشوهة، أوفاها حظًا تلك التي تحوي حروفًا قليلة، أما الكلمات الأكبر تطلبت منه عناءً أكبر. وكأن نفسه يخرج مع كل كلمة ينطقها "حَبُوك". تجمَّل بالصبر لنيل مرامه في برء داء فضوله، ثم رويدًا باتت الجمل مترابطة، وتجلَّت بوعيه معانيها. لم يستطع أن يحول دون تسرب الدهشة إلى نفسه و"حَبُوك" يُحدثه عن تاريخ مملكة "النسر"، يتنقل في حكيه من الماضي إلى الحاضر، فلا يلبث يروح إلى الماضي ثم منه غاديًا، فأجهد "القزم" عقله وشحذ تركيزه، حتى يقف للحكاية على ترابط ولأحداثها على ترتيب.

بدأت رواية "حَبُوك" بكارثة "الانفجار العظيم"، فجأة شعر الجميع بزلزال كبير، وبصوت دوي كاد يصيبهم بالصمم، رجت الاهتزازات كهفهم فيما كانوا فيه آمنين، ثم تغير كل شيء خلال ساعات، نبتت الرمال حول الكهف من حيث لا يدرون، وتلونت مياه النهر الذي اعتادوا الشرب منه باللون الأسود، وتقلص حجمه، نبتت أشجار الغابة وصخورها، فنشأ الجماد من العدم!.. فكان للطبيعة حرية التصرف بعناصرها تحركها وتمزج بينها كيفما شاءت، وبعبثية طفلة صغيرة تهوى اللعب!

وبعد أيام، وقبل أن يستعيدوا توازنهم أغار عليهم محاربي "مينورا"، أرادوا ضم المملكة إلى أراضيهم، وعندما تصدَّى لهم شعب "النسر"

وأفشلوا مخططهم، ألقوا عليهم بسلاح فتاك، لم ير الراؤون مثله، حصد من أرواحهم مئات الآلاف، وكانت الكارثة في خسارتهم الملكة التي كانت البذرة الأولى التي طرحت بساتين مملكة "النسر". بموتها تزعزعت أركان المملكة، ودَبَّ اليأس في نفوس شعبها، ولم يبق الرمق إلا في بضع مئات منه.

ألقوا كل جثث قتلاهم في النهر فاصطبغ بالسواد أكثر. فكأن الجثث اتفقت وبذلت خلاياها لتتحد معًا ويخرج منها "كلب النهر". سمكة عملاقة لا قِبل لهم بها. فنشأت الروح من العدم!..وباتت سيدة النهر، تنهش كل من تسول له نفسه الاقتراب من عرشها. فقُطع كل سبل التلاقي بين المملكتين.

أما طريق الغابة فاتحدت ذرات الهواء وأنبتت لهم ببركة دعائهم حيوان "البنغول" آكل اللحوم! وطمروا البركة أسفل الممر بالطحالب. وأشاعوا عنها أنها سامة فبقي ظن أهل المملكتين إلى هذا اليوم أنها تحمل سُمًّا فتاكًا ينتقل بالتلامس. الأمر الذي اكتشفه "حَبُوك" عندما قصَّت عليهم "بِنَان" كيف قفزت بأقدامها العارية من طحلب إلى آخر حتى وصلت إلى جدار المملكة، دون أن يمسها سوء، وكان "القزم" على كلامها شاهدًا ومؤكدًا.

حملت أبخرة "الانفجار العظيم" الذي غطى سماء المملكة لفترة طويلة رائحة الموت، والذين نجوا من الموت أصيب أغلبهم بأمراض عديدة، وتشوهات بالغة. فصاح منادٍ أن يتم فصل الأصحاء عن المرضى، حتى لا تنتقل إليهم تلك الأمراض العجيبة. فسكن الأصحاء الكهف الذي كان يضم جميع أبناء المملكة قبل الكارثة، أما المرضى فبنوا لأنفسهم

مساكن تحت الأرض. وبمرور الوقت ارتأى الجميع أن هذا التقسيم هو الأمثل لحماية أبناء الأصحاء من مخالطة أبناء المرضى بالتعاملات أو التزاوج فتنتقل إليهم تلك الأمراض، وللخوف الذي كان له سلطان كبير على نفوس المرضى، من أن يعود محاربي "مينورا" بهجمات أكثر شراسة، فيبيدوهم عن بكرة أبيهم. وهكذا أصبح سكان الكهف أسيادًا بصحة أجسادهم على الشعب الذي احتمى في جوف الأرض.

حتى جيل الأبناء الذي كان في رحم الغيب ولم يشهد "الانفجار العظيم" شارك بصوته لصالح هذا التقسيم!.. فكل صغار سكان الكهف أتوا إلى الدنيا بأجساد صحيحة وبعينين مكتملتين كما يملك آباؤهم، أما أبناء سكان جوف الأرض كانوا خلاف كل ما عرفه شعب "النسر" يومًا، ألَمَّ الضعف بأجسادهم، وكان لكل منهم عين واحدة فحسب، ولم يفلح تعاقب الأجيال في التخلص من هذه الصفة التي باتت لعنة أصابت الشعب كله، ولم تمنح الطبيعة أيًّا منهم قط صغيرًا ذا عينين. ولا مرة واحدة عبثية!

لم تكن تلك الصفة المورثة هي كُبرى مآسيهم التي سببتها أبخرة "الانفجار العظيم"، إذ كانت فجيعتهم في الداء الذي أحاق بكل ذُكور سكان باطن الأرض، فوسم كل واحد منهم بداء العُقم!.. لكنهم احتالوا على الطبيعة لتمنحهم بوسيلة أخرى صغارًا من صُلبهم!

توقف "حَبُوك" عن الحكي فجأة عندما اقتحم خمسة من الجَلاوزة الأشداء موفوروا الصحة مسكنه، فانتفض جسده، وتوجس "القزم" منهم خيفة. حملت نظراتهم من الغلظة والقسوة ما دفعه ليعتقد أنهم لم يأتوا في خير، استعد لنزع ضمادته لكي يكشف لهم عن هويته، فلن

يستطيعوا كزملائهم الذين قابلهم بالأمس أن يلحقوا الأذى بأحد الأمراء. أما "حَبُوك" فكانت أقدامه تصْطَك ببعضها البعض، جفَّ حلقه، لا يتصور كيف سيخوض تلك التجربة المريعة مرة أخرى إن مسَّ جسده الخيط الحريري، خيط الحقيقة!

نظر "القزم" بفضول ممزوج بالحيرة إلى العصا التي تَمسَّك بها أول الجلاوزة وقد تدلى من طرفها خيطٌ سميكٌ، وواحدٌ منهم يدفعه ليلامس الجدار بجسده، وكذلك فعل آخر مع "حَبُوك". ابتعد اثنان من الجلاوزة عنهما ووقفا مع زميلهما الذي لايزال يمسك بالعصا، فيما بقى آخر اثنين خارج المسكن يبعدان المارة الذين أصابهم الفضول ليروا نتيجة ما يحدث.

- لا تتحرك.. فقط لا تتحرك.

امتثل "القزم" لنصيحة "حَبُوك" وقد استقر في نفسه إن تعقدت الأحداث فسيكشف لهم عن هويته وينتهي الأمر. اقترب ذلك الذي يمسك بالعصا، وقف كل جلواز في جهة، وكل منهما يمسك بقطعة جلد يحجب بها الرؤية عن عينيه. حرك العصا يمينًا ويسارًا، إلى أعلى وإلى أسفل وهو يترنم بكلمات لا يقف لها "القزم" على معنى، كلمات بدت بغير ترتيب لكن الجلواز يحفظها عن ظهر قلب.

دنا الخيط من جسده جدًا، كاد أن يمسك به لكن نصيحة "حَبُوك" تردد صداها بعقله، فتجمد في وقفته. وأخيرًا انتهى الجلواز من ترنيمته التي لم يعِ منها "القزم" سوى كلمات ترددت بوضوح أكثر من غيرها "الشر، النار، خطايا".

تنفس "حَبُوك" الصعداء عندما ولى الجَلاوزة مدبرين في صمت كما آتوا في صمت، استقبل ببشاشة تهنئة المتفرجين من المارة قبل أن يتفرقوا ويعود إلى جانب "القزم"، لم يحتج لأن يصيغ سؤاله بالكلمات، كانت نظرات عينه وحركة رأسه الاستفهامية ترسم علامة استفهام كبيرة في الهواء التقطها "حَبُوك" مُفصِحًا عن الجواب:

- ككاان هذذا اخختبار دوورري يقوم به المحااربووون لاكتشااااف ممن يحممملوون ببذذرة الششر.

- .....!

- حسسنًا، سسأشرح لك ممن البداااية، يببدو أن ذااكرتتك معمطوببة أأأكثر مما ظننننت.

أوضح له "حَبُوك" بحماس وإيمان كبير أن بذرة الشر هي أصل كل الشرور والخطايا، وهي سبب ما أُحيق بهم من كل بلاء، فقد عاقبتهم الطبيعة بسببها وأبلتهم بكارثة "الانفجار العظيم"، وبمعركتهم مع محاربي "مينورا". لذلك كان أول قانون صاغه ملك "النسر" بعد الكارثة هو قتل كل من يحملها بين جنباته. يوميًا يسير الجَلاوزة داخل مساكن المملكة، يتلون الترنيمة التي تستدعي قوة الطبيعة لمساعدتهم على اكتشاف من يحمل تلك البذرة، إذا مسَّ الخيط الحريري جسد أحدهم فهو مرشح لأن يكون حاملًا لبذرة الشر بداخله، عندها يقدمه الجَلاوزة للاختبار الأول الذي قص "حَبُوك" عليه تفاصيله، وقد ارتجفت أوصاله لذكراه كما لو أنه مر بها منذ دقائق فحسب. شرح له مسَّ شعر وجه "نمر الأرض" وجهه، وكيف تقززت نفسه لرائحة فمه الكريهة، مر على تلك الذكرى سريعًا مُبديًا فرحته بنجاته يومها.



- وما هو الاختبار الثاني؟

- أأصعبب، وففي الغاالب لا يننجو مننه أأحد.

يثبت الاختبار الأول تهمة حمل بذرة الشر أو ينفيها عن الأفراد المشكوك فيهم الذين يمس الخيط الحريري أجسادهم، أما في الاختبار الثاني يرتجي المذنب العفو من الطبيعة، إن شاءت رمته بعفوها، وإن شاءت رمته بغضبها فيلقي الجَلاوزة بالذكور طعامًا لـ "نمر الأرض"، ويلقون بالإناث طعامًا للنار لـ"فم النار".

أيقن "القزم" أن عليه أن يكون أكثر حذرًا من الآن فصاعدًا طوال إقامته في مساكن الشعب، فتلك الساعات ستحمل له من الخطر الكثير.. والكثير.

***

الملف التاسع عشر

- "بِنَان" لا أصدق ما فعلتِ، كيف تثقين بأمير؟ بل وتُدخلينه مساكننا أيضًا!

ألقى "داموس" بغضب شديد تعنيفه في وجه "بِنَان"، وعندما أوشكت على الرد صاحت "سُلاس" بوجهه:

- تتحدث كما لو كان كل الأمراء أشرارًا.

- نعم كل من يسكن الكهف هو نفاية فاسدة.

التمعت عينها بالغضب، قائله:

- فلتحترق في "فم النار" يا "داموس"، اسحب ما قلت.

- لن أسحب شيئًا.

أمسكت "بِنَان" برأسها وقد نكَّسته ألمًا، فصاحت به "سُلاس":

- أنت كتلة طاقة بلا إحساس، انظر ما فعلته بتلك المسكينة.

- بل فعلتْ صرخاتكِ التي تشق الحجر.

- كفى أرجوكم.

اقتربت منها "سُلاس" تحيط برأسها، وهي ترمي "داموس" بشرر نظراتها ثم تهتف:

- أنت المخطئ، لو لم تأتِ إلى مسكني الآن لما رأيت "بِنَان"، ولما اضطرت لأن تقص عليك كل شيء.

- بل حسنًا فعلتُ، وهذا النفاية لن يبقى في مساكننا لحظة أخرى.

صاحت "بِنَان" بوهن:

- "داموس" أرجوك لا تؤذه، لقد وعدته.

- لن أسمح لواحد من قتلة أخي بالبقاء بيننا.

واجهته بحزم:

- هناك أمر أكثر أهمية منه، ماذا سيحدث معي الآن؟ إن اكتشف الجَلاوزة أمرى فسيلقون بي في "فم النار" مرة أخرى، هذا الذي لم يكن سوى خدعة، لا أحد يموت بـ"فم النار" يا "داموس"، لا أحد.. "فم النار" لا يبتلع الشريرات اللاتي يحملن بذور الشر، واللاتي ترفض الطبيعة منحهن عفوها، بل يقدمن كهدايا لمحاربي "رِيشَع" عبر نفق سري يصل بينها وبين "فم النار"، لقد خدعونا يا "داموس"، خدعونا جميعًا.

حطَّت طيور الصمت فوق رؤوس ثلاثتهم، وطال بها المقام، حتى انسلت "سُلاس" من بينهم، قائلة:

- سأطمئن على "حَبُوك".

لم يتلفت إليها أحدهما، دنا "داموس" من "بِنَان"، يرسم على وجهه ابتسامة مطمئنًا:

- لا تقلقي سنجد حلًا.

- كيف؟.. لقد انتهى أمري.

- سنجد حلًا.

أومأت برأسها، وهي تبادل بسمته بأخرى واهنة، ثم سألته وقد اكتسى وجهها بالأسى:

- هل تألَّم؟

فهم مُرادها، فأجاب:

- لا، حدث ذلك سريعًا.

قالت بصوت متحشرج، مطرقة الرأس تخفي عبرة بعينها:

- اذهب الآن، "سُلاس" قادمة ولا أريدكما أن تتشاجرا من جديد.

فدارعلى أعقابه مغادرًا.

***

- هيا، أسرع.

- ولم العجلة؟

- يجب أن أعود الآن، بمسكني ضيفة.

- من؟

- هذا لا يعنيك، هيا.

- هل بدأتِ تستقبلين ضيوفًا الآن؟

اختطفت منه القطعة العجينية واحتفظت بها، دون أن ترد على سخريته اللاذعة بمثلها، كانت متوترة أكثر من المعتاد، فعودة "بِنَان" كانت آخر ما توقعته.

- متى سنلتقي؟

أعملت نظرها بوجه "جادور"، ثم قالت بحدة مُحذرة:

- عندما أحتاج لقطعة أخرى سأخبرك.. إياك أن تأتي إلى مسكني وإلا سيُفتضح أمرنا.

حاولت أن ترسم فوق وجهها بسمة مرحة وهي تدلف إلى مسكنها، استقبلتها "بِنَان" متسائلة:

- كيف هو؟

ارتجف قلب "سُلاس"، وهربت من جسدها الدماء.. فسألتها بقلق:

- من؟

- "حَبُوك".

- نعم، نعم، ذهبت لرؤيته.

- وكيف هما؟

- بخير، بخير.

تملَّك الاضطراب من "سُلاس" وقد عزمت على التكفير عن خطيئة الكذب في أقرب فرصة قبل أن تقع تحت أيدي الجَلاوزة، ويفضح الخيط الحريري أمرها.

- لا أأعررف إلى أيين ذذهب، قااال سيتففحص الممللكة.

- أحدب غبي.

أطرق "حَبُوك" برأسه، وقد اكتسى وجهه برداء الألم، ثم غادر المكان، تاركًا "داموس" يستعربه الغضب.

تنقل "القزم" بين أرجاء المملكة، وبالثقة يمتلئ قلبه، يعلم أنه يملك الورقة الرابحة إن ساءت أوضاعه أو اصطدم بعقبات، فبإمكانه في أي لحظة أن ينزع ضمادة عينه فيتغير كل شيء لصالحه. سار بين مساكن الشعب وأسواقهم ومقر أعمالهم ومعيشتهم وجُل حياتهم، ففطن بمقتضى الظاهر أنهم شعبٌ نشطٌ مثابرٌ. مر عدة مرات بأماكن يُجرى بها عمليات حفر، وعندما سأل أحد الحفارين أجابه أنهم يوسعون من مدينتهم الأرضية، بزيادة مساحة كل الطابق، فقد نصت قوانين الملكة ألا يحفر الشعب طابقًا آخر بعد الطابق الثالث والسبعون، وأن عليهم توسيع طوابقهم في اتجاه عرضي. تزداد أعدادهم يومًا بعد يوم، وتزداد عمليات التوسع التي يجريها عمال مهرة، دون أن تنهار المدينة فوق رؤوس ساكنيها. امتلأ إعجابًا بالنظام السائد في المملكة، فكل فرد يعرف وظيفته، واجباته ومسؤلياته، بتلك العين نظر إلى سوق المقايضة الكبير، حيث تتم المقايضة بين أفراد الشعب بنظام وهدوء. أبصر حفنة من الجَلاوزة موزعة هنا وهناك، لكن لم يكن الشعب بحاجة إلى تدخلهم حيث بدا النظام جزءا من تكوينهم وسجية من سجاياهم.

مر على قاعات واسعة جدًا، بدون أبواب، نظيفة بشكل مبهر، هَمَّ بولوج إحداها لولا الحارس الأعمى الواقف على أعتابها، تمامًا كحارس البوابة التي دخل منها إلى المملكة. سأل أحد المارين عن تلك القاعات

فأخبره أنها معقمة، يتم فيها زراعة الفِطْر، وممنوع لغير المزارعين ولوجها حتى لا يفسد زرعهم. مرت "بِنَان" المزارعة بخاطره، وتساءل في نفسه هل تعمل في مثل هذه القاعات.

أخذته أقدامه إلى إحدى البوابات، تمزق بين رغبته في الخروج وتنفس الهواء العليل، مستطلعًا المملكة من الخارج. وخوفه من حارس البوابة الأعمى. ثم ارتأى أن لا شيء يدعو للقلق، فقط سيتشممه مستدلًا إلى هويته كما فعل أثناء دخوله، لن يحدث له أي مكروه. لكنه لم يستطع منع الرجفة التي تملكت قلبه عندما اقترب منه الحارس إلى الحد الذي تلامس معه جسداهما، وهو يدور حوله كما فعل في المرة السابقة.

خرج من البوابة فلفح وجهه نسمات منعشة، تهلل مُحياه في استقبالها، طاف حول المملكة حتى استقر على مقربة من الكهف، فشعر برجفة أخرى تسكن قلبه، ليس خوفًا هذه المرة، بل إثارة وشوقًا لأن يدلف إلى حيث ينتمي. يساوره الحنين إلى عائلة لا يذكر أفرادها، لكنه قدَّر أنه يحبهم ويجلهم، لعلهم ينتظرون عودته الآن، أو ربما يظنون هلاكه.

كم سيكون مبلغ سعادتهم برؤيته، وبمعانقته وملامسته وتشممه. كم يتشوق إلى أن يضم كل واحد منهم إلى خافقه. تُرى كم عددهم، وما شكلهم، وإلى أي حد بلغ للقياه حنينهم. طافت أسئلته من قلبه إلى رأسه دون أن تجد مبتغاها، فعادت مرة أخرى تجد بخافقه مأواها، وتضرم فيه الأشواق.

ذَكَّر نفسه بأنه يجب أن يقف على حقيقة ما حدث، فلعله إن خطا بداخل الكهف وكشف انتماءه إلى أمراء المملكة يُعرض بذلك حياة أحبائه

للخطر، يجب أن يكتشف السبب الذي سلبه ذكرياته في الجانب الآخر من النهر، في "مينورا".. أو "باسطين" كما تحب أن تدعوها "بِنَان".

لم ير هذا العدد من الجَلاوزة قط منذ أن وطأ أرض مملكة "النسر"، زاد أعداد الجلاوزة أمام المنفذ الوحيد للكهف عن المائتين، بالإضافة إلى أعداد أخرى تناثرت حوله. قفل راجعًا مخافة أن يراه أحدهم.

استرعى انتباهه النهر الأسود من بعيد، فدنا منه بحذر مترقبًا أن يطل "كلب النهر" العملاق برأسه في أي لحظة. بقى على مسافة آمنة منه، ثم افترش الأرض الرملية تحته وبدا ساهمًا واجمًا، وكأن روحه تسبح في عالم أخر لا ينتمي إليه بجسده. على الضفة الأخرى من النهر، هناك في "باسطين" تمكن من رؤية ضي المصابيح الطائرة، تتوهج في الظلام، محمولة على أذناب الحشرات.

فوق صفحة وجهه لمع سنا القمر الذي يرعى النجوم من حوله، أمعن فيه النظر متأملًا، تقافز برأسه سؤالٌ ود لو ألقاه عليه فأجابه، لعل سُكْر الليل هو ما دفعه لأن يهمس له كأنه يناجي نديمًا:

- أخبرني ما أحتاج لأن أعرفه، إنك لا تبرح السماء قط، وشاهد على كل شيء.

شعر بتنفس القمر، كاد يقسم أنه سمع ترددًا لأنفاسه، فاعتدل برأسه، وأطلَّ الاهتمام من عينه محمولًا على محفَّة الشغف.

- تسمعني، وتفهمني، أليس كذلك؟

عَمَّ السكون إلا من صوت خشخشة قادمة من ضفة النهر، لعل "كلب النهر" يبحث عن وليمة لعشائه. فخطر إليه خاطر دفع بالحيرة إلى نفسه،

كيف يعيش في هذا النهر الأسود! لا يملك معلومات قوية عن الأسماك وسُبل عيشها لكن بدا له النهر الآسن كبركة نفايات لا تملك سُبل حياة تمنحها لساكنيها. عاد يتطلع إلى رفيقه الوحيد لهذه الليلة هامسًا من جديد.

- أنت تعرف كل شيء فلماذا لا تخبرني؟.. لا تستطيع أم لا تريد؟.. أم تُراك تتحدث بلغة لا أفهمها وبها تختَبرني؟

إزداد ألَق إحدى النجمات على يسار القمر، كأنما أرادت أن تشاركهما الحديث، فأولى اهتمامه لها، حتى بَدَر عن القمر نفحة غيرَة، اجتذبت اهتمام "القزم" إليه من جديد. ازداد اهتمامه وتفتحت حواسه كزهرة "فاكهة التنين" التي تكشف عن قلبها فقط في المساء، لكنه تمنى أن تطول به الحياة أكثر من ليلة واحدة، فلايزال هناك الكثير مما يجهله، ويؤرق ليله، ويُبليه بالسهاد، ولن يهنأ حتى يجد عن كل سؤال جوابًا.

سمع أنينًا إلى جانبه، خافتًا ضعيفًا حتى لا يكاد يُسمع، يهمهم بتلاوة لا يُحسن فهمها، ثم تنبَّه إنما هذا الصوت لا ينفذ إليه من مسامعه، بل من قلبه ينشأ، وإليه ينتهي!.. أصاخ السمع فاختفى الصوت، فدفع بجسده إلى الاسترخاء كما كان، وأصاخ مواطن الحس بقلبه، حتى بدأ الصوت يتجلى من جديد. التفت حوله بروية يبحث عن مصدره، كاد أن ينشق قلبه هلعًا، عندما شعر أن الصوت إنما يصدر عن ورقة شجر ملقاة إلى جانبه تسبح تسبيحات لا يفقهها! قفز من مكانه فزعًا ودار على أعقابه منطلقًا كالسهم سرعة واستقامة.

أثناء سيره بدرت عنه التفاتة إلى الخلف، حيث كان منذ ثوان، فمرر عينه على ظل واقف أمام النهر، ميَّز هذا الجسد المنتفخ رغم الظلام، يلقي

بشيء في النهر. يخفى عن علمه أنها تلقى طعامًا لـ "كلب النهر" تُكفِّر به عن خطيئتها. فتوقف عن سيره في الوقت الذي التفتت عائدة بأدراجها، وهنا أبصرته، فتجمدت بمكانها لبرهة، ثم توجهت إليه، فوقف متململًا، يكفيه ما لاقاه في يومه من غرابة، حتى يجد نفسه وجهًا لوجه مع أكثر من قابلهم غرابة حتى الآن. لمح على وجهها ابتسامة كشفت عن توترها فابتدرها محييًا بابتسامة متصنعة:

- مرحبًا "سُلاس".

أشرق وجهها، سألته عما يفعل في هذا المكان، مازحته باضطراب لم يُخطئه، إن كان يتلصص عليها، فأنكر ذلك بجدية وأخبرها إنما أراد أن يتفحص أرجاء المملكة. لمح في عينها نظرة بهجة وهي تهمس:

- أنت حقًا تراني، لا أصدق ذلك، أنت أول أميريراني.

تململ في وقفته، استشعر نفاذ طاقته في التعاطي مع أي شيء يحمل سمات الغرائبية. طال صمتهما، بدا وكأن كلًّا منهما لا يملك ما يُفضي به إلى الآخر. حتى أوشك على الانصراف فاستوقفته وقد اكتسى وجهها بالجدية:

- احذر "داموس"، إنه يكرهنا أشد ما يكون عليه الكره.

لم يعرف من تقصد بنون الجمع، لكنه أومأ برأسه متظاهرًا بأنه فهم التحذير، استوقفته ثانية وهي تقول بجدية أكثر، هامسة رغم أنهما بمفردهما تمامًا.

- لم يبق لك معنا إلا يوم واحد، ابتعد عن طريقه ولا تثر غضبه، إنه خطير جدًا.



- إن كنتم تخشونه لهذه الدرجة فلماذا تبقونه على مقربة منكم؟

هتفت بإباء وقد ارتفع رأسها:

- لا أخاف ذلك المتعجرف، أستطيع ان أتدبر أموري معه.

- والآخرون؟

- هو لن يؤذي أخته، و"حَبُوك" لا يُمثل له أهمية أكثر مما تُمثل حبة رمل.

- لماذا قلتِ أنه خطير إذن؟

- لأنه يكره الأمراء، والأميرات بالطبع، لذلك يسيء معاملتي، لقد جن جنونه عندما علم أن "بِنَان" أعطتك وعدًا بالأمان.

- ولماذا يسيء معاملتكِ؟!

- قلت لك، لأنه يكره الأميرات، ألم تعرف بعد؟.. لقد كنت إحدى أميرات مملكة "النسر".

قالت جملتها الأخيرة بفخر. فأطلّت الدهشة من عينه حتى أصابها الضيق بسهمه، فهتفت بعصبية:

- ألا تصدقني؟.. إسأل "بِنَان" إن كنت تظنني كاذبة.

- لم أقل أنكِ كاذبة.. فقط تعجبت لأنكِ لا تملكين.. أعني.. عينك...

رفعت قبضتها بتلقائية لتخفي هذا التجويف المظلم، ثم قالت بمرارة:

- لقد كنت مثلك، لكن..حلَّ عليّ العقاب، وصدر قرار الملك بنفيي إلى مساكن الشعب.. فأصبحت أميرة منبوذة.

- هذا فظيع!

هتف وقد اشمأزَّت نفسه، كيف يعاقبونها بنزع عينها؟.. أي جريمة فعلت لتستحق بشاعة هذا العقاب؟

***



الملف العشرون

لم يزعجها بالأسئلة طوال طريق العودة، يسيران جنبًا إلى جنب، تتحسس كل فترة موضع عينها المفقودة. حتى أتى على مسكن لا يعرفه فاستبطأ فجأة في سيره، وقد تنامى إلى خلاياه رائحة بنفسج قوية لكنها مختلطة بالصرخات!.. احتار هل يسمعها أم يشمها! بدت قوية حتى تملكت من كل حواسه، فاختلط عليه بأي الحواس يستقبلها.

ابتعدا عن المسكن فبدت الرائحة أقل حدة، وابتعد الصوت عن مرماه. فتوقف بغتة وعاد أدراجه، استقر على أعتاب المسكن، ينظر إليه بأعين متقدة وخافق مضطرب. نظرت إليه "سُلاس" بحيرة، فسألها عمن يملك هذا المسكن، فتجهَّم وجهها وسألته ببعض الحدة عن سبب سؤاله، فاحتار كيف يجيبها. أصبحت الصرخات التي يسمعها أكثر قوة، فاضطربت حواسه!.. ثم أخبرها بما يشعر به، وقد تملكته حيرة بالغة، ازدادت عندما جمَّدت "سُلاس" نظراتها عنده، فاستشعر فيها شكًا ثم تحول الشك إلى لهفة وفضول. أعاد سؤاله على مسامعها، فقالت أخيرًا بتردد كبير:

- مسكن "بِنَان".

ثم أردفت بعجالة:

- لكنها ليست بالداخل.. إنها في مسكني.

اختلطت عليه حواسه، ورمق المسكن متعجبًا، الصوت يتزايد، و"سُلاس" تُخبره أنها لا تسمع شيئًا، لم ينتظر أن يخبرها بما ينوي، تقدم إلى المسكن مقتحمًا إياه، ليجد "بِنَان" وجهها لوجه مع غريب لم يره من قبل، فوقع في نفسه أنه أخوها "داموس" ذاك الذي يكره الأمراء ويناصبهم العداء. كان وجهها ممتقعًا بشدة وهي تتطلع إليه، بينما "سُلاس" تهتف بدهشة:

- "جادور"!.. ماذا تفعل هنا؟

ليس أخاها إذن. خرج هذا الـ "جادور" مارًا بجواره بسرعة، فالتفت يرمقه أثناء انصرافه. اقتربت "سُلاس" من "بِنَان" التي ترتجف خوفًا.

- ماذا تفعلين هنا؟.. لماذا تركتِ مسكني؟.. وماذا كان يفعل "جادور" عندكِ؟

- جئت لأحمل غرضًا يخصني.. وفاجأني باقتحام المسكن.. لقد هددني.

تبادلت "سُلاس" نظراتها مع "القزم" الذي تملَّك الفضول من كل حواسه فدنا منهما، حتى طلبت منها "بِنَان" أن تذهب في إحضار "داموس" على وجه السرعة، فبدلَّت نظراتها بين "بِنَان" و"القزم" قبل أن تخرج في طلب "داموس".

- ءأنتِ بخير.. ها؟

انتظر ردًا لم يجئ. لم يعرف إن كان عليه البقاء أم العودة إلى مسكن "حَبُوك"، لا تشعر بوجوده، بدت شاردة يعلو وجهها الخوف، ففضَّل عدم مفارقتها حتى عودة "سُلاس" وأخيها. لم يطل الانتظار إذ أبصر ثلاثتهم

يدلفون إلى المسكن وعلى وجوههم تعلو اللهفة، بقي "حَبُوك" عند الباب وكان أكثرهم توترًا. بادله "داموس" نظرة قاسية أفصح فيها عن بغضه قبل أن يدنو من أخته متسائلًا.

لم يفهم "القزم" كثيرًا مما قيل، لم يقف سوى على أن هذا الـ"جادور" قام بتهديد "بِنَان" وخيَّرها بين أمرين، إما أن تظهر بنفسها في احتفالية "الفداء الكبير" القادمة، لتأخذ مكانها أمامه في المبارزة، وإما سيتخذ من "داموس" عبدًا له!.. سيرسل من يسطو على مسكنه ويسلبه كل ما يملك حتى يتقدم إلى الاحتفالية خالي اليد، فيقع في أسره إلى الأبد. شحذ تركيزه ليفهم المزيد من حديثهم الدائر بحمية. إلا "حَبُوك" الذي التزم مثله مكانه وصمته. كان "داموس" أكثرهم عنفًا في الحديث، يقنع "بِنَان" بضرورة رحيلها عن مملكة "النسر" حتى تنقذ حياتها من الخطر. وكانت "بِنَان" تجابه حدته بحزم، أنها لن تسمح لـ "جادور" أن يتخذه عبدًا، لن ترحل وستبارزه في الاحتفالية، لن تتخلى عن واجبها ولن تتهرب منه. أما "سُلاس" فكانت ترفض كل الحلول التي ينطقان بها. ثم صاحت بهما أخيرًا.

- لا حل أمامنا سوى أن نستكمل الحفر.

التقت أنظار الجميع عندها، وران الصمت على المكان طويلًا، تحدث "داموس" أخيرًا قائلًا بسخرية:

- لقد فسد عقلك.

قالت "بِنَان" بقنوط:

- قدرتكِ أصبحت ضعيفة ولا تعمل في كل الأوقات يا "سُلاس".. لقد انتهى كل شيء.

تهللت أسارير "سُلاس" وقالت بغموض:

- كلا، بل بدأ كل شيء.

التفت "داموس" إلى "بِنَان" قائلًا بنفاذ صبر:

- دعكِ منها، إنها تهذي.

- فلتحترق في "فم النار".

- فلتحترقي أنتِ.

أقبل "حَبُوك" متنحنحًا وهو يقول:

- ككنت تررغب ففي ذذلك ياا "دااموس".. أأن نحجفر.

التزم "داموس" الصمت للحظات، ثم ثار بغضب:

- غبي، وكيف سنفعل ذلك بعد موت "أصلان"؟

- هأ هأ، لقد سألتك السؤال نفسه فأجبتني بعجرفتك البغيضة أنك قادر على كل شيء.

وقفت "بِنَان" بينهم وقد امتلأ رأسها ألمًا بهذا التشاحن، أرادت أن تنهي النقاش حول هذا الحل المستحيل، لا فائدة من الاستمرار في المهمة بعد موت "أصلان". لكن "سُلاس" فجَّرت المفاجأة التي ادخرتها لتلقيها أمامهم بطريقة دراماتيكية ملفتة، أشارت إلى "القزم" هاتفة ببشاشة وانطلاق:

- هو سيساعدنا.

تعلقت عيون ثلاثتهم بـ "القزم". ثم ارتدت العيون الأربع إلى "سُلاس" وهي تحمل فضولًا كبيرًا، فأردفت بسعادة وحكمة من توصل إلى سر الكون:

- إنه أحد تلاميذ المُعلم "آصف".

***

يعلم الجميع أن مصير الأيتام من أبناء الأمراء والأميرات في مملكة "النسر" كان يؤول إلى الأمراء الراغبين في تبنيهم، ومن لا يقع عليهم الاختيار ينتهي بهم الحال كخدم بالكهف، أو عبيدٍ في قصر الملك. حتى قرر المُعلم "آصف" أن ينشر ذراعيه ويضمهم تحت جناحه.

المُعلم "آصف" أحد كُبراء مملكة "النسر"، ينهل الجميع من علمه وحكمته، وله مكانة مميزة عند أغلب الأمراء، غير أن عددًا ليس بالقليل كان يناصبه العداء وأولهم قائد الجَلاوزة "راعون"، لرفضهم للطريقة التي يتبعها في تربية الأيتام. لكن حاجتهم إليه كانت تستديم بسبب الحكمة التي تحلَّى بها، حتى أنه عمل في فترة من فترات حكم أحد الملوك كمستشار له. حتى اعتلى الملك التالي العرش وأزاحه عن منصبه، فاكتفى المُعلم "آصف" بما كان يصنعه مع الأيتام الصغار.

كان يشعل فيهم أتون المعرفة، ويُنمي فيهم حس الفضول والبحث والتوق إلى سبر أغوار الكون. كان يُعلمهم أن العلم لا يرقد إلا في صدر يتزاحم بالأسئلة. وكانت كثرة الأسئلة أكثر ما يبغضه قائد الجَلاوزة "راعون"، إذ كان يُعلِّم أتباعه أن السؤال كبحر هائج قد يقذفهم بإجابة تبتلعهم في دوامتها، وكان يحثهم على ألا يتعدُّوا أبدًا بأقدامهم أمان

الشاطئ. فنشأ الخلاف الأزلي بينه وبين المُعلم "آصف" الذي نهل الصغار الأيتام من زخم علمه، وتشربوا من عواطفه وأفكاره ومبادئه. وازداد ظمؤهم يومًا بعد يوم لإماطة اللثام عن المزيد من الأسرار القلبية.

كان يُعلمهم أن العالِم هو منبع نور ينشر الضياء على كل أرجاء الكون، كإشراقة الشمس من جوف السماء فيتبدد الظلام. وكان يُشبِّه الجاهل بالماء الآسن للنهر الأسود لا يُنتفع به وظاهره كباطنه. أما الجاهل المتعالِم فمثله كمثل تفاحة معطوبة صُبغت بلون أحمر ألقى برداء الستر فوق جسدها، وفضحها ريحها العفنة التي تلتقطها حواس ألفت الطيب، يكفي أن نغمرها في ماء صاف حتى ينسل عنها القناع.

حرص على تعليمهم الرسالة، وما وراء الرسالة!.. فلكل شيء ظاهر وباطن، وكل ظلام يقابله نور، وكل أسود يبارزه أبيض، فلا يتجلى أحدهما إلا بوجود نقيضه. فالخير لا يتربَّع من قلب الحياة عروشها، إلا بدرجات شر ألِف خفض الجباه. لم يقتصر تلاميذ "آصف" على الأيتام فحسب، بل انضم لمجلسه سرًا بعض الأمراء والأميرات، يساورهم الشغف للتعلم، والرغبة في نزع رداء الجهل عنهم. رأوا العالم في عمق عينيه ونهلوا من بحور حكمته، تشبَّث المُعلم "آصف" بأيديهم، وساقهم خطوة بخطوة حتى استعادوا معه حاستهم المفقودة التي كان يتمتع بها أسلافهم!

كان قد علم أن الدعوة الجماعية لن تأتي إلا بالخراب، فإن كان ولا بد داعيًا فعليه أن يبدأ بالأفراد، عليه أن يصنع من لبناتٍ فرديةٍ أساسًا صلبًا لدعوته. ظلَّت تلك الحاسة حبيسة صدور تلاميذ "آصف" لا يتمتع بها في أرجاء المملكة سواهم، أمسى بإمكانهم –كأسلافهم- أن يتواصلوا بلغة قلبية مع الطبيعة من حولهم، كان بإمكانهم أن يقرأوا كل شيء، بدءًا

من رسائل السماء إلى همسات السحب وتسبيحات الشجر. فسمت أرواحهم حتى حلقت في مدار خارج أرضهم، وبمعزل عن عالمهم المادي، حول قِبلة ركيزتها عرش سماوي. لكنهم لا يلبثون أن يعودوا بوعيهم إلى الأرض بعد كل جلسة من جلسات المُعلم "آصف". هكذا علَّمهم وربَّاهم، لا غنى للأرض عن السماء، ولا للسماء عن الأرض، فإن كانت عقولهم وقلوبهم إلى السماء أقرب، فإن أقدامهم بالأرض تستقر، فحياتهم مدار بين الدربين وإلا لما تباعدت بينهما المسافة لتسع أجسادهم!

لم يتذكر "القزم" من المُعلم "آصف" اسمًا ولا وصفًا. وبات كل هذا الحديث غريبًا على مسامعه، لا يقف له على صورة، فلا زالت ذكرياته تأبى أن تبرز من مكمنها. إلا أن قلبه كان يضج بالإثارة وقد نال منه الفرح برعدة تمشَّت في أعضائه، إذ عرف أخيرًا إلى أي عالم ينتمي، عالم المُعلم "آصف" وتلاميذه الأيتام. فإما أنه أميرٌ يتيمٌ لا عائلة له، أو أحد الأمراء الذين تعلَّموا على يد المُعلم "آصف" في الخفاء. يجب أن يسعى للقائه، يلتمَّس بين يديه السبيل إلى استعادة هويته.

سيعرف أخيرًا ماذا حدث له، وكيف.. ولماذا.

***

الملف الحادي والعشرون

ثاب إلى نفسه عندما دلف "حَبُوك" إلى المسكن، فأقبل عليه "القزم" بلهفة لم يوارها، تذكَّر بضيق كيف طلب منه "داموس" أو بالأحرى أمره! أن يعود إلى مسكن "حَبُوك" حتى يخلو لهم بدونه النقاش فيما بينهم. تذمر في البداية ثم لم يجد بُدًّا من الانصياع لأمره مخافة أن يثير حفيظته.

سأل "حَبُوك" عما أفضى إليه اجتماعهم الذي طال، فآوى إلى ركن قصي، وهو يخبره متلعثمًا كيف فار الغضب بوجه "داموس" رافضًا أن يستخدموه كدليل لمهمتهم، وعندما سأله القزم عن طبيعة هذه المهمة تحفَّظ "حَبُوك" في الكلام، وامتلأ بالاضطراب، فلم يلح عليه "القزم" في السؤال.

أخبره "حَبُوك" بعناد "سُلاس" التي أصرت على اقتراح الحفر لإنقاذ "بِنَان". أما "بِنَان" فلاذت بالصمت معظم الوقت. ولم يُفض اجتماعهم إلى شيء حاسم. فاتفقوا أن يجتمعوا مرة أخرى في الظهيرة بالغرفة السرية بالطابق الثالث والسبعين. وعندما أبدى "القزم" فضوله حول ماهية هذه الغرفة، ندم "حَبُوك" من فوره إذ شعر أنه أفصح أكثر مما يجب. وطلب منه أن يدع التفكير حتى يرى إلى أين سينتهي اجتماعهم في الغد. لكن "القزم" قرر بعناد أنه لن يبق معهم إلا يومًا واحدًا كما اتفق سابقًا، وبعدها يتوجه إلى الكهف ليبحث بنفسه عن المُعلم "آصف".

***

لم يخطر بباله قدوم "بِنَان" إلى مسكن "حَبُوك" في الصباح الباكر، رسم السُهاد علاماته فوق وجهها فكشف عن ليلتها المضنية المليئة بالأرق، تمامًا كليلته. تسللا إلى الخارج بينما كان "حَبُوك" نائمًا. شعر بنسمات البكور تداعب ذرات الرمال الملتحفة بالندى. والشمس تتشبَّث أناملها بأعتاب السماء مُتسلقة.

- ألا تخشين أن يراكِ "جادور" ويرشد الجلاوزة إليكِ؟

غاصت أقدامه في الرمال فالتصق بها بعض حباتها، حاول التواصل معها ليفهم حديثها، ألم يخبروه أنه يملك تلك الحاسة التي لا يملكها سوى تلاميذ "آصف". لكن محاولاته بائت بالفشل، فعلم أن الأمر لا يحدث عندما يضغط زرًا للاستدعاء، بل يتطلب تواصلًا من نوع خاص جدًا. وصلا إلى الهضبة التي لاذا بها من قبل، فاتخذا منها ساترًا. أجابت سؤاله عندما ظن أنه لن يتلقى عنه جوابًا، كعادتها معه:

- مالا تعرفه أن لـ "جادور" سلطة أكبر من كثير من الجلاوزة، وهو يُريد الإبقاء على حياتي حتى يوم "الفداء الكبير"، إمعانًا في إذلالي.

ثم أشارت إلى وجهها، وقالت:

- ثم أنني لا أظن أن أحدًا سيتعرفني بهذا.

"لا تتورط". هكذا حذر نفسه من التمادي في الحديث معها حول هذا الأمر، لا شأن له بهذا الـ "جادور" ولا بأخيها ولا بالجلاوزة ولا بكل ما يحدث بمملكتهم. ما يهمه الآن هو أن يصل إلى المُعلم "آصف" اليوم قبل غد.

مسَّت الضمادة التي تخفي نصف وجهها، تتأكد من أنها في موضعها، تأمَّل "القزم" تلك الخطوط الملونة التي رسمتها فوق وجنتها المكشوفة، فلا يكاد يتعرَّف عليها أحد.

- لقد شعرت بذلك.

قالتها ونظرت إليه للمرة الأولى منذ أن خرجا من مسكن"حَبُوك"، كانت تخفي تجويف عينها بزهرة صفراء منقطة بالأسود، يفوح أريجها حتى تشعبت بها أنفاسه. هزرأسه مستفهمًا، فأردفت من حيث توقفت:

- لكن لم أصدق، ربما لأنني اعتدت أن يكون لتلاميذ المُعلم "آصف" شأنًا آخر، فأنت...

قطعت حديثها بغتة وغاصت بقدمها تحت الرمال، ثم نثرتها عنها، ظلَّت تحفر بأقدمها ساهية، حتى حثَّها بنفاذ صبر:

- أنا ماذا؟

لمع بعينها التردد، ثم نفضته عنها ونظرت إليه وقد توجهت إليه بجُل انتباهها، ثم قالت بجدية بالغة:

- نحتاجك معنا.

أتى دوره ليشرد ساهمًا، ثم قرر أن ينتهج سبيل الوضوح معها، فأخبرها ألا هم له إلا ملاقاة "آصف"، وإيجاد وسيلة ليستعيد بها ذكرياته المفقودة. فقالت له بحزم:

- ذلك خطر جدًا، لا يمكنك أن تذهب إلى مسكن المُعلم "آصف" بعد ما حدث.



انتظر بلهفة أن تستكمل كلامها، فطفقت تنير له درب ما جهل.

نشب خلاف كبير بين المُعلم "آصف" وقائد الجَلاوزة "راعون"، بعدما ظل لزمن طويل دائرًا في الخفاء. اتُهِم "آصف" بالخيانة العُظمى لمملكة "النسر"، وحُكم عليه أن يظل حبيس مسكنه لا يغادره أبدًا، أما تلاميذه أولئك الذين ربَّاهم حتى اشتد عودهم وساروا على درب الشباب، حُكم عليهم أن يُلقى الذكور جميعًا طعامًا لـ "نمر الأرض"، أما الإناث فتم إلقاؤهم في "فم النار". بعدما أعلن مجلس الحكماء أمام الجميع بأنهم يحملون بذرة الشر التي زرعها "آصف" بداخلهم، ويجب أن يتخلصوا منهم حتى لا تحل اللعنات مرة أخرى بمملكة "النسر". لم ينج سوى تلاميذ الخفاء الذين سعوا إلى علمه بأنفسهم، والذي يبدو واضحًا بجلاء أنه واحدٌ منهم.

قذف "القزم" حجرًا بأقدامه حتى طار بعيدًا وقد امتلأت نفسه غيظًا، ثم التفت إلى "بِنَان" هاتفًا بحدة لم يقصدها:

- يعني لن أتمكن من الوصول إلى المُعلم "آصف" أبدًا، وإن اكتشف الجلاوزة هويتي سيلقون بي طعامًا لهذا النمر الذي تتحدثين عنه.

قابلت حدته بمثلها، قالت وهي تتلفت حولها:

- احذر أن يسمعك أحد، ولا تصرخ بوجهي فلست المذنبة.

بنفاذ صبر سألها:

- وما هو مصيري الآن؟

- ماذا تريد أن تفعل؟

فكَّر قليلًا، ثم قال بعناد متحديًا كأنما يعجزها:

- أريد مقابلة المُعلم "آصف"، مهما كلفني ذلك.

بتحدٍّ مماثل قالت:

- ساعدني.. أساعدك.

- ماذا تريدين مني؟

- لدينا مهمة محددة، والجزء الخاص بك يتعلق بقراءة رسالة قلبية، كتلك التي يقرؤها أمهر تلاميذ المُعلم "آصف".

لاذ بالصمت لبرهة، ثم تساءل بفضول:

- وما هي هذه المهمة التي تثير اهتمامكم جميعًا؟

ببرود أجابته:

- لا تأخذ كلامي بمحمل شخصي لكن.. لا أثق بك كفاية لأخبرك.

ضحك ساخرًا، يواري بضحكته خدشًا أصاب كرامته، ثم أردف ببرود مماثل:

- وأنا أيضًا لا أثق بكِ، ولا بأصدقائكِ.

- جيد، نقف على أرض مشتركة إذن، فماذا قلت؟ اتفقنا؟

اتسعت ابتسامته وهو ينظر لها باستهانة، بينما لمعت عينه ببريق إعجاب خاطف، ثم سألها كيف بإمكانها أن تساعده.لم تخبره عن خطتها لكنها وعدته أن تساعده إن ساعدها، فاشترط شرطًا لا رجعة فيه، أن

تساعده ليتمكن من مقابلة المُعلم "آصف" أولًا، ثم يفعل ما تريد، فوافقت بعد تردد.

ثم قالت هامسة بعد لحظات صمت دفعها إليها مرور بعض الأفراد بجوارهما:

- عليك أن تستعد، اليوم هو الأنسب لمحاولة الوصول إلى المُعلم "آصف".. فاليوم هو "يوم الزينة" وينشغل جلاوزة المملكة عادة في حراسة الملك والأمراء وتنظيم الاحتفالية التي تشارك فيها المملكة بأسرها.

أومأ برأسه تفهمًا، شرد لبرهة فلم يدر أنها ستنفذ الجزء الذي يخصها من اتفاقهما بهذه السرعة، ثم سمعها تُردف مُحذرة:

- إن لم ننجح اليوم سيكون علينا انتظار احتفالية "يوم الزينة" القادمة، أي بعد أربعة أيام من الآن، وليس لدينا مثل هذا الوقت، فاحتفالية "الفداء الكبير" بعد خمسة أيام، ويجب أن نتم المهمة قبلها.

أومأ برأسه مرة أخرى وقد تعمَّق شعوره بخطورة كل ثانية تمر عليهما. سألها عما يحدث في احتفالية "يوم الزينة" فأجابته بلا مبالاة:

- إنه يوم تنصيب الملك الجديد.

فسألها بدهشة بالغة:

- أتنصبون ملكًا جديدًا كل أربعة أيام؟!

أجابته وقد دارت على أعقابها مغادرة:

- نعم، سنتحرك عندما تكون الشمس في كبد السماء، كن مستعدًا.

***

الملف الثاني والعشرون

صرف "القزم" عنه ضيف الشجون والهموم، وتهيَّأ للاحتفالية كما اعتاد أن يفعل سكان المملكة، وكما عرف من "حَبُوك". اكتسى وجهه بألوان شتى لخليط لزج من خلاصة نباتات وزهور. بدا وجه "حَبُوك" أمام ناظره مضحكًا، فتيقَّن أن وجهه لا يقل عنه غرابة.

استودعه "حَبُوك" مع وحشته، وانضم إلى الباقين في الغرفة السرية كما جرى الاتفاق بالأمس، فتعاظم ضيقه لأنه لن يعرف ماذا يدور في هذا الاجتماع. ثارت ثائرة "داموس" عندما أخبرته "بِنَان" باتفاقها مع "القزم"، لكنه رضخ في النهاية عندما غلبت أصواتهم الثلاثة صوته الأوحد.

نزح كل أفراد الشعب إلى تلة الشعب الحمراء، وسكان الكهف يتقدمهم الملك وحاشيته إلى التلة السوداء المخصصة لهم.

اتسعت عين "القزم" انبهارًا بأعداد الجلاوزة، احتل أغلبهم التلة السوداء ملتفِّين حول الأمراء والأميرات المحمولين فوق الأعناق. وفي الممر بين التلَّين بدأ عددٌ منهم استعراضًا راقصًا تهيَّجت معه مشاعر الجمعَين، ساقهم الحماس إلى الهتاف بشعار المملكة حين بعد حين:

- "النسر أولًا.. نسر دائمًا"، "النسر أولًا.. نسر دائمًا".

عندما التفت إلى "حَبُوك" مستفهمًا، أجابه وأمارات البشاشة تعتلي وجهه أن شعار المملكة يعني أن مملكة "النسر" تأتي في المرتبة الأولى قبل

الجميع، اختاروه بعد كارثة "الانفجار العظيم" ليصرف كل فرد جهده في إعادة إعمار المملكة، والشق الثاني من الشعار يحث الجميع على أن يتحلوا دائمًا بالقوة والسرعة والمهارة وحدة البصر.. تمامًا كالنسر.

كانت مرته الأولى حيث يجمعه المكان نفسه بأمراء كانوا له أقرباء فيما مضى، أمسى يديم فيهم النظر عله يتعرف على أحدهم، أو يغلبه الحنين إلى وجه إحداهن. لكن لا شيء! ظلَّ قلبه على نفس الوتيرة من الترقُّب، لم يتملَّكه نحوهم شعور خاص، لا حب ولا كراهية، فقط لا شيء. لكن شعورًا بالحنق تنامى بداخله، فمكانه ليس هنا فوق هذه التلة الحمراء، مكانه هناك وسط هؤلاء الصفوة، إنه واحد منهم ولن يهنأ حتى يعود إلى مكانه بين صفوفهم، على المُعلم "آصف" أن يساعده على استعادة ذاكرته، وعلى استرداد وضعه ومكانته بين أقرانه الأمراء.

انتهت الرقصة الأولى للجلاوزة، وبدأت الثانية ثم الثالثة فالرابعة، وبعد انتهاء الرقصة السادسة وكان الملل قد بلغ من نفسه كل مبلغ، رأى أغرب وأعجب ما وقعت عليه عيناه منذ أن وطئ أرض مملكة "النسر"، مما جعل عقله يكاد يجن من فرط ذهوله.

رآى أحدهم يقترب من الملك الجديد المحمول فوق أعناق زمرة من الجلاوزة ويتسلَّم منه شيئًا لم يدر في البداية ما هو، حتى أخبره "حَبُوك" والهمسات الدائرة من حوله أن ما يسلمه الملك الجديد لقائد الجَلاوزة "راعون" هو عيناه الاثنتان!

إذ جرت العادة أن يُضحى الملك الجديد الذي يعتلي عرش مملكة "النسر" بعينيه الاثنتين لشعبه، وعندما تنتهي فترة حكمه التي تستمر لأربعة أيام يتم تكريمه بانضمامه إلى مجلس حكماء المملكة!. ابتلع ما

تبقى من أسئلته فقد أصبح الهتاف من حوله عظيمًا لم يُمكن "حِبُوك" من سماعه.

راقب بلهفة قائد الجَلاوزة "راعون" وهو يرفع عيني الملك عاليًا فيلتهب في الجمع حماسهم، ويعلو إلى عنان السماء هتافهم. ثم تقدم قائد الجَلاوزة "راعون" حيث شجرة عظيمة لم يُبصر أكبر منها قط، علم أن اسمها "شجرة الطاقة" تقع أمام فوهة تعلوها الأبخرة قدَّر أنه "فم النار". تسلقها قائد الجَلاوزة "راعون" وقد حمل بعناية عيني الملك، حتى بلغ قمتها، وتحت أنظار الجميع استودع العينين الاثنتين محمولتين على ورقة كبيرة من أوراقها، فكل ورقة من أوراق الشجرة تحوي عيني أحد الملوك الذين حكموا المملكة يومًا. هتف "راعون" بكلام كثير، لكن حماس الجمع وهتافهم منع "القزم" من الاستماع إلى مقولته، لم يقف سوى على جملة واحدة:

- ... من أجل الأجيال القادمة...

عندها جذبته "بِنَان" لتُخبره أن موعدهما قد حان، لم يتعرف عليها للوهلة الأولى بنزعها للضمادة وبكل هذه الألوان التي خضَّبت بها وجهها، ثم طلب منها التريث قليلًا فقد كان الفضول يتآكله لمتابعة الاحتفالية، لكنها أخبرته بحزم :

- إما الآن، وإلا أبدًا!

فتحرك من مكانه مرغمًا وتركها تسوقه متملِّكة زمام أمره.

ظن للوهلة الأولى أنها ستقوده باتجاه الكهف، لكن ما جعل للحيرة نصيبًا من نفسه أنها سبقته باتجاه الغابة، التي سبق أن مرا بها في

طريقهما إلى مملكة "النسر". فتعجب أشد العجب واستوقفها متسائلًا، فطلبت منه بنفاذ صبر أن يتبعها في صمت. حلَّ غضبه محل حيرته، فكظمه متبعًا خطاها دون أن ينبس بكلمة.

أثار سيره في الغابة رغبته في الهرب منها، مر بخاطره مغامرته القصيرة المرعبة مع حيوان "البنغول". فاقشعر جسده للذكرى. لم تتعمق به "بِنَان" كثيرًا في الغابة، انحرفت حيث الجبل الإسمنتي الشاهق الذي مرا به في طريقهما من قبل. أخبرته أن عليهما تسلقه حتى القمة! كاد أن يسألها عن طريق آخر أكثر سهولة، لكنه أحجم عن ذلك مخافة أن تُصيبه بمقالة يكرهها، أو بسخرية تنال من كرامته. نظر إليها فأبصر على وجهها عزمًا بغير تذمر، فكتم عنها شعوره، وجدَّ في سيره كي لا يتأخر عنها.

- أنتِ رشيقة الحركة جدًا، كيف يتسنى ذلك لمزارعة؟

كانت المهمة يسيرة في بادئ الأمر، ثم ما لبث أن اتحد طول المسافة ووعورة الطريق مع الشمس والحر، فازداد الأمر صعوبة.

- ومتباهية أيضًا!

التفتت تنظر إليه بدهشة، فأكمل طريقه دون أن يلتفت إليها، فتبعته متسائلة وفي صوتها نبرة حدة:

- ماذا قلت؟

لم يجب، فازدادت حدتها.

- هل أنت أصم؟

- .....

تأجَّج غضبها، فتمتمت بصوت حرصت على أن يصل إلى مسامعه:

- جبان!

توقف عن السيروالتفت إليها معاتبًا، فاستكملت طريقها تسبقه دون أن تعيره انتباهها.

لم تنقطع له حيرة حتى بلغا منتصف الجبل بعد زمن لم يستطع تقديره، سوى بأنه طويل وحار. نظر حوله فأفضت به إحدى الجهات إلى التلتين اللتين اجتمع أهل المملكة فوقهما، لم يتبدَّ له سوى قمم رؤوسهم السوداء المتلاصقة اللاهية في حفلها. كبثور صغيرة تجمعت لتشكل تشوهًا فى غرة التل! أو أرض خضّبها الشحم فأمست غبراء ملوثة! بعين النفور نظر إليهم، وتأمل في نفسه حائرًا من هذا النفور الذي لا يقف له على سبب، ولا يُفضي به إلى معنى.

على يساره امتد النهر "الأسود" كهوة سحيقة، طولها كعرضها!.. متساوي الأركان إلى الحد الذي أثار فيه دهشته، وانبعثت من رقودها ريبته. صرف وجهه عن العين المراقبة للشمس التي مسَّت بلهيبها جبهته.

كان بأفكاره عنها مشتغلًا، حتى رنا إليها ليجدها تأكل دونه، فدنا منها وقد أخرج طعامه من جعبته، لا يدري إن فعلها جودًا وكرمًا، أم ليحرجها بكرمه، أم مزيجا من الاثنتين، لكنه قدَّم لها بعض طعامه ممعنًا النظر في قسمات وجهها التي ارتبكت هنيهة، ثم وَلَّت عنه بشطر وجهها متمتمة بكلمة شكر، عن مسامعه خطفتها الريح هاربة.

- من هو "آصلان"؟

كان يعلم أنه بسؤاله سيثير فيها الغضب قبل الألم، لكن السؤال ظلَّ يقرع عقله حتى طرحه على مسامعها وهو للجواب متلهفٌ. اشتهى مما تأكل فامتد بطرفه إليه وهو يسألها بحركة رأسه إن كانت تسمح له، فاجتمع في وجهها الضيق ونفاذ الصبر، فالتقم ما اشتهاه وتلذذ بمذاقه مستمتعًا، ثم قال:

- تلك عادة بغيضة جدًا، كثيرًا لا تجيبين على الأسئلة.

أجابته بينما تزج بالطعام في جوفها بغير شهية:

- وأنت لا تكف أبدًا عن الأسئلة.. فضولي!

قالتها بملامة، فابتسم حين يجب أن يغضب، ثم طرح عليها سؤاله مرة أخرى، فقالت ساخرة، ولإهانته متعمدة:

- ولحوح أيضًا.

فحاججها متحديًا:

- ألم تخبروني أن "آصف" كان يُعلم تلاميذه ألا يكفوا عن طرح الأسئلة أبدًا، أعتقد أن في ذلك خير دليل على أنني بالفعل خرجت من تحت عباءته.

لاح طيف حزن بعينها التقط صورته قبل أن يغوص بأعمق أعماقها، فلم يشأ إزعاجها أكثر، أكمل طعامه موليًا للسماء وجهه، مستمتعًا بصرير ريح مداعبة لجبينه. حدَّث نفسه بصوت تسمعه:

- كل شيء هنا عجيب، أشعر بالغربة إلى الحد الذي يجعلني أظن أني لم أعش في هذا العالم قط.

ثم استطرد بعد عدة ثوان لا يسمع خلالها إلا أنفاس مرافقته، وهمهمات الريح:

- الذكرى الأولى برأسي انتحار، تُرى كيف ستكون الأخيرة.

- انتحار!

التقط الدهشة في صوتها، فأدام النظر إليها موضحًا:

- أخبرتك أن أول ذكرى لي كانت مع غريب ألقى بنفسه من فوق صخرة عالية، وتحطم جسده أمام عيني.

- كلا، لم تخبرني.

تفكَّر قليلًا ثم همهم:

- مممم، لعلها كانت "أكيلا".

لم ينتبه إلى الفضول الذي داعب رأسها، فاستطرد وهو ينفض عن أطرافه ما علق بها من تراب ناعم:

- لقد قتلها أصدقاؤك، "الجوييم".

أشارت مستنكرة:

- لازلت مصرًا على نعتهم بما ينعتهم به أعداؤهم!

فتدارك ذلك ببرود:

- عذرًا، أقصد أهل "باسطين".

طلبت منه المزيد من التوضيح حول "أكيلا" وقصتها، فالتمع الخبث بعينه، قائلًا وقد سره ما بدرعنها من اهتمام:



- هل أصبحتِ فضولية الآن؟

أطرقت بوجه كساه الضيق:

- انس ما قلت.

توهجت بداخله الرغبة في الثرثرة، فطفق يقص عليها تفاصيل معرفته بـ"أكيلا" وما حدث معهما، كان وجهها يزداد احتقانًا حتى اتقدت عينها بالشرر مع آخر كلماته، ثم انتفضت قائلة:

- لا أصدق هذه القصة المختلقة!

- أتتهمينني بالكذب؟!

- كلا، بل أتهمك بالسذاجة.

لم تبال بإغضابه واستطردت مستنكرة:

- كيف انطلت عليك تلك الحيلة؟!

- أي حيلة؟.. ومن الذي سيحتال عليّ؟

- فتش عن المستفيد.

هز رأسه، وقد تعكر مزاجه كثيرًا، فأجابت سؤاله الاستفهامي الذي لم ينطق به:

- كنت تتفاخر منذ قليل بأنك أحد تلاميذ المُعلم "آصف"، ألم ترشدك فطنتك إلى أن "ريشَع" وتلك الـ "أكيلا" هما عضوان لنفس الجسد، جمعا أركان اللعبة معًا، وأنت كالأحمق وقعت بفخهما.

تملَّك منه الضيق فهتف:

- ما هذا الآن، تؤلفين القصص!.. أنتِ لم تري كم كانت "أكيلا" ترتجف أمامي خوفًا من الجو.. من أهل "باسطين"، الذين يسعون لقتلها. لم تسمعي عنف صرخاتها وهي تدفعهم عنها عندما اختطفوها بالقوة. لم تري جثتها وهي ملقاة على الأرض في الساحة.

- الجثة منزوعة الرأس!

بسخرية قالت، وبتحدي أردفت:

- وكيف لك أن تتأكد من أن الجثة تخصها؟

لاذ بالصمت لبرهة ثم ببرود سألها:

- وبماذا سيستفيد "رِيشَع" من تلك اللعبة؟

أجابته فورًا وكأنها أعدت الجواب مسبقًا، أو تعرفه كنفسها:

- سيضمن ولاءك.

حدقا ببعضهما للحظات قطعتها موضحة بحماس:

- هكذا يجند "رِيشَع" عملاءه، إما بإغرائهم بالخروج من باطن الأرض والعيش في أبراجهم العاجية فوق الشجر، وإما بغسل عقولهم وحقنهم بالكراهية تجاه أهل "باسطين".

ثم أردفت:

- وأنت بنفسك شاهدٌ على صدق نظريتي.

رفع عينه إليها بتعجب، فاستطردت بابتسامة ثقة، ونظرة ظفر:

- لقد كان النفق الذي ادعت "أكيلا" أنها تنوي الهرب منه بلا مخرج، لماذا؟.. لأنها كانت تعلم جيدًا أنكما لن تصلا إلى نهايته أبدًا.

لاذ بصمت طويل هذه المرة، يُقلب كل الاحتمالات برأسه، لم تمِلْ نفسه بعد طول تفكير إلى شيء. لا يصدق! ولا يكذب! لذلك وقف في منتصف المسافة منتظرًا التماس مزيد من الأدلة.

سمعها تقول بخبث:

- ثم إننا قادرات على التصرف بهستيرية متى أردنا ذلك، إنه سلاح دفاعي لاستدرار العطف لا تملكونه أنتم.

قال متفكهًا بخبث مشاكس:

- إذن إما أن عدد الأسلحة كان ينقصه واحدٌ، أو أنكِ أضعتِ خاصتكِ.

قالت بحزم تضع الجملة الأخيرة لإنهاء حوار لا ترغب في مواصلته:

- ليس معنى عدم استخدامي له أنني لا أملكه.

التقط رغبتها، لكنه واصل حديثه:

- أتعلمين، قوتك لا تنبع من طبيعة قاسية، بل من الغضب، وهذا أسوأ.

أردف دون أن يبدر عنه أدنى اهتمام بالشرر المتقد بعينها:

- رد الفعل الناتج عن القسوة يتبع قوانين السبب والنتيجة، أما في الغضب فإنه كثيرًا ما يفقد المنطق. لذلك نحن أكثر قدرة على التعامل مع

متحجر القلب عن سريع الغضب. لأننا نفهم الأول ونتوقع خطوته التالية، وهذا لا يتاح لنا مع الثاني.

ثم استطرد:

- إذا تبخَّر غضبك فستتجلى هشاشتك بوضوح، لذلك تحافظين عليه مشتعلًا بداخلك.

قالت متظاهرة ببرود هتك ستره صوتها الناري:

- هل أصفق لك.

أكمل بعناد وقد فقد قدرته على تلبية نداء الصمت:

- أعرف أنني أغضبتك بجنون الآن، لأنني أتحدث عن أشياء شخصية جدًا، عن تلك الخصوصية التي تُميزك عن غيرك، والتي تعلمين أنها لا تثير إعجاب الآخرين ولا تفخرين بها.

لم يتعجب إذ نهضت وقد همت بمواصلة السير دونه، تبعها متباطئًا في بادئ الأمر، ثم غذى السير للحاق بها. غاص في أفكاره محاولًا استشراف ما سيسفر عنه لقاؤه بـ "آصف". سألها بغتة:

- ما معنى اسمك؟

ظنها لن تجيبَ، لكنها قالت بعد برهة:

- رائحة.

- رائحة!

- نعم، رائحة.



سألها مازحًا:

- وأي نوعٍ من الروائح أنتِ؟

هزت كتفيها قائلة، وهي تركل الرمال بقدمها:

- أترك ذلك للآخرين، كلٌ يحدد الرائحة التي يحس أنها تعبر عني.

ثم سألته بخجل:

- ماذا تشم أنت؟

- رائحة قذرة جدًا.

توقفت تصعقه بنظرات غاضبة، فأشار إلى جثة مطمورة أسفل الرمال، يتبدَّى منها رأسها وأحد أطرافها، دنا "القزم" من الجثة المتحللة، رغم الرائحة الكريهة التي تنبعث منها، وأعمل نظره في الوجه الذي يراه للمرة الأولى، ثم عاد إلى جوار "بِنَان" التي تقلص وجهها بإشمئزاز، يسألها:

- ما هذا؟

- يبدو أن هناك من قتله ودفنه هنا.

قال ساخرًا:

- ظننت أن مملكتكم خالية من الشرور، وأن الجلاوزة قادرون على تخليصها ممن يحملون بذرة الشر.

استكملا سيرهما، وكل منهما شاردٌ فيما أهمَّه، أفاء إلى نفسه عندما بددت كلماتها صمتهما الطويل، وقد شخصت نظراتها إلى السماء:

- كان أحد تلاميذ المُعلم "آصف".

فهم سريعًا عمن تتحدث، فتسوَّرت الدهشة وجهه، وامتزجت بأمارات الفضول، تتدافع برأسه الأسئلة.

- قلتم أن تلاميذ "آصف" من الأمراء فحسب.

أومأت برأسها إيجابًا، فازداد نهمه.

- هل كان "أصلان" أميرًا؟!

تأخرت هزة رأسها ثانيتين، ثم سألها:

- ظننته واحدًا منكم.

ندم على مقولته عندما هتفت بازدراء، قبل أن تسرع في خطاها مبتعدة عنه:

- كان واحدًا منا شئت أم أبيت، هل تعلم من الذي لن يُصبح منا أبدًا.. أنت.

بعد سير مديد، سبقته إلى قمة الجبل، شحذ غضبها من همتها لتتخلص من مهمة مرافقته ثقيلة الوطء. انتظرته في الجهة المُطلة على "النهر الأسود"، حتى دنا منها مُتعب الجسد مُنهك القوة، وبينما هو يسألها عن خطوتهما التالية متلفتًا حوله يستطلع المكان، انطلقت عقيرته بصرخة فزع عالية، تردد صداها عاليًا، عندما دفعته "بِنَان" بكل قوتها ليسقط من فوق الجبل!

***



الملف الثالث والعشرون

من بطن "شجرة الطاقة" يأتي الصغار إلى عالم مملكة "النسر"!

غشيت سكرة اللهفة الأفراد المجتمعين أمام "شجرة الطاقة"، التي تسبق "فم النار" بعدة خطوات تسمح للهيب حرارته أن يلفح وجوههم. يعلو أحد أوراقها عينا الملك الجديد الذي اعتلى عرش مملكتهم اليوم. يتوسل كل منهم إلى العين المباركة، وإلى "شجرة الطاقة" المُعمرة، أن تهبهم صغارًا، في ترانيم امتدت حتى كلَّ منهم الزمان، وتثائبت أركان المكان.

تقدم كل فرد يهب أُضحيته لـ "شجرة الطاقة"، بذرة يضعها بتجويف عميق بساق الشجرة. أشار الجلاوزة إلى الجميع بأن عدد المضحين اكتمل لهذا اليوم. أفل مغادرًا من تمكن من استوداع أُضحيته، فرحًا يعلو وجهه البِشر والأمل، بينما كسى الحزن وجه الباقين، يوصون أنفسهم وبعضهم بالصبر، انتظارًا لمضي أربعة أيام أخر، حتى يُتاح لهم تقديم أضحيتهم في احتفال يوم الزينة القادم الذي سيُنصب فيه ملكٌ جديدٌ للمملكة، وعندها سيتوسلون إلى نور عينيه أن يهبهم أبناءً لهم.

انتهى الحفل، وتشتت الجمع، أمنَى بعضهم نفسه بليلة طويلة بصحبة الأرق، يكتوون فيها بنيران الشوق، حتى يأتي فجر الغد، حاملًا في جعبته صغيرًا لكل فرد قدم أُضحيته لـ"شجرة الطاقة".

***

فاجأته السقطة التي لم يجمع لها أهبته، ولم يتجهز لها بجهازها. ظن أن النهاية قادمة لا محالة، كاد قلبه أن يتوقف هلعًا وهو يسقط من ورقة إلى أخرى ومن غصن إلى آخر، وقد فشل في التمسك بأي منها، لشجرة لبلاب عملاقة تشرف على الجبل من جهة الغابة، فيمتد أحد أغصانها المتفرعة إلى جانب الجبل المواجه للنهر، عملت كمحضن لسقطته. تميل إلى الأسفل باتجاه النهر بزاوية حادة أوراق لم يكن بها من اللزوجة ما يعينه على التمسك بها.

انتهت رحلته القصيرة الخطرة مع آخر ورقة عملت كوسادة مرنة خففت من حدة سقطته، فوق مساحة محفورة بجنب الجبل، بينما جسده ينتفض هلعًا، ظن أن مع نهاية الشجرة لن يجد حائلًا بينه وبين الغرق في مياه النهر. فشل في الوقوف على أقدامه لفرط رعشتها، قلبه يضج بصدره كمن مسه الجنون.

سخى عليها في الغضب، وجاد بعصبيته وحدته قائلًا متقطع الأنفاس، عندما انتهت سقطتها هي الأخرى مع آخر ورقة بجانبه:

- لقد تجاوزتِ حدك بالفعل.

قالت باستفزاز متشفيَّة، وهي تنهض وتعدل من وقفتها:

- ألم تقل أن سريع الغضب معتوه لا يتصرف بمنطق، ها أنا قد أثبت صحة نظريتك، ينبغي أن تكون فخورًا بنفسك الآن.

هتف فاقدًا الكثير من رحابة صدره:

- لم أقل معتوه! لكن أعدكِ أنني سأعيد النظر في ذلك.. كيف تفعلين هذا بي، لقد ظننت أنني والموت وجهًا لوجه.



- جبان.

- إذا كان كراهية الموت جُبنا في نظركِ، إذن نعم أنا جبان متمسك بالحياة.

وقفا متواجهين كبطلي مصارعة، أبصرت للمرة الأولى الشرر بعينه، لكنه فشل في أن يحتفظ به سوى لحظات، استعادت بعدها عينه بروية صفاءها. غمرتها الحيرة، كيف يسكن الصفاء عينه دائمًا، ولا يكون العكر سوى زائرًا سريع العيادة، قليل المقام. مر بريق خاطف بعينها وارته سريعًا، وهمس لها فؤادها بنبضة وأدتها.

- أدرك أن مكمن كرهكِ لي أنني لا أشبه بطلكِ "أصلان" في شيء؟

استبد بها الاضطراب، منحته نظرة دهشة وهي تقول:

- هل تلعب معي! ولماذا يدفعني ذلك إلى كرهك؟

قال مقتربًا منها خطوة قلَّصت المسافة بينهما إلى النصف:

- أنتِ ذكية جدًا لكن يحلو لكِ التظاهر بالغباء أحيانًا، وهو بالمناسبة سلاح دفاعي أرقى من استدرار العطف.

- ليس لدي وقت ولا مزاج للعب معك.

تمتمت مبتعدة عنه. سلكت الجهة اليمنى من المساحة المحفورة التي تطوق خصر الجبل، فتبعها مُبقيًا على مسافة بينهما. مُنتبهًا إلى خطواته، زلة واحدة لأقدامه وسيجد نفسه بقاع النهر.

***

- لا أريد أن أخسر مكانتي بعين "بِنَان". لا أريد أن يُفتضح أمري.

- هل ينبغي عليّ أن أذكركِ مرة أخرى أن "بِنَان" سينتهي أمرها بعد أربعة آيام من الآن.

- فلتحرق في "فم النار" يا "جادور". لقد فعلت ذلك بها متعمدًا.

سقم وجهها، وتواترت عليها المخاوف. نبذ عنها آخر رمق لعنادها قائلًا بتهديد صارخ:

- لا يمكنكِ أن تتوقفي الآن، لقد سلكتِ هذا الطريق بإرادتكِ، لم أجبركِ على شيء، بل في الواقع توسلتِ إليّ لأرشدك إليه.

ابتلعت مقاومتها، وشخصت ببصرها وقد تكالبت عليها الظنون:

- ماذا لو انكشف ما أفعله قبل احتفالية "الفداء الكبير"؟.. ماذا لو قُبض عليّ متلبسة بجرمي؟.. سينتهي أمري، لن يرحمني أحد، ولن يتشفَّع فيّ أحد.

- لا تخافي، سأكون بجواركِ.

تطلعت إليه بتوجس، يغلب على ظنها أنه لن يفعل ما يعد به، وسيكون أول من يزج بها في "فم النار" إن افتضح أمرها. لن يرهق أنفاسه في الدفاع عن آثمة تحمل بداخلها بذرة الشر، لن يخاطر بمكانته عند الجميع من أجلها.

أخرج من جعبته ما وأد بها التردد، فتوقفت مخاوفها عن الإبحار برأسها، تحدق بشغف في القطعة العجينية، تتلقفها محتضنة إياها بأطرافها. تهلل وجهها عائدة إلى مسكنها، تُدلك بها كل جزء من جسدها

بانتشاء، تعبث بها خيالات الرشاقة، من رحيق زهرة لا تنبت إلا في تربة الكهف، تحاول بها استعادة نضارة ذوت، لتعود إلى آخر عهد لها بجمال الأميرات.

***

بلغا أخيرًا مطلع شجرة "اللُّوَيّ" بحبالها النابتة التي تتعلق بالجبل وتلتف عليه كالأفعى، تنتهي حبالها بأوراق دائرية متدرجة الأطراف. امتدت منها الحبال لتربط الجبل بآخر يبعد عنه بمسافة ليست بالقليلة. لا يمكن بلوغ فتحة لممر سري بالجبل الثاني إلا بتسلق تلك الحبال والتنقل من واحد إلى آخر.

غلب "القزم" توترَه عندما أبصر بعض الحبال الواهية، والتي تقطَّعت، تتلاعب بها الرياح كيفما شاءت. قال لـ "بِنَان" مُفصحًا عن مخاوفه من أن الحبال لن تتحمل ثقل جسديهما. على الرغم من نظرات الهزء والسخرية التي رمته بها، بيد أنها دنت من الشجرة وأعملت سكينها في أحد الحبال في موضع ضعيف. استقرت أمامه ثم لفَّت طرفه حول خصرها، ومنحته الطرف الآخرة ليحذو حذوها. لانت ملامح وجهه، وطفق يسألها باهتمام:

- لماذا تفعلين ذلك؟.. إن سقطتُ سأسحبكِ معي.

هزت رأسها وبتلقائيه أجابته:

- يجب أن يعتني رفقاء المهمة ببعضهم البعض.

- لكننا لم نتعاهد على أن يحمي بعضنا بعضًا.

- العهود التي لا ننطقها نكون أكثر قدرة على الوفاء بها، لأننا نكتبها بماء القلب.

حصرت اهتمامها في التأكد من إحكام العقدتين، فغاب عن إدراكها سنا نظرات شغوف استقر فوق حنايا وجهها. انبعث من خافقه دفقات دافئة متواترة، فتعلَّقت أفكاره بأنفاسها.

دون وعي نُقشت على وجهه ابتسامة صافية، أبصر طيرًا مضطرب الجناحين يحوم بسواد عينها. خرج صوتها مضطربًا، وقد زوت من وجهها تتكلف العبوس:

- لماذا تبتسم ببلاهة؟

ذابت بسمته وتلاشت ليأخذ الحرج بذيلها. تلجلج بداخله سؤالٌ أسره في نفسه عن طبيعة علاقتها بـ"أصلان" بعدما عرف أنه كان أحد أمراء المملكة. استقر عزمه على استقراء الجواب من الأدلة التي تتوافر له، لأنه يعلم أنها لن تجود على سؤاله بالجواب.

أرخى الليل سدوله، فاستمدا من القمر أنيسًا لرحلتهما الصامتة من حبل إلى آخر، اجتمع الإرهاق مع صعوبة المهمة فطالت المسافة بين الجبلين. اشتد عليهما سلطان البرد فاستلهما منه علو الهمة، فالدفء ينتظرهما بداخل النفق السري. لم يكن في هذا الموضع ماء، ولا على مقربة منه، فتحملا الظمأ والجوع الذي يقرص معدتيهما.

انقضت نصف المسافة فرنا إليها مبصرًا ما تبدَّى فوق وجهها من علامات الإرهاق، لكنها بعزم وعناد واصلت، ولم تلتفت إلى طلبه أن يلتمسا قليلًا من الراحة. لعل الشرود الذي أصاب عقلها، أو البرد الذي

خدر أطرافها هو ما جعلها تُفلت الحبل بغتة لتسقط بقوة في اتجاه مياة النهر. انخلع قلبه لصرختها المفاجئة، عمل ثقل جسدها على سحبه لأسفل، فازداد تشبثه بالحبل، لم يضيع أنفاسه في سؤالها إن كانت بخير، أو ليطمئنها ويزيل عنها القلق. بذل جهده في سحبها إلى الأعلى، فأبصرها وقد نفضت الخوف عنها وشرعت في تسلق الحبل لتعينه في مهمة إنقاذها.

وصلت إلى الحبل الذي يتمسك به فتشبثت به بدورها، ران الصمت إلا من همهمات الريح وأنفاسهما المتقطعة، وضربات قلبيهما المهتاجة. أعمل نظره فيها ليتأكد من سلامتها، ارتسمت فوق وجهها ابتسامة من أعذب ما رأى، وبكلمات تحمل من حرارة الامتنان ما تحمله من الفرح بالنجاة قالت:

- شكرًا لأنك لم تقطع الحبل.

تجمَّد في مكانه واجمًا، شعر بوخزات كلماتها تخز في قلبه وتؤلمه.

***

الملف الرابع والعشرون

استلقى "القزم" على جانبه ببلوغ مدخل الممر السري بقلب الجبل، تتهادى نظراته الشجية بين أركان مكان ذي طبيعة غرائبية. نهر وتلال، ورمل وجبال، وغابة وسحابة، وسماء بأسرجة وهاجة، وكأس موت على الجميع يُدار، وطبيعة تنطوي كل صفحاتها على بدائع وأسرار.. فاستبدت به الحيرة وخطر بعقله سؤال، أمِن رَحِم العبَث تُخلق هكذا حياة؟!

استل سيف الصمت، فجرحها بحدة شفرته. طفقت تجول في النفق، لا تبعد عنه مسافة كبيرة، حتى تعود إلى مدخله حيث يستريح "القزم" من وعثاء الرحلة. كشفت زفراتها وحركاتها غير المستقرة عن توترها، فلاذ بتجاهلها. استكانت على مقربة منه، تحدق به محاولة ترتيب كلمات خلقتها من العدم. أدركت صعوبة المهمة عندما بدَرعنها جملة استشعرت فيها السذاجة:

- لقد حلَّ الليل.

ثم أضافت بحدة متعمدة:

- استغرقنا بسببك وقتًا أطول مما ينبغي.. فأنت بطيء الحركة كالدودة.

تعامد القمر مع فتحة النفق فتخضب وجهاهما بشذرات ضيائه، لا يفارق عن القمر عينه استجلب طعامًا من جعبته، وقضم قضمة كبيرة

ظل يلوكها طويلًا بروية. استلقت على جانبها تولي السماء شحوب وجهها، تساهر النجوم، وتشاطرها مبعث ضيقها بوجه ساوره الوجوم.

- سينشغل الجميع غدًا بتوزيع الصغار على المُضحِّين.

أمعنت النظر إلى وجهه فلم تر هزة رأسه التي اعتادت مرآها عندما يساوره الفضول، ويلح برأسه السؤال. قضم قضمة أخرى من طعامه، ولايزال الصمت يلازمه، فجأة قالت بغيظ:

- أنت لا شيء.

خرجَ عن صمته، رفع رأسه بتحدٍّ قائلًا:

- إذن لماذا تتحدثين إلى هذا اللاشيء..لماذا أنتِ مهتمة أن تقولي للاشيء أنه لا شيء..لماذا تهدري أنفاسكِ في مشاكستي؟

كان دورها لتلتزم الصمت. ولم تجب على سؤاله:

- لماذا لا تثقين بي.. ها؟

استجلبَت قسماتها ألوانًا من الضيق وهي تولي وجهها شطر السماء. بعد وقت طويل انتظمت أنفاسها أخيرًا، واستسلمت عينها لطيب الكَرَى.

***

استيقظت فتمطَّعت متثائبة، انتفضت فزعة عندما لم تجد "القزم" حيثما تركته، كانت السماء قد تخضبت بأولى سهام قوس الشمس. دَنَت من بداية فتحة الممر يتدلى عنقها للأسفل حيث النهر، انقبض قلبها وهي تتخيله يصارع المياه بجنون قبل أن يلفظ فيها آخر أنفاسه.

التفتت بغتة تنظر بداخل النفق عندما تنامى إلى مسامعها قرع خطوات، ساورتها السكينة عندما دنا منها دون أن يتحدث بشيء، قطع أخيرًا هذا الصمت متسائلًا وهو يشير إلى داخل النفق دون أن ينظر إليها:

- هيا، فلنُتم ذلك.

أومأت برأسها إيماءة علمت أنه لن يراها، مضيا في طريقهما يغذيان السير، لولا قدرتهما على الرؤية خلال الظلام لما رأيا لنفسيهما موضع قدم، حتى والشمس تسكن صدر السماء. بدا كأنه نفق بلا نهاية، تعجَّب من قدرة "آصف" على حفر ممر بهذا الطول، لابد أنه استعان بتلاميذه، تساءل في نفسه "تُرى هل كان أحد الذين ساعدوه في حفر النفق؟".

لم يكد يتم سؤاله في رأسه حتى قطع طريقهما أحد أفخاخ المُعلم "آصف"!

***



الملف الخامس والعشرون

رغم التعب الذي حلَّ بجسده إلا أن "جادور" واصل الحفر داخل النفق، كلما تحولت الرمال إلى اللون الداكن ازداد حماسه. فتلك إشارة تنبؤه أن الباقي قليل.

- ماذا تفعل هنا؟!

التفت يحدق في مُحدثه بلامبالاة، أعقبها استمراره في عمله دون أن يبدرعنه التفاتة أخرى، تعالت صرخات "داموس" المستنكرة:

- "جادور" هل جننت، قد يراك أحد.

انقض عليه جاذبًا إياه بعنف، فأبعده "جادور" عنه وهو يهتف به:

- وماذا أفعل إن كنت متلكئًا في عملك، أتعلم أنه ليس لدينا وقت لنضيعه؟

احتقن وجه "داموس" وبغضب صاح به، وهو يدنو منه بمشيته العرجاء:

- أوتظن أنني لا أعلم ذلك.

- لقد أصر ذلك الغبي على أن تذهب به "بِنَان" إلى مسكن النفاية "آصف". لدينا فرصة ذهبية لنتم هذا الأمر قبل عودتهما فلماذا تضيعها؟

- و"سُلاس" هل نسيت أمرها. نحتاجها لنجاح خطتنا بعدما نتخلص من "القزم" و"بِنَان"، إن رأتك الآن سيثير ذلك شكَّها، وسترفض بعناد تقديم المساعدة.

نظر إليه "جادور" قائلًا بحزم:

- حسنًا لكن لا تتلكأ واجعلها تساعدك هي و"مُعاقبها". مشاكلي مع "راعون" تعقدت كثيرًا وقد يغدر بي في أي لحظة، وجهوده في البحث عن مخبأ "قوة الكون" زاد نهمها، يجب أن نملك تلك القوة قبل الجميع.

أومأ "داموس" برأسه إيجاباً بنفاذ صبر، لم يكن في حاجة لمن يُذكِّره بمدى حساسية الوقت بالنسبة لهم، يجب أن يصلوا إلى مبتغاهم في أقرب وقت، مهما كان ثمن ذلك، ومهما كانت التضحية. يعلم أن "جادور" ليس الشخص الأمثل لقيادة فريقهم السري، يعلم فيه من الانتهازية والصلف والغرور ما يجعله أسوأ مرشح ليُنصبوه عليهم قائدًا، لكن لا حل أمامهم سوى ذلك، لا قائد غيره لديه من السلطة والنفوذ والحيلة ما يساعدهم في حربهم مع أهل الكهف بملوكه وأمرائه وكبرائه. تذكَّر يوم أن أتاه أحد أفراد ذلك الفريق ليطلعه على مآربهم ويطلب منه الانضمام إليهم، وكيف اتقد قلبه بالحماس وهو يُصرح بموافقته دون ذرة إبطاء.

منذ أن وعي الحياة في مملكة "النسر" وهو يكره ذلك التقسيم القسري، الذي لم ينشأ إلا من عبث الطبيعة بهم، فلماذا يترك مصيره لعبثها طالما بإمكانه أن يغير كل شيء، طالما بامتلاكه تلك القوة سيتمكن هو وفريقه من قلب موازين المملكة، وامتلاك قلوب أفرادها، لن يملك أي منهم أن يعصي لصاحب تلك القوة أي أمر. وسيكون بإمكانه الانتقام من

"ريشَع" قائد محاربي"مينورا"، لن يوافق على ما يتطلع إليه بعض أفراد الفريق من الاتحاد معه من أجل مزيد من القوة والنفوذ. لم يبذل تلك التضحية العظيمة بأغلى ما يملك، من أجل أن يقف جنبًا لجنب مع من قتلوا أباءه وأجداده، لم يُضَحِّ بـ"بِنَان" ليضع يده في يد ملك "مينورا"، بل ليسوموه وأمراء مملكته سوء العذاب.

يجب أن يصل إلى تلك القوة التي ستوحد جميع أفراد مملكة "النسر"، تساوي بين الجميع، وتجعلهم على قلب فرد واحد..

لكن تُرى على أي قلب سيجتمعون؟!

***

تمثَّل أمامهما سدٌّ عالٍ من الرمال يصل إلى السقف، بلا منفذ للمرور، تملَّك الإحباط من قلب "القزم" على الفور، أخبرته "بِنَان" بحيرة أن المُعلم "آصف" كان يهوى صناعة الأفخاخ، ولا يعلم إلا تلاميذه طريقة الفكاك منها، لكنها لم تكن على علم بأنه وضع فخًا بهذا الممر، لم يخبرها "أصلان" بذلك أبدًا.

- ألم تأتِ إلى هنا من قبل؟

سألها باهتمام، فهزت رأسها نفيًا، وأجابت بمرارة أحس بها:

- لا، لا يلتقي المُعلم "آصف" بالعامة.

- لماذا صنع هذا الممر إذن؟.. ظننت أنه من أجلكم، أقصد من أجل أن يتواصل معكم.

تمتمت وهي ترنو إليه بأسى لم تحجبه:

- كلا لم يصنعه من أجلنا، بل من أجل تلاميذه المنبوذين المستبعدين من الكهف، أولئك المحكوم عليهم بالنفي في مساكن الشعب.

أومأ برأسه متفهمًا وهو يتمتم:

- مثل "سُلاس".

- نعم، و"أصلان" أيضًا.

صمت لبرهة يستوعب ما قالته، ثم سألها بفضول:

- ما قصة "سُلاس".. هل تظن حقًا أنها...

أكملت كلامه:

- جثة، نعم ولا.. إنها تهرب من واقع لا تريد مواجهته، وهي تعلم جيدًا أنها تهرب، وتعلم أننا نعلم أنها تهرب.. تخترع القصص وتصدقها، وتعيش فيها.. لكننا ندعها تتصرف على راحتها، يكفيها ما أصابها.

ثم قالت بأسى:

- ليس من السهل أن تتحول بين يوم وليلة من أميرة إلى مجرد رقم.. ليس لديك أدنى فكرة عن القهر الذي تتعرض له أميرة منبوذة على أيدي أفراد الشعب، إنهم يتعاملون معها كجثة بالفعل، جسد بلا روح.
- لماذا عوقبا؟.. أقصد "سُلاس" و"أصلان".

- كانا يكثران من الأسئلة!

قالت ذلك باقتضاب، وابتعدت عن مرمى نظراته المغلفة بالدهشة والاستياء، تولي اهتمامها لتفحص السد الرملي بأطرافها. دنا منها متفحصًا إياه بدوره وهو يسألها:



- أليس لديكِ أي فكرة عن كيفية فك شفرات هذا اللغز؟

لم ينظر إليها لكنه توقع هزة رأسها نفيًا.

ضمَّ السد ثلاث فتحات طوليًا، تتسع كل فتحة فيهم لقرص خشبي دائري احتل منتصفها، وعلى كل قرص حُفر من الخارج شكل مختلف. حُفر على القرص الأعلى رسم لشجرة واضحة الساق تنتهي بأفرعٍ بآخرها عدة دوائر صغيرة تعمل عمل الأوراق. وعلى القرص الخشبي الثاني حُفر رسم لأحد الطيور، أما القرص الأخير حوى رسمًا لجناح بغير جسد.

وعلى الأرض كان هناك جزع شجرة مُلقى بغير أوراق. وقف "القزم" أمام كل ذلك حائرًا، يحاول أن يقف لهذا اللغز على حل، فابتدرته "بِنَان" قائلة بحماس:

- لابد أن في هذا المكان رسالة تركها المُعلم "آصف" تحوي سؤالًا، علينا أن نبحث عن السؤال لكي نتمكن من اختيار القرص الخشبي الصحيح، أظن أننا يجب علينا دفعه للداخل فلا مجال لإخراجه من هذا الثقب.

بحثا في جدار النفق وفي الجزع الملقى أرضًا عن رسالة محفورة، لكن لم يسفر بحثهما المضني عن شيء، حتى صاحت "بِنَان" بحماس:

- يا لي من غبية، بالطبع؛ إنها رسالة قلبية!

هزَّ "القزم" رأسه، فشرحت له مُرادها:

- إنها تلك اللغة التي يجيدها تلاميذ المُعلم "آصف" وحدهم، لا أحد قادر على قراءة الرسالة سواك، هيا حاول.

ساورته الحيرة، فنظر إليها مستفهمًا:

- كيف؟!.. ماذا عليّ أن أفعل؟!

- الرسائل القلبية تلتقطها من الهواء، عن طريق الرائحة، ثم يتفاعل معها قلبك ويقرؤها.

- لا تمزحي، أليس كذلك؟

تلوَّنت عيناها بالحنق وهي تقول:

- لقد فعلتها من قبل، أتذكر، عندما شممت رائحة البنفسج أمام مسكني، مختلطة بصرخاتي التي لم أنطق بها، هيا افعلها الآن ثانية.

لم يدر ماذا عليه أن يصنع، وقف أمام الجدار يتشممه مرة بعد مرة، ثم انتقل منه إلى الجدار الآخر يفعل معه بالمثل، حتى سألته "بِنَان" باهتمام:

- هل وجدت شيئًا؟

- نعم.

انفرجت أساريرها وقالت بلهفة:

- أخبرني.

- رائحة رطوبة مختلطة بنسمات الصباح.. مممم! وأيضًا قليلًا من رائحة معدنية، أظنها تشير إلى أنني بحاجة إلى الاغتسال.

دفعته بقوة، فسرى في النفق ضحكة مكتومة. أشارت بعينها إلى جزع الشجرة، دنا منه كثيرًا فنصحته أن يبتعد عنه بعض الشيء علَّ القرب

منه يُفسد عليه التقاط الرسالة بشكل صحيح. ظلَّ واقفًا أمام الجزع كأنه في صلاة، يرنو كل حين إلى "بِنَان" وكتفاه يهتزان إشارة إلى قلة حيلته، فتعكَّر مزاجها. طلبت منه أن يخفي مثلث الرؤية الذي يتوسط جبهته، علَّ الظلام يُحفز من حساسيته لالتقاط الروائح.

عمَّ سكون يشوبه صفير النسمات الهاربة من فتحة النفق، مختلطة بشذا الأشجار وعطور البكور ورحيق الزهور. علم أن عليه تجاهل كل هذه الروائح، ويفتش عن رائحة تقع في قلبه موقعًا مميزًا، رائحة تحرك قلبه أسلس من الماء، وألين من أعطاف النسيم.

تحركت سَواكِن وَجْده وشغفه، وبحركات متواترة انتفض قلبه، تزلزلت فيه مَكامِن الأشجان، وبدا وكأنه سافر إلى غير زمان ومكان. أنصَت إلى أنّات فؤاده، متململًا من فرط شوقه لسماع حكاياته، وحنينه لقراءة همساته ونبضاته. اخترق صوتها هذا الصخب مشيرة إلى وجه تغيَّر، وأنفاس تقطعت، وبلهفة تساءلت إن كان تمكن من قراءة الرسالة. أجابها أنه لا يدري إن كانت تلك هي الرسالة، لكن قلبه التقط ما أثار أركانه، فنشر ما انطوَت عليه تلك الرائحة من دقائق وأسرار:

- لا أدري كيف جمعت بين حرارة الألم وطِيب الأثر، إما أنها تستلذ العذاب، أو به تُحقق مآربها. يختلط فيها لون السماء العذب بطين مَسَّه سواد طبقات الجحيم. يشوب صفو سعادتها دائمًا كدر، كأنها والسعادة خطان متوازيان أبدًا لا يلتقيان، إلا بجسور على شفا جرف هارٍ لا تألف الاستقرار. يستعر بها الحنين إلى لحن قديم، أو لعلها ترنيمة اعتادت سماعها من أنفاس كانت بقربها تتردد. لكن نغماتها ظلمات فوق ظلمات، فلا تُبصر للحياة معها موقع قدم.

تقطعت أنفاسها، وتعلقت أنظارها بوجهه لا تفارقه، أردف بصوت متهدج مرتعش:

- أسمع نغمة تطرب فؤادها أمْسَت قريبة حد الدماء في عروق الوتن، تهزم جيوش الدُجى وتغزل قلبها بلون الشفق. صُبح يُمحي بطلعته سوادًا حالكًا، يسبل على جروحها جميل ستر، وكما يفضح النهار حديث الأزهار، تتوق حدائق أسرارها لكشف سرٍّ.

التفت صوبها كاشفًا عن جبينه، تلبَّست نظراته بنظراتها، لعينها بريق أضاء كالمشعل في ظلمة النفق، استرسل هامسًا:

- تلك هي المرة الثانية التي يغمرني فيها هذا الشعور.

رددت مشدوهة:

- الثانية!

أومأ برأسه، قال وقد لاحت على شفتيه بسمة عذبة كالتي اعتلت وجهه بالأمس:

- عندما كدت تسقطين في النهر، ورفعتك إلى جانبي.. كانت تلك هي الأولى.

باضطراب شديد قالت وهي تُبعد وجهًا ينطق بالكثير:

- طلبت منك أن تبحث عن رائحة الرسالة.. وليس رائحتي.

تجنب النظر إليها، وشاب صوته بعض الحرج:

- حاولت، لكن هذا ما طرق قلبي، لم أتعمد ذلك.



ثم قال وهو يلتفت حوله ويشير في الهواء:

- لعله لم يترك رسالة، ولعله ليس فخًا، فلنحاول اختيار أحد الرموز.

اقتربا من الأقراص الخشبية، أبقت على مسافة بينهما وهي تقول:

- شجرة.. وطائر.. وجناح فراشة أو نحلة ربما. ما معنى ذلك؟ وأيها سنختار؟

أشار "القزم" إلى القرص الخشبي الذي حوى حفر الطائر وقال باهتمام:

- أظن أنه نسرٌ.. إن كان كذلك فهو الاختيار الصحيح.

هزت رأسها متسائلة باهتمام:

- ولماذا يكون هو الاختيار الصحيح؟

هز رأسه وهو يتمتم بغير ثقة:

- لأنه يشير إلى اسم المملكة. لعل هذا هو السؤال الذي نبحث عنه.

تبسَّمت ساخرة وهي تتوجه إليه بنظراتها قائلة باستهزاء:

- أتظن المُعلم "آصف" بمثل هذه السذاجة. لا أدري كيف تكون أحد تلاميذه!.. إن كنت ستقابله بعد قليل أنصحك ألا تخبره أنك قلت ذلك. سيتبرأ منك إن عرف.

ظننت أنها سترى الضيق في عينه، لكنه فاجأها بابتسامة واسعة وهو يقول متخابثًا:

- عاد نسركِ إلى التحليق من جديد.

سألته مستنكرة وهي ترجع رأسها للخلف:

- أي نسر؟

مقتربًا منها أشار إلى عينها وهو يقول:

- إنه يُعشش هنا، ويستيقظ عندما تشتد الحرارة وتستعر النار حوله.

- هل تلعب....

قاطعها بعُجالة مستجلبًا قسمات جادة:

- هيا، لقد أضعنا الكثير من الوقت.

ولأنها لم تكن تملك فكرة أفضل، وقفت بجواره تستفرغ وسعها معه في دفع القرص الخشبي، لا ترفع عينها عن النسر الذي يتوسطه. حتى تزحزح القرص إلى الخلف. وعندها سمعا صوت اصطدام، ثم زحزحة غرضٍ من موضعه. توقفا عن الدفع، وتساقطت فوق رؤوسهم الرمال من أعلى السد الرملي، فابتعدا عنه ينظران إلى الصخرة التي برزت منه دافعة طبقة رقيقة من الرمال كانت تواريها عن الأعين حتى ظنا أن السد كله من الرمال. انطلقت عقيرة "القزم" بالصراخ هو يسحب "بِنَان" إلى الخلف وقد استشعر الخطر:

- احذري، ستسقط الصخرة.

- هل أنت واثق؟

انطلقا يجريان، وقد طافت الصخرة الكبيرة بخيالهما وهي تسحق جسديهما أسفلها. سمعا صوت ارتطام الصخرة بالأرض فدفعها "القزم" بكل قوته إلى اليسار وهو يصرخ فيها أن تتسلق الجدار. وصلا إلى سطح

النفق تمامًا عندما مرت الصخرة في الموضع الذي كانا يقفان فيه منذ بضع ثوان فحسب. لم يكادا يفرحان بنجاتهما حتى اتسعت أعينهما فزعًا إذ أن الصخرة سدت بحجمها الكبير مقدمة النفق الضيق. فانغلق طريق عودتهما، وأضحا حبيسين داخل النفق. ركل الجدار بقدمه بقوة حانقًا، رنت إليه ببصرها وهي تقول:

- لا تقلق، سيجد لنا المُعلم "آصف" حلًا.

عندما بلغا أخيرًا المسكن في آخر النفق، أيقنا أن هدف رحلتهما لم يكن سوى سراب. لا وجود للمُعلم "آصف" في مسكنه. بدا مهجورًا لا حياة فيه. تخبَّطت "بِنَان" من الحيرة، فالجميع يعلم أنه يقضي حكمًا أنزله عليه مجلس حكماء المملكة بألا يغادر مسكنه طوال حياته، تُرى إلى أين ذهب، وكيف تمكن من مغادرة المسكن! ولماذا باب المسكن مفتوح بلا جلاوزة تحرسه؟! كانت تسأل نفسها بصوت مرتفع، فيجيبها الصمت، وعبوس "القزم" الذي لاح بعينه اليأس، واستبد بقلبه الأسى.

***

الملف السادس والعشرون

دنا "القزم" من شُجيرة صغيرة مزروعة بأحد أركان المسكن، تتدلى منها أزهار حمراء كقلب مقلوب تنتهي بقمع أبيض، فاسترجع لحظاته الأولى في الغابة، عندما اقترب من زهرة مثلها وأكلها جوعًا، إنها الشيء الوحيد الذي يذكر له اسمًا ويعرف له وصفًا؛ زهرة "القلب الدامي" السامة التي كادت أن تقضي على حياته!

اهتاجت مشاعره وتحسس الزهرة بشغف كأنها حبيبة قديمة أبهجه لقاؤها! وكأن مسًا أصاب عقله طفق يتحدث إليها وينشدها أن تقص عليه ما يجهله، وأن تخبره بكل الحكايات التي يتوق لسماعها. لم تجبه الزهرة لكن حنينا بقلبه أثقله، فاستقطب من المكان ذكرياته، ومن الجماد همساته. لم يدر إن كان مبعث الشرارة الأولى فيه رأسه أم قلبه، لكن الهتاف تمكن من مسامعه حتى ظن أن المكان كله يضج به، بل العالم بأسره. نفت "بِنَان" سماعها لأي صوت، فاتجه إلى الجدار يتحسسه، يُقلِّب فيه النظر كأنما يُبصر فيه وجوهًا يألفها، يرمي بسهام اليقين في كبد الحيرة.

اقترب منه حتى التصقت به وجنته، تهتك حاسته القلبية حُجب الماضي وتدك بعزمٍ أسوارَه. أصوات متداخلة لا يميز أصحابها، تضج بالحديث والمزاح واللعب والضحك، صرخات ألم وأنات وحنين وبكاء. وكأن الجدار حبس بداخله حيوات كاملة. حاول بإصرار سبر أغوارها، وأن يُحِطْ خُبرًا بمآلها، خفي عنه معرفة الكثير، لكن الجدران وشت له بآخر

ليلة ضمَّت أصحاب هذا المسكن، تخترق قلبه صرخات قلوبهم، وهلع نفوسهم، ومخاوف تسوَّرت بعنفٍ عقولَهم، إنه الموت قادم يجز رؤوسهم! إلا رأسًا كان يعلم أنه لن يلقى مصيرهم، بل مصيرًا أشد ظلامًا وقهرًا. إنه "آصف". لم يستدل من الجدران على قسمات وجهه وبنية جسده، لكنها أخبرته أن له قلبًا كأفئدة الطير، كان سر حياته، وهلاكه!.. تفتَّح بقلب "القزم" بابٌ، كشف عن عرشٍ خالٍ تاه عن ساكنه، فتاقت نفسه إلى هذا الغائب الحاضر، المقيم المرتحل، لا يدري إن كان حيًا أم جمادًا، نورًا أم هواءً.. كل ما يشعر به ويقر في فؤاده، أنه عظيم جدًا، وأنه الصانع الأعلى!

دنت منه "بِنَان" فامتزج صخب الماضي بدقات قلبها، التفت يرنو إليها تغشى عينه دمعة لم تألف رؤياها. همست بحذر مغلَّف بالتردد مخافة أن تُفسد عليه تلك اللحظات، ويفقد ما استمسك به أخيرًا من قدرة حاسته القلبية:

- هل توصلت إلى شيء؟

أومأ بهزة خفيفة من رأسه، حتى كادت تظن أنها إنما يُخيل إليها أنه أجابها. غلَّفت نفسها بالصمت وتركته متى شاء يُبدده، بعد فترة قال بخفوت:

- لازلت أجهل هويتي.. لكني علمت أين ذهب "آصف".

رنت إليه متسائلة، فاستطرد بقنوط:

- نفاه قائد الجَلاوزة "راعون" عند الجدار الشرقي لنهاية العالم. تركوه هناك ليموت، عطشًا وجوعًا.. ووحِدة وقهرًا.

استنفذا طاقتيهما، فعمدا إلى البحث عن طعام، والتماس الراحة. نادته "بِنَان" تُخرجه من شرود ألَمَّ به، فأقبل عليها يحدق في القطع البلورية الملساء، بيضاء كالثلج، متعددة الزوايا، حادة الأطراف، متناسقة بإبداع.

- بلور ملكي، تذوقه، إنه الأروع.

ما إن أكل واحدة حتى سرت بداخله طاقة كبيرة ممتدة من جسده حتى الأطراف. ومع الثانية شعر بأنه متقد الذهن، صافي الفكر بشكل لم يصل إليه من قبل، لم يكد يتناول الثالثة حتى ظن بجسده قوة تكفي لتحريك الجبال.

- إنه طعام الملوك والأمراء، مؤكد أنك معتاد عليه، ألم ينعش طعمه من ذاكرتك؟

أجابها رغم فطنته لسخريتها:

- لم أتذكر أي شيء.

رفعت عينها إليه بنظرة صامتة، فبادلها بمثلها، فضحت نظراته عما يعتمل بداخله، قالت:

- ستتذكر.

يعلم أنها تهب له شربة ماء يتصبَّر بها،لا تروي له ظمأ، ولا تشبع فيه رغبة، لكنه استحسن صنعها. ابتسمت تحاول أن تُبدد ضيقًا اكتوت به قسماته:

- أظن أن لدي فكرة عمن يكون ذلك الغريب المنتحر الذي حدثتني عنه من قبل.

كما توقعَت، أولاها جُل اهتمامه، محركًا رأسه ليحثها على الإفصاح عما تعرفه.

- أظن أنه "معاقبك".

مرة ثانية حرك رأسه مستفهمًا، تناولت قطعة بلورية منتشبة بمذاقها، فدنا منها والتقط نظراتها، لمح في عينها ترددًا لم يخمن له سببًا، سوى أنها تخشى أن تسبب له الحزن أو الألم بكلامها، فسألها مباشرة أن توضح له معنى أن الغريب "معاقبه"!.. فقالت:

- لكل أمير بالمملكة "معاقب" من الشعب، يلازمه ولا يفارقه، يتلقى عنه العقاب إن اخترق قوانين المملكة.

- لم أفهم!

لم يكن بحاجة لأن يُفصح عن ذلك فقسماته تشي بغياب فهمه، أردفت بسرعة وكأنها تُلقي عنها حملًا ثقيلًا:

- لا يتلقى الأمراء عقابًا قط، بل ينزل العقاب جلدًا على ظهور معاقبيهم، هكذا جرى العرف في المملكة، لا يُعاقب أمير قط.. لأنهم سلالة نقية لا يحملون بداخلهم بذرة الشر حتى وإن أخطأوا.

تحرك مبتعدًا عنها، يروح ويغدو متخبطًا كطير أصاب جناحيه سهمٌ سامٍ، لكنه أصر على أن يحاول استئناف طيرانه، فدنا منها قائلًا بحدة مشمئزًا مما سمع:

- لا أصدق ذلك، هل كان لي أنا أيضًا "معاقب"؟.. هل كان ذلك المنتحر يحترق ظهره جلدًا بسبب أخطائي أنا؟.. ألهذا السبب قتل نفسه؟

عاجلته قائلة:

- لا أظن.

- أي مختل وضع مثل هذه القوانين في المملكة!

- لم يضعها أحد.. تكتسي الأعراف برداء القانون بيد أنها أكثر صرامة أحيانًا. القانون يُفرض على الجميع قسرًا وقد يجد من يعارضه، لكن العُرف ينشأ منهم وفيهم، لذلك لا يرفضونه ولا يقاومونه.

- كيف يتحمل أحد أن يدفع كل لحظة من حياته تكفيرًا لذنوب غيره!

أطرقت برأسها قائلة:

- على العكس مما تظن، تكمن الصعوبة في البداية فحسب، ثم...

تعلقت أنظاره بها، رفعت إليه وجهًا يصبو تفهمًا، وقد سكن عينها ديمة شجن:

- في البداية تشعر بظلم كبير، تتذوق مرارته كل لحظة، يحرق فيك الأخضر واليابس. لكن ليس أصعب من الظلم سوى أن تُقهر على عدم صده، أو الدفاع عن نفسك ضده، أو حتى محاولة الفرار منه. إنه كطريق نُسف مدخله، ولم يبقَ لك سوى أن تسير إلى نهايته.. إلى نهايتك. ذلك القهر يحطم نفسك شيئًا فشيئًا بضراوة السم وإصراره، إنه كوحش يتغذى على روحك حتى لا يدع لك سوى نفس مشوهة لا تعرفها ولا تعرفك.



سألها بغتة:

- "حَبُوك".. هل هو...

بتر سؤاله مترددًا، فأومأت برأسها إيجابًا، لكنها أضافت ما شق للصدمة طريقًا إلى نفسه:

- إنه معاقب "سُلاس".

لاذ بالصمت للحظات، ثم سألها بعدم تصديق:

- كيف؟.. أعني لقد شعرت أنه يكن لها مشاعر خاصة.

هربت بنظراتها مما ألهب فضوله، أجابته باضطراب مغلف بالحدة:

- أنت لا تفهم، إنه لا يملك سوى أن يشعر نحوها بذلك، نعم هو "معاقبها"، يحمل على ظهره كل خطاياها، تحترق روحه بسببها، لكنه مجبرٌ على حبها.

باستنكار هتف بها:

- ما تقولينه هو الشذوذ بعينه.

بصرامة أردفت متحدية:

- لا زلت لا تفهم شيئًا، قلت لك أن ذلك ليس باختياره، لم تمر بهذا الأمر من قبل لتدرك أن الحب والكره لهما من عنف المشاعر ما يجعل فيهما الكثير من التشابه، ينطوي كلاهما على الضعف والألم، لذلك من السهل أحيانًا أن يتحول الواحد منهما إلى الآخر. أنت تحب وتتعذب لكنك لا تملك على قلبك سلطانًا تدفعه به بعيدًا عمن تحب، أنت تكره وتتعذب

لكنك في لحظة يأس قد تصبح أسيرًا لأول يد تطيّب جرحك حتى لو كانت يدَ جلادك.

التقطت أنفاسها ثم قالت بحزن:

- لا تعرف معنى الشوق إلى أن تكون مجرد يد لجسد.. أيِّ جسد.

دنا منها فاضطربت بشدة، رأى بعينها خوفًا لم يجد له في البداية ما يبرره، ثم اهتدي إلى ما دفعه لأن يسألها وهو ينتقي كلماته بعناية:

- وهل جربتِ أنتِ هذه المشاعر لتتحدثي عنها بهذه الثقة؟

أطرقت بوجهها تواري ما كرهت أن تُبديه، مَسَّ مرفقها بحنان ودفعها لأن تواجهه، وبهمس ردد اسمها. ظلت ساكنة لا يبدر عنها مقاومة، انقبض قلبه وهو يسألها:

- "بِنَان"، هل كنتِ معاقبة "أصلان"؟

ضجَّ قلبه بالغم وهو يبصر فيها "حَبُوك"، حتى يكاد يُجزم أنه يرى انحناءة جسدها، وقُبة تعتلي ظهرها، اكتملت صورة "حَبُوك" بتلعثم كلماتها:

- ننعم.. أأنا كذلك.

***



الملف السابع والعشرون

لم يتبادلا حرفًا واحدًا أثناء سيرهما في ممشَى قصير، أفضى إلى فناء كبير في منتصف الكهف، ترشده بإشاره من رأسها إلى الطريق الذي ينبغي عليهما أن يسلكاه. غمرته البهجة وهو يتأمل ما حوله بعينين صحيحتين بعدما طال حجبه لإحداهما. بفضول أخذ يرمق الجلاوزة المارين بجواره. أبصر أميرًا يعتلي محفة يحملها عشرة من الجلاوزة، تلاقت عيناهما لبرهة استثارت قلبه ليدق بجنون. لكن موكب الأمير مر بجواره بسلام، رغم الاستنكار الذي استبد بقسمات الأمير وهو يرى "القزم" يسير على الأرض مع أنثى بعين واحدة، بالتأكيد ظنها "معاقبته" التي تلازمه كظله. لكن سيره بلا جلاوزة يحرسونه، وبلا محفة يُحمل فوقها هو ما دفع بنفسه إلى الاستياء من تصرف "القزم". لاح على وجه "القزم" سيمات الإمارة وهو يرفع برأسه عاليًا، ويستجلب لعينيه نظرة ترفُّع.

مال إلى "بِنَان" هامسًا لها بقلق وهو يرى الحارس الضخم يسد بجسده البوابة، التي تصل بين الكهف ومساكن الشعب:

- هل أنتِ واثقة أنه لن يؤذيكِ؟

لم يتلقَّ منها ردًا، فرنا إليها يصافح وجهه التوتر البادي على وجهها، فتوقف يقول:

- لن نفعل ذلك، سنجد طريقة أخرى.

- لا تقلق.

همست له وهي تنظر لجلواز بدا مهتما بهما، فهمست له أن يستمر في السير مخافة إثارة فضول أحد الجلاوزة المنتشرين حولهما.

استشعر "القزم" اختلاف المعيشة في الكهف عما هو الحال في مساكن الشعب، لمس هدوءًا افتقده طيلة الأيام الماضية، فالحركة هنا بطيئة وكأن الزمان اكتسب من برودة المكان شيئًا. شرفات كثيرة تشرف على ساحة الكهف من أعلى، تتفتح فيها قاعات كبيرة ومساكن عظيمة لأهل الكهف. أبصر سمات كبر واعتزاز تعتلي وجوه الجميع، حتى الجلاوزة بدوا أمراء متنكرين بأسلحتهم. قبل أن يأتي إلى الكهف ظن أنه سيجد فيه دواءً لغربته، لكن الرهبة تملكته، ودفعت بقلبه نفورًا جعله يزداد غربة فوق غربة. لم يشعر لحظة أنه ينتمي لهذا المكان. حتى تنامى بداخله الشك تجاه كل ما أخبروه عن نفسه، أيمكن أن يكونوا على خطأ، أيمكن ألا يكون أحد أمراء مملكة "النسر"؟

استقر أمام البوابة الأرضية يتأمل حارسها بقلق كبير، سحب "بِنَان" من مرفقها وهو يعيد عليها ألا تفعل وسيجد وسيلة أخرى للخروج من الكهف، ربما عبر البوابة الرئيسية، لكنها أخبرته أن الخروج من البوابة الرئيسية والمرور أمام كل هؤلاء الجلاوزة الذين يحرسونها ليل نهار قد يدفع بهما إلى المتاعب، خاصة إن تعرَّف عليه أحدهم، فلا شك أن تلاميذ "آصف" باتوا من صفوف الأعداء الآن. وإن علموا أنه أحد تلاميذه، وأنه لازال على قيد الحياة، فلن تمضي ثانية واحدة حتى يصححوا هذا الخطأ.

أخبرته أنها ستمر أولًا، ثم أردفت تشرح له ثانية:

- كما قلت لك، هذه البوابة مصممة بحيث تمنع دخول أفراد الشعب إلى الكهف، لكن الخروج منه لا يشكل عائقًا، إنها بوابة تعمل في اتجاه واحد فقط.

سبقته إلى المرور، ضجَّ قلبه بالخوف وحارس البوابة يدنو منها، يتشممها وأنفاس "القزم" تلهج بالخوف، ثم يسمح لها بالمرور، فتتنفس الصعداء. توقف عنده الحارس طويلًا، مما دفع برعشة اجتاحت أطرافه. واجه الحارس وضعًا غريبًا، لا يذكر متى كانت آخر مرة أراد فيها أميرٌ أن ينزح إلى مساكن الشعب، أو لعلها لم تحدث قط. لكن القانون قانون، "الدخول ممنوع، والخروج مسموح" فسمح له بالمرور. أحكم وضع الضمادة فوق عينه، افترقا عند الطابق الثالث عندما أخبرها بمزاج عكر أنه يحتاج إلى الانفراد بنفسه، فخرج من البوابة التي تُفضي إلى التل الأحمر، وطائر الحزن بعينها يلاحقه.

***

انبعث نور الصباح وهلَّل بذِكر فالق الإصباح، يرنو إلى فرحة كل فرد بصغير خفق له القلب، وبلغ به كل مأرب.

دسَّ "القزم" جسده وسط الجمع يترقب ما يحدث في فضول، نادى الجلاوزة أحد الأرقام فتقدم ذكر فتي، ليمد يديه داخل تجويف كبير ببطن "شجرة الطاقة"، ثم أخرجهما وقد حملتا صغيرًا بعين واحدة، يرنو إلى السماء بنظرات بريئة. تعالت صيحات تهنئة بقدوم صغيره إلى الحياة.

سكنت الدهشة أركان "القزم" وهو يرشق عينه بتجويف "شجرة الطاقة"، وقد ماست به نسمات الريبة. نشر في الأفق استهجانه فلم يجد

له فيه مشاركًا. انتفض عندما طرق أحدهم ظهره، التفت يتطلع إلى "سُلاس" التي اعتلى السرور محياها، تبدي له غبطتها بعودته سالمًا، شكرها وهو يعانق بنظره أنثى مبتعدة عن الشجرة وقد نضح منها التأثر، تنظر إلى صغيرٍ تحمله، تضمه إليها بشوق، تُقبله.

سرق الاحتفال الذي أوشك على الانتهاء منه الانتباه، فلم يسمع كلمة مما ألقتها "سُلاس" على مسامعه، جذبته تنبهه بضيق إلى وجودها، فسألها باهتمام عن الشجرة، فأخبرته -وقد سرها أن تتشارك معه في حديث يهمه- أن في احتفالية يوم الزينة، يتقدَّم كل فرد يبغى أن تمنحه الطبيعة صغيرًا ويُقدم أضحيته، بذرة يضعها بداخل "شجرة الطاقة"، يسأل عين الملك المباركة أن تهبه ذرية من نسله. هكذا تمنحهم الطبيعة الصغار بعدما ألمَّ العقم بكل ذكور المملكة بعد كارثة "الانفجار العظيم".

نَدَّ وجه "القزم" عن بسمة ساخرة، شاركته فيها نظرات مستهجنة، أشار إلى الشجرة هاتفًا مستنكرًا:

- كيف تصدقون ذلك؟.. شجرة تهب لكم صغارًا؟.. تريدين مني أن أؤمن بأننا خلقنا من رحم شجرة، وأن أصلنا شجرة لا تمت لنا بصلة لا روح ولا شكل.. إنه الجنون بعينه!

ملاطفة قالت:

- الأمر صعب التصديق أليس كذلك؟، لكنها الحقيقة. إن أرواحنا وأجسادنا هي نتيجة تطور لبذرة الأضحية.. والطبيعة ما هي إلا أم لنا جميعًا.

أولاها انتباهه قائلًا بحماس:

- ليس عندي مشكلة مع فكرة الأضحية التي تطورت إلى "نحن"، لكن ما يرفض عقلي تصديقه هو أن هذه الأضحية بمنتهى البساطة هي بذرة لشجرة!.. ألا تشعرين أن في هذا إهانة لذاتك، أن تكوني مجرد نتاج عملية تحول من بذرة توطأ بالأقدام؟

هزت كتفيها قائلة:

- معك أن الأمر ينطوي على بعض الإهانة، لكن ماذا نفعل هكذا هي الطبيعة، عابثة لا عقل لها.كل شيء حولنا هو نتاج تلك البذرة.

صمت برهة ثم قال متحديًا:

- إن كانت الطبيعة بهذا العبث، وبهذا العجز، إن كانت تفكر بعشوائية لا تحمل ذرة منطق، كيف يستقيم لها أن تُنتج أعمالًا بمثل هذه الدقة والإتقان؟

- كيف؟

جذبها بعنف آلمها لتنظر إلى الشجرة، وهو يشير إليها قائلًا بحماس أنساه كل ما حوله:

- انظري إليها، إنها تحمل الصغار في بطنها، في هذا الجويف المظلم تحديدًا، وأنا واثق أنه يحوي طعامًا يلزم الصغار كي لا يموتوا جوعًا. كيف حدث ذلك، كيف اختارت الطبيعة هذا الموضع تحديدًا ليحضن هؤلاء الصغار؟..لماذا لا تفعل ذلك مرة في البطن ومرة في الرأس ومرة في الأطراف، لماذا البطن في كل مرة، كيف تستمر هكذا في العمل الدؤوب المنتظم مرة بعد مرة. إن كان كل ذلك مجرد عبث وعشوائية فكيف هو التعمد والتخصص إذن!

صمت يلتقط أنفاسه ثم قال:

- ثم تريدين مني أيضًا أن أصدق أن هذه الشجرة التي لا عقل لها تهب أهل الكهف أبناء بعينين، وتهب أهل باطن الأرض أبناء بعين واحدة!.. وفوق ذلك أن كل شيء حولنا هو نتاج بذرة واحدة، البذرة أنبتت شجرة والشجرة من تلقاء نفسها وبلا ذرة تفكير أو توجيه تحولت إلى صخرة، والصخرة إلى سحابة، والسحابة إلى جبل، والجبل إلى مطر! لو سلَّمت لكم بذلك فلماذا كفَّت الطبيعة عن تحولاتها، هل عجزت عن مواصلة عبثها، أم سئمت من اللعب؟!

ارتبكت قليلًا ثم قالت بنفاذ صبر:

- كل شيء حدث بعد "الانفجار العظيم".

أكمل متحديًا باستهزاء:

- الانفجار الذي إن سألت كل من بالمملكة عنه لن أجد فردًا واحدًا سمعه أو رآه بنفسه!.

- لقد مات كل من رأوه منذ زمن قديم.

- كيف علمتم بأمره إذن، وبأدق التفاصيل التي تلت حدوثه؟!

هزت كتفيها:

- بالتأكيد من رأوه ولمسوا آثاره أخبروا أبناءهم، وأبناؤهم أخبروا أبناء أبنائهم، حتى وصل الخبر إلينا؟

- وما الدليل على أن هذه السلسلة الطويلة من الآباء والأبناء والأحفاد كانت من النزاهة بحيث تنقل الصورة كما هي؟



لم تُجب، فاستطرد متعجبًا:

- ثم كيف تقولون إن الطبيعة عابثة ثم تتخذون من هذا العبث قوانين لحياتكم؟!

تلفتت حولها بضيق وقد أجهدها كثرة أسئلته، ثم قالت متحدية وهي تهديه ابتسامة خبيثة:

- تريد أن تتأكد، حسنًا راقبني وأنا أتسلم صغيري، إنه دوري.

ساقته أمامها تخترق الصفوف بعدما سمعت رقمها يردده الجلاوزة، مضى معها مترقبًا حتى وصل إلى الشجرة، حاول أن يدخل رأسه في فتحتها فنهره أحد الجلاوزة، افتر ثغرها عن ابتسامة مرحة وهي ترمقه بشغف قائلة:

- فلتختره أنت.

تلبَّسته الرهبة وابتعد رافضًا، جذبته بإصرار فغلبه فضوله. تقدم يمد يده بداخل بطن الشجرة بحذر شديد، انتفض متحسسًا لرؤس الصغار، عددهم أكبر مما ظن، يملأون تجويف الشجرة العملاقة، تخترق مسامعه أصوات همهماتهم، أمسك واحدًا منهم وأخرجه، تأمله بعين حنون، صغير جدًا بدا له بعمر ساعات فحسب. بعين واحدة، يلتصق سائل لزج بجسده الغض، وتظهر آثاره حول فمه الصغير. دنت منهما "سُلاس" تتأمله بمرح مداعبة إياه وهو لايزال في بين يدي "القزم"، منحته قُبلة ثم رنت إلى "القزم" قائلة بحبور:

- إنه رائع، أليس كذلك؟

أومأ برأسه مضطربًا ومنحها إياه وقد شعر برغبة في التخلص منه، عاد يتأمل الشجرة مغتمًا يملأ الهم صدره، لا شيء من ذلك طبيعي، أو يحمل من المنطق وزن حبة خردل.

متحدية سألته:

- هل آمنت الآن؟

توقف بغتة، رمقها تداعب وجنة صغيرها للحظات، ثم قال بحزم قبل أن يتركهما مغادرًا:

- أتعلمين، أشعر أنني في عالم من الشواذ سمحوا للخرافات بأن تسيطرعلى عقولهم، والمصيبة أنهم فرحون بشذوذهم فخورون به.

***



الملف الثامن والعشرون

- للكننك ووعدت.

قالها "حَبُوك" بحزن، أما "بِنَان" فلم تُبد قسماتها أي انفعال، كما لو كان الأمر لا يعنيها، رمق "داموس" "القزم" بسخرية وهو يقول متشفيًا:

- كنت أعلم ذلك.

ثم تقدم من "بِنَان" يجر قدمه، يلومها قائلًا:

- حذرتكِ من الوثوق به، لكن كلماتي لم تقنعكِ، علَّ ما قاله الآن يتمكن من إقناعكِ.

تسرب الضيق إلى نفس "القزم" عندما أبصر وجه "بِنَان" محتقنًا، فقال بحنق:

- "بِنَان" أنا لم أخدعكِ، كنت أنوي بالفعل أن أشارككم في مهمتكم كما وعدتكِ، لكن اعذريني لا يشكل لي ما عرفته الآن أي منطق.

أعمل عينيه في الجميع ثم هتف مستكرًا:

- إنكم تسعون وراء أوهام، لو كنت أعلم أن مهمتكم الخطيرة هي الوصول إلى قوة الكون السحرية التي من شأنها أن تعيد إليكم عيونكم المفقودة، وتمكنكم من السيطرة على العالم لما وعدت بالمشاركة فيها قط! كل شيء هنا ليس سوى مرادف لكلمة جنون.. إنما السحر في عقولكم فحسب.

قالت "سلاس" التي تحمل صغيرها:

- لكن المُعلم "آصف" كان يؤمن بذلك أشد الإيمان، كان يُعلمنا من أجل ذلك اليوم الذي نتمكن فيه من استعادة تلك القوة التي كنا نمتلكها قبلًا.

هتف بغضب:

- أي قوة تلك التي سترغم العالم على أن يحني جبهته من أجلكم؟!.. إنها مجرد خرافة كما هي كل الخرافات التي تؤمنون بها.

ثم أردف باستنكار مُغلَّف بالازدراء:

- لماذا لا تطرحون الأسئلة أبدًا؟

- لسنا جهلة.

- بل الجاهل هو الذي لا يطرح الأسئلة.

اندفع "داموس" يصيح وقد احتقن وجهه، وتجمدت قبضته في الهواء:

- احذر مما تقول وإلا أريتك ما لا يسرك.

فاجأه "القزم" بأن تقدم إليه ليواجهه هاتفًا وهو يرفع رأسه ينظر في عينيه مباشرة:

- هل أغضبك ما قلت، إذن إليك ذلك، أنتم قطيع في مرعى لا يرى أبعد من العشب الذي يأكله، والبقعة التي يغمرها بفضلاته، يعجز عن ردع صاحب العصا، وكفَّ بصره عمدًا عن الذئب المتنكر برداء كلب حراسة، ينهشكم واحدًا بعد آخر.. هناك فارق كبير بين فقد البصر والبصيرة!

تظنون أن ما فقدتموه ليس سوى عينٍ واحدة، لكن الحقيقة هي أنكم صُمٌّ، بُكمٌ، عُميٌ لا تعقلون.

شهقت "سُلاس" بهلع، واندفعت "بِنَان" تفصل بينهما بعدما سدد "داموس" لكمة قوية في وجه "القزم". دفعت "بِنَان بـ "داموس" المهتاج إلى الجدار هاتفة به أن يتوقف، بينما جذبت "سُلاس" "القزم" لتسوقه خارج مسكن "حِبُوك" الذي انزوى في ركن قصي مرتعش الأطراف. جذب "القزم" نفسه من قبضة "سُلاس" بعنف، وتقدم خطوة صوب "داموس" هو يهتف بقوة:

- لا شيء هنا عبثي أو مصادفة كما تزعمون، كل ما يحدث هنا مُتعمد ومُخطط له، ويكشف عن حقيقة واحدة.. لابد من وجود صانع لكل ذلك.

التقط أنفاسه مستطردًا ولازالت "بِنَان" تمسك بأخيها، تحد من اندفاعه:

- وسأحرم على جسدي الراحة حتى أصل إليه.

ضاقت "سُلاس" ذرعًا بحركات الصغير فالتفتت تدفع به إلى "حبُوك" بحنق، ثم تلتفت إلى "القزم" قائلة بفضول:

- هَب أنك على حق، من هو هذا الصانع؟

- لا أعلم، لكني أشعر أنه موجود.

- لو كان هنا لرأيناه.

- لعل قدراتنا لا تؤهلنا لرؤيته.

ران الصمت دون أن يرده أحد، ثم فاجأهم وهو يقول بحزم:

- يجب أن ألتقي بالمُعلم "آصف".

رد نظراتهم قائلًا بإصرار لم يختبره من قبل:

- سأذهب إلى الجدار الشرقي لنهاية العالم.

لم يبال بنظراتهم، دار على أعقابه مغادرًا، لكن سهمًا حارقًا أصابه في مقتل، إذ قالت "بِنَان":

- أتعلم لماذا لا أتعجب وأنا أراك الآن تلقي بي في النار، لأنك فعلتها قبلًا في "باسطين"، دفعتني من فوق الشجرة لتسلمني إلى "رِيشَع".

ثم التقطت نفسًا طويلًا، وقالت:

- لهذا لم أثق بك قط.. أظنك حصلت الآن على إجابة سؤالك.

تجمدت خطواته، ونشب حريق تصاعد من قلبه إلى عقله، لم يستطع أن يتلفت ليرى نظرات الازدراء في عينها، هتفت "سُلاس":

- لا شك أنه لم يقصد.

ودنا منه "حِبُوك" يحثه على نفي ما قيل:

- هاااذا لييس صحييح، أأليس كذذلك؟

تركهم يتخبطون في أمره، وفرَّ هاربًا، يحمل زاده من الضيق والخجل.

لم يفلح استجداء "سُلاس" التي خرجت وراءه حتى مطلع الطريق في أن يغير قراره، ولا حتى بأن يوافق على أن تصحبه في رحلته، رتب نفسه وطعامه، وعلم منها الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه. استمسك بعزمه

ولم يطل التفكير مخافة أن يتبدد إصراره، ترك فضوله يسوقه، وقرر ألا يرجع إلا بعلم يشفي به غليل صدره.

أثناء عودتها إلى مساكن الشعب شعرت "سُلاس" باضطراب شديد اهتزت له أركان المملكة، فلم تبال لذلك ولم تصرف فيه تفكيرها، لكنها ما كادت تعود إلى مسكن "حَبُوك" حتى تملكها الفزع لمرآى "بِنَان" تجهش في بكاء عنيف، "وحَبُوك" يتمسك بالصغير وعينه ملبدة بالغيوم. فطنت إلى أن الأمر أكبر من مغادرة "القزم" للمملكة وإخلائه بوعده عندما هتف "داموس" بعنف:

- بِنَان" كيف أوقعتِ نفسك في هذا المأزق، قلت لكِ دعكِ من فكرة استزراع الفِطْر، لكنكِ كالعادة طرحتي بنصائحي عرض الحائط.

- ماذا حدث؟

ران الصمت طويلًا إلا من نحيب "بِنَان" وتأوهاتها، أجابها "حِبُوك" مرتعدًا يكتنفه الأسى:

- لقد ممات الكثييروون.

التفتت تنظر إليه، فأردف بصوت يتمزق ألمًا:

- ففطر "بِنَناان" قتتللهم.

***

نشبت نارٌ تستعر بثوابتها وأركانها، حاصرها دخان كاد يرديها صرعى، فكان لابد من أن تنفثه. أفسح لها الحفر ما يزيح غلتها، ضربة بعد ضربة، وركلة بعد ركلة، لكن قوة الضربات لم تعادل ألم الحسرات. بسطت

أطرافها ترجي لجرحها برأ، ولعلتها دواء، لكن خبا الأمل من الأفق وانزوى، ولم يبق لها سوى التسليم بأن حياتها استوفت أجلها، واستجلبت آخر مآبها.

فشلت في أن تعرف كيف تسمم أكثر من ثلاثمائة فرد بفطرها الذي اختبرته قبلهم، وكثيرون غيرها. توجه شكها في البداية إلى "جادور" فالفطر الذي تسمم به هؤلاء هو نفسه الفطر الذي وهبته له في آخر مبارزة بينهما في احتفالية "الفداء الكبير". لكنها اجتنبت هذا الريب فيه، عندما علمت بمداهمة الجلاوزة للقاعة الزراعية التي كانت تذخر بتجاربها، واختبروا فطرها أمام الجميع ليشهدوا أنه قاتل خبيث يحصد الأرواح والآجال في دقائق معدودات.

نقل إليها "داموس" صورة عن الغضب الذي ملأ قلوب الجميع، يتردد اسمها بينهم مصحوبًا باللعنات. انفطر قلبها وهي ترى مآل عملها وجهدها وصبرها تذروه الرياح في لحظة، وتتبدل سيرتها الحسنة بأخرى ذي معرة.

وفي الوقت الذي لا تملك فيه الظهور أمامهم والدفاع عن نفسها، تساءلت كيف تخرج عليهم حتى لو استردت عينها المفقودة، وأتتهم بقوة الكون تحت أقدامهم، بأي وجه ستلاقيهم، لا شك أنهم سينبذونها وينفرون من وجودها بينهم. حاولت أن تُكمل مهمتها في حفر النفق، لكن عزمها خار، ويأسها استثار. سألت نفسها ما الدافع، فلم تجد ما ترد به سوى تصديقها على إيمان غيرها، حتى أنها لم تر آية تدفعها لحظة لأن تصدق أسطورة استعادة قدرتهم على الرؤية كأقوى ما يكون، بقوة سحرية عن الجميع في عمق النفق مخفية.

غمرها قنوط الآيسين ومرارة الحنظل في حلوقهم، وهي تصارح نفسها للمرة الأولى أنها لم تؤمن قط، وإنما أرادت أن تحقق ما آمن به "آصلان"، لم تلتقِ بـ "آصف" ولم تسمع منه ما يدفعها للتمسك بعرى ذاك الإيمان، كل ما هنالك أنها اختارت السير في الدرب نفسه الذي سار فيه "آصلان"، دون حتى أن تملك سببًا قويًّا يجعلها تفعل، لم تملك سوى شعورًا بأنها مُلزمة باتباعه، وبالإيمان بما يقوله، وحث نفسها على بلوغ أهدافه!.

تذكرت حين حاججته يومًا فيما استشكل عليها، فنهرها "أصلان" بعنف قائلًا: "السؤال يُفسد الإيمان". فابتلعت شكوكها، ودفنتها في وادٍ عميق بعقلها، وردمت فوقها التراب. لكن هاهي تخرج من مخبئها وتحرق بنار متأججة فؤادها، وتنشر سرطانات الظن في عقلها. فلا هي تملك بردًا تُمسد به من القلب الوتين، ولا آيات ترمي بها في كبد اليقين.

لم يملك "حَبُوك" أكثر مما تملكه من الهمة في الحفر، كان إيمانه كإيمانها، باهت شفاف، يطبع ما برز له من الطريق، حتى لو منظرا قبيحا يسوء الناظرين.

لم يتملك الإيمان سوى من قلب "داموس" الذي بذل جهده في الحفر، يصل الليل بالنهار، فلا يرى نهاية لجهده سوى فوزه بتلك القوة التي ستعيد بناء موازين الحياة بالمملكة. سيحقق لفرقته أعظم الانتصارات، وسيبدأ عهدا جديدا لا استعباد فيه ولا خنوع ولا دموع. سيخرج من باطن الأرض ليعتلي صخور الكهف كسائر الملوك والأمراء. سيمتلىء تجويف عينه وسيُبصر أفضل مما فعل يومًا. لمَّا تذكر هذه المغانم انتصب عوده ورفع قوته عاليًا ثم هوى بها ليزيح من طريقه حفنة أخرى من الرمال.

أما "سُلاس" فقد استشكل أمرها على الجميع، أمست وردة ذابلة ملقاة في فلاة، لم تفلح جهود "حَبُوك" في إخراجها من عزلة مسكنها، وأضحى هو لصغيرها أبًا وأمًا.

لذلك لم يفرح سوى "داموس" بنجاحهم في الوصول إلى نهاية النفق، والذي أفضى بدوره إلى نفق ثان هو طريق ممهد إلى القبو الذي يحوى "قوة الكون"، لكنه لايزال بحاجة إلى أحد تلاميذ "آصف" ليمر من الفخ الذي يعلم أن "آصف" قد وضعه على باب القبو، و"سُلاس" هي المرشحة المثالية التي لن تُسبب له مشكلات، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا أن تفعل، بدت زاهدة في كل شيء، فقرر بصبر أن ينتظر حتى تنتهي مبارزة "بِنَان" و"جادور" في احتفالية "الفداء الكبير"، عندها ستفقد "سُلاس" جُل قوتها، ولن يهتم لأمرها أحد، وسيحملها قسرًا إلى حيث القبو.

***

سار "القزم" مسير الضال عن قافلته، يناجي الحقيقة التي لاحت له آثارها، لتتبدى له من مخبئها، تزيح عن عقله حُجُب الجهل، وتطمئن إليها نفسه. يسرح نظره في محيا الفلاة، تلتصق الرمال بأقدامه العاريات، حارة ملتهبة. خفق قلبه لزئير رياح شنَّفت مسامعه. وأيقظت فيه الرهبة والرغبة؛ الرهبة من غضب خرجت به في وجهه، ورغبة في أن يحدثها حديث النديم ليسبر غور أسرارها. إن كانت الرياح له أمًا فكيف تقسو الأم على ولدها؟.. كيف تمسح على سويداء قلبه الألم والشقاء بكفها. وعندما يعمد إلى شجرة ويجرحها بشفرة سكينه الحادة، ألا يكون بذلك ابنًا عاقًا لأمه؟

سارت به ركبان الريح، يبذل جهده ألا يحيد عن وجهته إلى الشرق، احتلت حاجته إلى الراحة من فؤاده منزلًا رحبًا فاستودع نفسه في ظل صخرة، يحجب عن السماء عينان تلتصق بهما الرمال الهائمات. لم تزل الرياح تضرب بجنون حتى ساورته أكلح الظنون، أن ما يقول به الجميع هو الحقيقة التي ارتحل ينشدها في مكان خاطئ. لماذا لا يكون الصواب هو ما اجتمع عليه أمرهم، لماذا لا يرى في إنكاره عين الشذوذ؟! لماذا يعقد عزمه في البحث عن غاية، لعل الحقيقة هي أن الغاية عدم، والحياة فوضى، والطريق سراب. لعل الأشياء تحدث بغير سبب، فقط سلسلة من الأحداث المتعاقبة وما عليه سوى أن يُسلِّم للطبيعة نفسَه تفعل به ولا تفعل.

وبينما هو يجول في معترك أفكاره، غسلت السماءُ العاصفةَ بدموعها، أما الريح فسكنت حركتها، جعلت تضؤل وتضعف صرخاتها، كصغير عاد إلى أحضان أمه فغشيه الأمان. فتعجب من إعجازها عقله، تغازل بروعتها قلبه، لماذا جاءت الأمطار في هذا الوقت، وراحت تبارز الرياح لتفوز عليها، وتمد على الأرض موائد الجود والإنعام؟!

ثم رنا إلى صبارة ترفع إلى السماء وجهها تغسله بالماء، وتحتفظ به في عروقها لتكبر ويشتد عودها. تعجَّب لماذا لم تختر السماء أن تسقط بدل الماء رمالًا، أو حجارة، أو أشجارًا، أو حتى مختلف شكول الثمار؟! كيف يتسنَّى للطبيعة التي لا تعقل أن يحكم كل تصرفاتها منطق، ويؤل بها إلى غاية؟!

عاود المسير يحمل من التردد اليسير، تذكَّر تجارب "حَبُوك" في مسكنه، والمواد الغريبة التي رآه يمزجها ويخضخضها ويسحقها وينشرها،

تذكَّر كيف جهل أمر هذه المواد حتى أخبره "حَبُوك" أنه سيجمعها معا ليحقق بكل هذه المواد المختلفة منتجًا أخيرًا، يكون له الفوائد والآثار. فأيقن أنه يطرح من البداية السؤال الخطأ، لذلك أساء الفهم ولم يصل بعد إلى جواب يشفي غليل صدره، لا يجب أن يسأل عن الغرض من كل عناصر الطبيعة البديعة إلى أبعد الحدود الاستثنائية في رسمها ووصفها، بل يجب أن يسأل الغاية من المنتج النهائي، ولكي يرى المنتج النهائي يجب عليه أن يصل أولًا إلى الصانع. إذا استطاع أن يتحاور معه ويفهم كيف يفكر، إذا فهم شفرة الكون فسيصل إلى الغرض من كل ما حوله، ومن وجوده وسط كل ذلك.

أسفر ذلك عن قراره بأن يقرأ كل ما حوله من رسائل ليستدل بها على ذاك الصانع الذي يملك منابت السحر وقوانينه ومفرداته، يملك القدرة والإتقان والإبداع. أضاء قلبه بشغف المعرفة، كان الوقود الذي يحركه، ويدفع به في هذا الإتجاه دون غيره. دفعته فطرته إلى البحث عن معنى؛ فلبَّى النداء.

صفعه الفشل مرة بعد مرة، لكن هذه المرة كانت صفعة قوية دكَّت أركان قلبه دكًا دكًا.

وصل إلى الجدار الشرقي أخيرًا، أبصر جسدًا ملقى أرضًا، اقترب منه تهزه إليه اللهفة، يُقلِّبه ملتاعًا، يتأمل وجهه مناجيًا بتضرع، هاجت لواعجه يبحث عن شيء من الحياة لا يزال يعانق هذا الجسد، لكن لا شيء، انفصمت عرى آماله.. وباتت الحياة أو انسلاخه عنها صنوان.. مات "آصف"..!

***



الملف التاسع والعشرون

أشرقت الشمس كرة متأججة نارًا، أشعتها أشد حرارة مما عرفته المملكة يومًا، يخفَى عليهم أن اليوم لن يمركأي يوم خبروه، ساعات شاقة مهيبة، ومفاجآت رهيبة تنتظرهم!

وكما كل احتفالية لـ "الفداء الكبير" تجمهر أهل الكهف وسكان باطن الأرض كل منهما فوق التلة التي تخصه، وبدأت الاحتفالية بـ "طقوس الطهارة"، تخللها رقصات الجلاوزة، تلاها دفع تسعة وسبعين من الإناث داخل "فم النار"، تلعنهم صيحات حماسية، باركَت صنيع أيادي الجلاوزة. شيَّعت "بِنَان" آخر أنثى، منهوكة القوى، وقسماتها تصرخ ألمًا. هدايا أخرى من بنات جنسها في طريقهن إلى محاربي "ريشَع".

يستبيحهن أنجاس دنسوا أرضها، وساموا سوء العذاب شعبها، أهل "باسطين" الذين ظلوا على العهد، كرمح في ظهور أعدائهم، ساعور أرضي لا يهدأ ولا تفتر ناره، يشوي أجسادهم ويحيق بهم الهزائم مرة تلو مرة، أصبحوا وأمسوا كمسمار يقض مضاجعهم، ويسلبهم الراحة، وشوكة استقرت في حلوقهم تذيقهم الشدة والبأس. ورغم نور الشمس الساطع رأت مملكتها مغشية بالسواد، وظُلم يفضي إلى ظُلم، وحياة أشبه بالممات.

إمعانًا في إذلالها، أمر "جادور" الجلاوزة بتقييد "بِنَان" ودفعها إلى التل الأحمر، على الرغم من أنها لم تبدِ أي مقاومة. مبارزة أخيرة بينهما ليشهد الجميع لحظة انتصاره عليها. لم ينسَ كيف أذاقته مر الهزيمة وهي ترتقي

في عيون الشعب بنتاج تجاربها الزراعية، لم يسامحها على انتزاعها عرش التضحية من تحته مرة تلو الأخرى، أرهقته في السعي إلى المحافظة على مكانته، لذلك أراد أن تكون لحظاتها الأخيرة على مشهد من الجميع.

وما إن وقعت أنظار الشعب عليها حتى تشتت عقولهم من هول المفاجأة، يكادون يُكذِّبون أعينهم التي تراها تتحرك أمامهم، بعدما شهدوا من قبل إلقائها في "فم النار".

أطرقت بطرفها كي لا تنجح نظراته الشامتة في أن تكسرها، واجهته بقسمات جامدة لا تفضح ما يعتمل بداخلها من ألم وهلع. ازدانت باللهفة عينها تبحث عن "داموس"، استقرت على وجهه، يقف جامدًا على مقربة منها، أرادت أن تستمد منه الشجاعة لمواجهة لحظاتها الأخيرة لكنها لم تستطع أن تفهم نظراته، فتغابت عنها، ومنحته ابتسامة ضعيفة استودعت فيها حبها له وإشفاقها على فجيعته فيها. انتقلت بعينها إلى "سُلاس"، يُخيل للناظر إليها أنها جسد بلا حياة، تقف هناك بوجهها الباهت ممنوعة من المشاركة في مثل هذه الاحتفاليات، فالأمراء والأميرات المنبوذون لا يشاركون أبدًا في تبادل الأضحيات مع باقي الشعب، نكاية بهم كما يقول قائد الجلاوزة "راعون". رغم كل شيء سرَّ "بِنَان" أن تترك هذا الأثر في نفس "سُلاس"، فمنحتها "بِنَان" ابتسامة مرتعشة تودع بها صديقتها الصدوق.

اختفي "حَبُوك" عن أنظارها، ودَّت لو منحها نظرة وداع، أحبت أن تكون آخر الوجوه التي تراها قبل موتها هي وجوه أحبة، تعلم أنهم يحبونها بدورهم، ولها مخلصون كإخلاصها لهم. أطرقت برأسها لئلا ترى عيون الجميع من حولها تتقد غضبًا وكرهًا، لكنها لم تستطع أن تسد مسامعها

عن سبابهم وقذفهم، حركت أقدامها بعصبية تتوسل في سرها إلى عين الملك المباركة أن ينتهي هذا العذاب.

ترقَّب الجميع ما يحدث، و"جادور" يلقي بكلمات تزج بحمم الكراهية تجاه "بِنَان" في قلوبهم فتشعلها، لم تستبد به الحاجة إلى أن يقترح عليهم أن تنتهي خسارتها بالقتل بدلًا من أن يتخذها أمة له، كانوا أسبق منه إلى هذا الحكم. تبادل نظرة انتصار مع قائد الجَلاوزة "راعون" الذي اعتلى عرشًا متحركًا، يلوذ بالصمت، ويراقب ما حوله بشغف. لم يكن بحاجة إلى ذِكر ما يدفع به أفراد الشعب إلى المطالبة برأسها، كان "جادور" يقوم بمهمته على الوجه الأكمل، تملَّك الغضب من الجميع حتى باتوا يتحركون كقطع الحجارة التي يتلهي بها "راعون" مع ندمائه، تصب في الاتجاه الذي يرغبه دون مشقة.

أكمل "جادور" خطبته هاتفًا وهو يشيح بيديه بحماس، وقد ألقى سهمًا أصاب هدفه من قلوب الجميع:

- ... حتى أن "فم النار" لفظها، لم يقوَ على حرق بذرة الشر التي يحملها قلبها، ها أنا أنصحكم يا شعب "النسر" وإني على مصلحتكم لحريص، إنها أشد عليكم خطرًا من ملك "مينورا" ومن كل أعدائكم.. إنها الشر نفسه.. شر لم تتمكن النار من أن تحرقه، لأنه والنار سواء.

زمجر الجمع، فاستطرد بقوة:

- حتى أنها فشلت الآن في تقديم أضحية تفدي بها نفسها اليوم، لكنني أرفض أن أتخذ مثلها أَمة لي، لم تُضَحِّ من أجلكم يا شعب "النسر" إلا بالموت الذي اختطف ثلاثمائة من أحبائكم، لذلك سأضحي بها من أجلكم.

تعالت صيحات الغضب تصم مسامعها، هتف بعضهم فتبعهم الآخرون:

- الموت لها.. الموت لها!

أشار لهم "جادور" ليهدؤوا فتعالت صرخاتهم أكثر، تدافع بعضهم بشراسة ليصلوا إليها، وغايتهم تمزيق وجهها وجسدها بأيديهم العارية، لكن حلقة الجلاوزة التي تطوقها أوقفت زحفهم. ارتجف قلبها ولاتزال تطرق برأسها أرضًا، استطرد "جادور" بحماس:

- عندما تعدَّت على قائدنا العظيم "راعون" بالسب وتم إلقائها في "فم النار" لِما يحمل قلبها من شرور، منحتها أمنا الطبيعة فرصة ثانية للعيش بيننا بسلام.. لكنها لم ترد السلام أبدًا، بل أرادت لكم الموت والهلاك.

- اقتلوها الآن.. الموت لها.

- ألقوا بها في "فم النار" ثانية، وجودها بمملكتها خطيئة.

- ألقوا بها لـ "نمر الأرض" ينهش جسدها.

- اتركوها لنا لنمزق أحشاءها ونخضب وجوهنا بدمائها.

احتقن وجهها بالخوف، فرفعت رأسها تنشد من أيهم المغفرة، صرخت فيهم بجل قوتها تُذكرهم بما جادت به من خيرات على مملكتهم، وما أطعمتهم به من فِطْر وحبوب وثمار ساعدتهم على البقاء أحياء في أوقات المجاعات، لكنها لم تر في أعينهم سوى الجحود، فأطرقت برأسها ثانية، باستسلام عليه مكرهة، وبه مقهورة. فتبادل "جادور" مع قائد الجلاوزة "راعون" نظرة انتصار، قبل أن يوجه للشعب شطر وجهه قائلًا:

- لذلك أرى أن القانون الجديد الذي اقترحه قائدنا العظيم "راعون" وصدَّق عليه مجلس حكماء المملكة هو قانون حكيم جدًا.. سيتم فرض أضحية يومية على الشعب كله، من ثمار أو حبوب أو أي غرض تجود به أيديهم، لن يقدر على مثل هذه التضحية إلا أصحاب القلوب النقية، ومن يرفض أو يتقاعس عن بذل أضحيته، سيظهر بذلك ما كان يبطنه في قلبه من شرور، وستتم معاقبته فورًا، إما بالموت، أو بضمه إلى عبيد قائدنا "راعون"، يسعى في خدمتكم وخدمة مملكتم.

احتقن وجه "بِنَان" وهي تتطلع إلى "جادور" بازدراء، ومنه إلى وجه "راعون" الناطق بالجشع، الأمر كذلك إذن، أرادوا تمرير هذا القانون الجديد عبر هذا العرض المثير الذي أضحت رغمًا عنها بطلته. أطالت النظر بيأس في وجوه الجميع، والتي يعلوها البِشر، والثقة في كلمات "جادور"، لا تدري نحو أيهما تشعر بالشفقة أكثر، على شعبها المخدوع، أم على نفسها لهذا المصير الأسود.

- لقد بدأت الحفلة دوني! آسف على التأخير فالصحراء طويلة، وأنا بطئ كالدودة كما تعلمين.

توجهت برأسها وبكيانها كله إليه، ضجَّ صدرها بكلمات لم تستطع أن تنطق بها، رمقها بعين شغوف تحمل أملًا لا تدري منبعه لتغرف منه هي الأخرى. ضجَّ المكان بهمهمات الحاضرين، ماذا يفعل هذا الأمير بالقرب من "بِنَان" القاتلة!.. دنا منه "جادور" بعدما تبادل نظرة قلق مع "راعون" الذي تلبسَّه الفضول، ثم قال:

- سيدي الأمير دام عُلاه، أرجو أن تبتعد عن تلك البائسة، أخاف أن ترميك بشررها.

استقر "القزم" مواجهًا له وهو يعمل نظره بوجهه ببطء دفع بالبرودة لتنساب إلى أطراف "جادور"، ثم قال بحزم:

- لقد أردت أضحيتك، وستأخذها.

عاد خطوات إلى الوراء إلى حيث استقر بجوار "بِنَان" التي لم تفارق عينها وجهه، تتأمله بفضول ودهشة كما يفعل الجميع، هتف بصوت مرتفع يخاطب الجميع:

- تريدون منها أضحية تُفدي بها نفسها، حسنًا، إنها تضحي لكم بـ...

صمت يتأمل الوجوه بهدوء استفز صبرهم فتململت حركاتهم، ثم هتف بحزم:

- ستُضحي لكم بعيني.

شهقات هنا وهمهمات هناك، واستنكار تعالت بها أصواتهم، وتعاظم في نفوسهم ما قاله. رنت إليه "بِنَان" بعين دامعة، أراد أن يهمس لها، لكن قاطعه "جادور" حاسمًا الاضطراب الذي سببته كلماته:

- لا يصح ذلك، لا تستطع تلك البائسة أن تُضحي إلا بما تملكه في يدها.

حدَّق به "القزم" بتحدٍّ، وبحركة بطيئة مدروسة أمسك بيدها دون أن يحيد بنظراته عن عين "جادور" القلقة، ثم رفعها إلى حيث استقرت فوق عينه، فضجَّ المكان بأصواتهم مرة أخرى.

- إنه يهبها عينه.

- هذا جنون.



- ماذا سيحدث الآن؟!

- لم يسبق أن ضحى أحدٌ بأعظم من ذلك.

- أثق أنها خدعة، سترون ذلك.

- يا له من شجاع.

التقطت مسامعه ردة فعلهم، فاتسعت ابتسامة ظافرة على محياه. لكن الموازين انقلبت في لحظة عندما قام قائد الجَلاوزة "راعون" من فوق عرشه وأطلَّ على الجميع هاتفًا:

- لا يمكن أن نقبل ذلك، لم يحدث بمملكتنا مثل هذه التضحية من قبل.

ثم أشار إلى صفوف جلاوزته آمرًا إياهم بغضب:

- فلتشدوا به إلى "نمر الأرض"..ولتخضعوه إلى اختبار بذرة الشر.. الآن.

انفضت "بِنَان" وقد أنشط غضبها من عقاله، تقول بصوت لم يبلغ مداه مسامع أحد:

- هذا ظلم، لماذا تفعلوا به ذلك؟!

جذبها "القزم" قائلًا بلهفة وهو يراقب الجلاوزة غلاظ الوجوه والقلوب المتجهين صوبه:

- اسمعيني جيدًا، يجب أن يتم هذا الأمر.

وكأنها لم تسمعه، ترمقه بعين شغفها حبًا، قالت بأسى وهي تتشبث به:

- ليتك ما جئت.

أكمل وهو يهزها هزًا:

- هل تفهمين ما أقول، يجب أن تستكملي المهمة، الآن يا "بِنَان"، يجب أن يتحرر الجميع، لا تتخلي عن ذلك أبدًا.

بذهول قالت:

- ألم تقل أن هذا وهم، ولا شيء ينتظرنا في القبو.

- بل هناك، لكنه أعظم وأروع مما تظنين.

قبض الجلاوزة على أطرافه يدفعون به تجاه جحر "نمر الارض"، فهتف بها محاولًا أن يصل بصوته إليها:

- حررهم يا "بِنَان".. حررهم.. لا أمل لهم سوانا بعد موت "آصف".

***



الملف الثلاثون

احتدَّت الأبصار تتابع بشغف الأمير المُساق أمام الجلاوزة، فلم يجرِ فوق أرض مملكتهم يومًا شيئًا مماثلًا، أمير ذو عينين سليمتين يخضع لاختبار بذرة الشر!..بلمح البصر نسوا أنه لم يقترف ذنبًا، ولا يعرفوا له سوءة. تبدَّلت تصوراتهم دون تأمل، وتشوهت الأحداث في مخيلتهم، واندلعت حماستهم دون تدبر، فلم يدر أي منهم لِمَ شجع إخضاع الأمير للاختبار!.. هتاف واحد من مجهول حرَّض ألوف الهتافات المهتاجة على تأييد قرار"راعون".

اتحدت عقولهم لتُشكِّل عقلًا واحدًا كبيرًا، عقل مسيطر له عليهم سُلطة مطلقة. أسلم عقلهم الجمعي أمره لصاحب أول هتاف، فلحق آخرهم بأولهم، واحتلت أجسادهم روحا واحدة جمعتهم على عقل واحد. لم يمنح أي منهم عقله الفرصة ليسأل "لماذا؟"، ولم يُكوِّن أي منهم رأيًا شخصيًّا، آمنوا جميعًا بقرار لُقن لهم. خلق العقل المسيطر دون وعي قواعد جديدة واتبعوها بإيمان ظاهر، ذاب المختلف في المؤتلف، واجتمعت قلوبهم كحلقات في سلسلة واحدة، التفَّت بقوة وشراسة حول العنق الوحيد الذي انفصم عن عرى إيمانهم، عنق "القزم".

شحذَّ "القزم" عقله ليهتدي إلى وسيلة يحرر بها نفسه، ويحررهم معه، آملًا أن تصل "بِنَان" في الوقت المناسب إلى القبو، وحتى إن لم يحدث ذلك قبل هلاكه، يكفيه أن تتحطم القيود من بعده، فلا يشقى فيها أحدٌ.

شدوا وثاقه بأوتاد برزت من الأرض، تعلَّقت العيون بالحفرة العميقة التي تأوي "نمر الأرض" الرهيب بداخلها، أزاحوا عن الحفرة الأسوار فانطلق منها بلهفة وشراسة، بأرجله الثمانية ذات مخالب قوية، تحمل جسدًا مُشعرًا ضخمًا. التقط الجلاوزة بسرعة الحبال التي قيدت أطرافه يسوقونه بحزم وإصرار إلى حيث "القزم" المستلقي أرضًا، وقد وضع فوق جبهته جزء من ورقة "شجرة الطاقة"، شجرة الحقيقة زعموا. ما إن مسَّت الورقة جبهته حتى اشتم رائحة لحم شهي!.. ففطن إلى الخدعة التي بها يختار "نمر الأرض" ضحاياه، خمَّن أنه حينما لا يرغب الجلاوزة في الفتك بأحدهم، إمعانًا في تثبيت خرافة هذا الاختبار في عقول الجميع، فإنهم يغمرون الورقة برائحة كريهة تنفر "نمر الأرض" من الاقتراب منه. أيدت نظريته كلمات "حَبُوك" وهو يقص عليه ماحدث معه في الاختبار، وعن الرائحة الكريهة التي اشتمها يومها. إذن هكذا تنطلي الحيلة على الشعب، ويظهر لهم أن "نمر الأرض" هو صاحب الاختيار.

دنا "نمر الأرض" منه بلهفة يرنو إليه بعيونه الثمانية التي تتحرك في كل الاتجاهات، فانتفض قلبه، تأمل قبحه بوجهه المشعر، تلامست شعيرات وجهه بوجه "القزم"، يسقط لعابه اللزج فوقه فاقشعر جسده بشدة. اهتاجت حركات "نمر الأرض" وقد اشتهى "القزم" ما إن اشتم رائحة اللحم الشهي، فاجتهد الجلاوزة في منعه من أن يأكله. عندها صاح "جادور" معلنًا للجميع بغير حاجة:

- إنه يحمل بذرة الشر بداخله.

اهتاج الجمع مرددين هتافات الموت للأمير، عاد "جادور" للهتاف فيهم متصنعًا الورع:

- يجب أن نلتزم بقوانين المملكة.. فنترك أمره للطبيعة إما أن تمنحه عفوها أو عقابها.

هلَّل الجميع مؤيدين لكلامه، عارفين بحكمته، فتبادل ابتسامة ظفر مع "راعون" الذي ظل عاليًا فوق عرشه المتحرك، بعيدًا عن الانخراط فيما يحدث، مراقبًا له، ومشرفًا عليه، ومباركًا له من عليائه.

دفع الجلاوزة به إلى شفا حفرة عميقة بها المئات من أوراق الشجر اليابسة، وأخبروه أن عليه نزول الحفرة وألا يخرج إلا بورقة خضراء قبل انقضاء وقت معلوم. فإن فعل فالطبيعة غفرت له وكتبت له النجاة، وإن لم يفعل كان عقابه وهلاكه، وألقى به طعامًا لـ"نمر الأرض". ظلَّ واقفًا يتأمل الأوراق اليابسة التي تبدَّت له فوق سطح الحفرة، ثم توجه إلى أحد الجلاوزة برأسه سائلًا، إن كان نجح أحد في الخروج من الحفرة بالورقة الخضراء قبل انتهاء الوقت، لم يجب، لكن زميله تطوع بالجواب وهو ينظر إليه متشفيًا:

- منذ أن ولدتني "شجرة الطاقة"، لم يحدث ذلك ولا مرة واحدة.

- وكيف لي أن أتأكد من أن الورقة الخضراء موجودة بالفعل بين كل هذه الأوراق الميتة؟

لاح السرور على محياه وهو يجيبه متحديًا:

- لن تتأكد أبدًا.

فطن إلى حقيقة الأمر، وبدا له كل شيء جليًا كألسنة الشمس التي تحرق ظهره في هذه اللحظة، لا فرصة للنجاة، أحكموا الفخ حوله، وحتى إن حاول لساعات أن يتحصَّل على الورقة الخضراء فلن يجدها، يثق ألا

وجود لها. لكن كيف يثبت لهذا الشعب أنه مخدوع يتم التلاعب به؟.. نظر في قسماتهم المتقدة بالحماس مشفقًا، وإلى قبضات يلوحونها في الهواء متألمًا. أعياه التفكير في وسيلة يحقق بها مراده، ويكشف بها عن سوءة "راعون" و"جادور" أمامهم. كيف يحطم الخرافات التي حبس شعب "النسر" نفسه بين أوحالها. هتف بأعلى صوته وهو يدور في كل اتجاه، يرمق الوجوه السوداء الملتهبة تحت قيظ الشمس:

- لا تظنون أنهم حكموكم بكمال أجسادهم، ولا برجاحة عقولهم، ولا بقوة بنيانهم، أو بكثرة عدتهم وأعدادهم.. بل حكموكم بالخرافات.

تعالت صيحاتهم المهتاجة مستنكرة مقاله، يقذفون بقشور الثمار والأوساخ والحجارة، ظلَّ يتحرك بحماس، كاشف الصدر، منصوب القامة، وهو يهتف فيهم:

- إن لم تروا جيدًا أنكم مُكبَّلون بقيود وهمية نجحوا في أن ينسجوها من خيالاتكم، فستظلون أبد الدهر تحت أقدامهم، لا حق لكم في العيش فوق الأرض مثلهم، ستتعفنون هناك في القاع، وفي أكثر نقطة مظلمة منه.

أنبأه صياحهم المغضب، ونظرات الاستمتاع بأعين "راعون"، وابتسامة "جادور" الواثقة الخبيثة أن لا أمل في محاججتهم بالعقل، لن يجدي سوى وسيلة واحدة لمخاطبة جماهير تُساق كالقطيع، لن يجذبهم سوى بالانطباعات التي تولدها الرموز في روحهم، فهم لا يؤمنون إلا بما يحرك عواطفهم ويستثير انفعالاتهم، ويوافق رمزا يقدسونه. فانتظر حتى هدأت الأصوات، وهتف حتى ردد الكون أصداء صوته:

- أخبروني.. من هو أعظمكم تضحية، ولم يهب أحدٌ من العالمين مثلَ ما وهب لكم، أخبروني من هو أعظمكم وأطهركم قلبًا؟

ترددت همهمات، وانحنت الرؤوس صوب بعضها البعض، هتف البعض بفخرواعتزاز، تبعه الآخرون حتى اهتزت المكان بقولهم:

- الملك.

- ملكنا العظيم.

- إنه الملك.

وكما رأى الملك يفعل "يوم الزينة"، بعدما جاء يسعى بعينين منزوعتين، واحتل مكانه فوق عرشه، منح العينين إلى "راعون". وقتها وقف الملك أمام شعبه وأمسك بالعينين يحركهما صعودًا وهبوطًا، من وإلى تجويف عينيه، في إشارة إلى رمز تضحيته الكُبرى. فحذا "القزم" بحذوه، أشار إلى عينيه وهو يحرك يديه إلى أعلى وإلى أسفل، وكأنه ينزعهما ويمد بهما إلى الجميع من حوله، فران الصمت بغتة، واحتبست الأنفاس، ولمعت العيون تتطلع بشغف إلى "القزم" مشدوهة، عاجزين عن الكلام. فأيقن أنه أصاب مأربه، فهتف بهم:

- إنني أضحي بهاتين من أجلكم.. بعيني الاثنتين.

ندّت عن البعض نظرات دهشة، وهمهمات تعظيم وإكبار، وتشاور الجميع فيما بينهم وقد احتاروا في أمره، نَدَّ القلق من أعين "جادور" فتحفَّزت جلسته، أردف "القزم" بصوت كساه بالعاطفة:

- إنكم تكرمون الملك من أجل هذه التضحية الكبرى، فها أنا أفعلها مثله وأنتم تردون تضحيتي بالجحود.

ثم أردف بعنف:

- إن كنتم تصدقون "نمر الأرض" وأنه بالفعل عثر على بذرة الشر بداخلي، إن كنتم تصدقونه وتكذبونني، فيجب أن تصدقوا أيضًا أن ملككم الذي لم يُضحِّ بأفضل مما ضحيت يحمل أيضًا بذرة الشر بداخله.

تخبطوا في قولهم، واحتاروا فيما قاله. فلم يتوقف عن الهتاف وهو يدني يديه من عينه ثم يبعدهما في حركات متوالية. أثارت العواطف الكامنة في القلوب. فأحسن التلاعب بالكلمات وهو يقول:

- كيف يمكن لمن يملك من القوة والشجاعة والإقدام ليهبكم عينيه أن يحوي بداخله بذرة الشر. إن كنت شريرًا يستحق الموت بين فكي "نمر الأرض". إن كنت لا أستحق حبكم وإجلالكم. فمن إذن يستحق ولم يضحِّ أميرٌ من أجلكم بمثل ما ضحيت.

وكما كان انفعالهم بالغضب مُعديًا. كان تأييدهم مُعديًا أيضًا. فكانت أول فكرة اعتنقها أحدهم هي شرارة للتحريض المُعدي تبعها الباقون. هتف بهم اثنان أو ثلاثة أنهم يخشون أن تغضب الطبيعة وتعاقبهم بانفجار آخر. إن هم آذوا هذا المضحي العظيم. فلم يسبق لهم أن رأوا من هو بمثل شجاعته وعنفوانه. فتعالت صيحاتهم تطالب له بالعفو. بل وتطالبه بكل مشاعر الحب والإخلاص. وبنزواتهم وغرائزهم شديدة الهيجان أن يعفو هو عنهم ويصفح!

تولَّدت بعقولهم سلسلة من الرموز أفضى بعضها إلى بعض. عندما أتى بالحركة المقدسة لأضحية الملك. ربطت عقولهم صورته بصورة الملك. فأسقطوا عمل الملك عليه. فلمَّا كان منه فِعل الملوك وجبت له حقوقهم. فاستحالت مشاعرهم من البغض تجاهه بغير سبب منطقي يعترف به العقل. إلى التألية والتقديس.

أثارت شجاعته رمزًا آخر في نفوسهم لما يجب أن يكون عليه قائدهم، جسورًا لا يهاب أحدًا، ولا يعوق فتوحاته سدًا، ولا تزوي قناعاته قوة، قادرًا على مواجهتهم بثقة، لا يهاب الموت بل يذهب إليه طواعية إن لزم الأمر من أجل أن يثبت قناعاته ويحقق غاياته.

اختفت صورة الأمير الواقف في الساحة وأصبح في عقولهم رمزًا للتألية، فاهتاجت مشاعرهم حتى فاضت على أبصارهم بغشاوة التطرُّف فجنحوا له، وتحوَّلت الفكرة إلى عقيدة بعثت بداخلهم يقينًا لا ريب فيه.

ردد "القزم" شعارات عنيفة بنوع من الخشوع، وإن كان لا يقتنع بها تمام الاقتناع، فتبعه كل أفراد الشعب:

- الشر والتضحية خصمان لا يجتمعان.

ثم هتف:

- وهبتكم عيني؛ فأوهبوني قلوبكم.

شعروا تجاه قوته باحترام وثني، قذف بهيبته في نفوسهم فرأوا فيه مَثلًا أعلى يجذبهم ويسحرهم، قارنوه بملكهم الذي لا حول له ولا قوة، مستلقيًا فوق عرشه يطل عليهم في المناسبات، وبعد أربعة أيام ينزوي في الظل. يتبرَّكون بعينيه من أجل صغارهم، حتى يهبهم ملكهم الجديد عينيه، فلا يترك بداخلهم بعدها أثرًا، ولا يذكروا له اسمًا. فقدَّموا آيات الاحترام والتوقير لهذا القوي الذي لا يند عنه ضعف، ولا مظهر من مظاهر الطيبة، إذ أنهم يعدون الطيبة شكلًا من أشكال الضعف ويميلون كل الميل إلى ذاك الذي يتسلط عليهم متجبرًا، بشعارات عاطفية رنانة تأسر قلوبهم. يرميهم بثوابت لا تقبل أخذًا ولا ردًا فتستحيل إلى دين،

ويتعصبون لها بضراوة. يشعرون بظمأ فطري إلى العبودية فيحتاجون إلى معبود، لذلك هُم على أهبة الاستعداد لأن ينصبوه إلهًا لا يعرفون سواه، دون حاجة به لأن يقول "أنا ربكم الأعلى"!

ساد الهرج في صفوف الشعب، فالتحم بهم بعض الجلاوزة للسيطرة على أي بادرة تمرُّد. ارتأى "القزم" أنها اللحظة المناسبة ليخبرهم بالحقيقة قبل أن تخرج الأمور عن سيطرته. أمر "راعون" جلاوزته بغضب أن يزجوا بالأمير في الحفرة حتى ينتهي الوقت المعلوم. هتف "القزم":

- لم تَعُد "بِنَان" من "فم النار" لأنها شيطان كما أوهمكم بذلك "جادور".. بل لم تُلقَ "بِنَان" في "فم النار" من الأساس.. لا هي.. ولا كل إناثكم.

واشتعل غضبه قائلًا، وهو يشير إلى "راعون" في عليائه:

- لقد رأيت ذلك بنفسي، إناثكم يتم تهريبهم عن طريق نفق سري بـ "فم النار"، يهبهم قائدكم هدايا لمحاربي "ريشع".. هناك على الضفة الأخرى في "باسطين".

انتفض بعضهم غضبًا، يأمرونه بالصمت، ويسدون مسامعهم بأيديهم.

أمَّا أولئك الذين فقدوا أحباءهم على مدار زمن طويل، يستودعون أشواقهم حبيسة صدورهم، حتى البكاء مُحرَّم عليهم. أولئك طالبوه بالمزيد، متمسكين بأهداب أمل رؤية إناثهم من جديد.

تقدم أحدهم باضطراب يشق صفوف الحشد، تلتمع العبرات في عينه، تلهبها بدخان نار تأجج بها صدره، يكتوي فؤاده بجمرات شوق

جارف إلى حبيبة انتزعت من بين يديه، وقد ظن زمنًا طويلًا أن جسدها انتهى إلى رماد، محبوسًا هناك في قاع البركان. تتسابق أقدامه إليه كل إشراقة صبح، يقص عليها أحداث الأمس، وكأنها جالسه قبالته على الرمال، تحتضنها برفق. يتخيلها وهي ترنو إليه بحنان، كما كانت تفعل دومًا، يطل من عينها شوق إلى سماع حكاياته، حتى ولو كانت سمعتها من قبل، دومًا تنبهر كالمرة الأولى، ودومًا يخبرها أنه قص عليها تلك الحكاية من قبل، فتجيبه باسمة بأنها تحب سماع صوته يقص عليها الحكايات.

يزروها صباحًا، عندما ترسل الشمس شعاع أمل يمسح على قلبه، ويشد من أزره، ويعده بلقاء ولو بعد حين. أمَا وقد قذف "القزم" بكلماته، فقد انتعشت روحه، ونبض فؤاده بالأمل، لأن يرى محبوبته من جديد. فاستمع إليه بلهفه وهو يُردف:

- استطاعت "بِنَان" الهرب منهم، لكن أمهاتكم وأخواتكم وحبيباتكم هناك يا شعب "النسر" تحت أقدام "ريشع" ومحاربيه.. لقد خدعكم ملككم وأمراؤكم، "راعون" و"جادور" ما هما إلا وجه واحد لو أُسقطت صورته فوق سطح الماء، لعَكَسَ صورة "ريشع" عدوكم اللدود.

فارق "جادور" هدوءه مستشعرًا الخطر، وساد "راعون" أبلغ آيات الخوف، وما إن دنا منه الجلاوزة ومسوه بغير أذى حتى تفجَّر بركان الغضب الشعبي، وانقضوا عليهم كالجراد. لا يخشون العقاب بسبب كثرة أعدادهم التي أغرتهم. أصدر "راعون" أوامره بقتل البعض ليرتدع الآخرون، لكن العنف قابله غضب، والسكين قابلتها حجارة، والحوامض الحارقة التي تُرشق من حاوية بطون الجلاوزة، واجهها الشعب بالحماسة هاتفين بالموت: احصد ما شئت من الأرواح، فاليوم لا عاصم منك ولا منا.

هجم الكثيرون على "فم النار" لم تعد حرارته تخيفهم، تحملوها وتدلوا بأجسادهم من فوهتها، فأبصروا النفق الذي أرشدهم "القزم" إلى مكانه، والذي يثبت صدق ما قاله. التحم الجلاوزة بالشعب الذي وصل إلى ذروة غضبه، حتى تاه هذا في ذاك في مجزرة بشعة، تطايرت فيها الأطراف المبتورة، وافترشت الأرض بأجساد محطمة. كان لأرض "النسر" يومئذ سقياها من الدماء الباردة!

انسل "القزم" من بينهم بشق الأنفس، يحجب وجهه عن مرمى أبصارهم. تعقدت الأمور بأكثر مما ظن، فلم يتخيل ردة الفعل العنيفة تلك، كان يأمل فقط بأن يحظى بدعمهم لبعض الوقت، حتى تصل "بِنَان" إلى القبو وينتهي كل شيء. حمي وطيس المعركة عندما أقبل على بوابة مساكن الشعب، فألقى عليهم نظرة آسفة. سمح له حارس البوابة بالمرور فهرول صوب مسكن "بِنَان" ف "سُلاس" ف "حَبُوك" ولمَّا لم يعثر على أي منهم، هرول نازلًا إلى آخر طوابق المملكة. لا يعرف الطريق إلى النفق ولا إلى الغرفة السرية التي تُفضي إليه، لكنه عزم أمره على الوصول إليها ببذل جهده، عندما وصل إلى الطابق الأخير، والذي لم يحفر أهل المملكة أعمق منه، فتوقفت جهودهم عنده. فوجئ بـ "حَبُوك" واقفًا يتلفت يمنة ويسرة، أقبل عليه بلهفة فقابله "حَبُوك" بمثلها وهو يقول مبتهجًا:

- اننتظررتك كماا طللبت "بِنَان".

نَدَّ وجهه عن ابتسامة ثم أحاط عنق "حِبُوك" وهو يُسرع معه إلى الغرفة السرية، اكتشف أنها قاعة للنفايات رطبة، سيئة التهوية، عفنة الرائحة، حرَّك "حِبُوك" صخرة فكشف له عن فتحة النفق، فسأله "القزم":



- كيف تمكنت "بِنَان" من الهرب؟

- ساعددتها.

أخرج من جيبه قطعة عجينيه، وقرَّبها إلى "القزم" موضحًا بحماس وهو يشير إلى فمه:

- إنها تتصيبب بالننعااس، قدمتها للجلاااووزة فأكلووها.

ربَّت "القزم" على رأسه ومنحه ابتسامة مُشجعة. دخل معه نفقًا طويلًا، نهايته تُفضي إلى نفق آخر تعامد عليه، بات يرعد من البرودة، ساورته رغبة في الراحة، لكن الفتور لم يصب فيه العزم بسهامه، فهرولا فيه بأقصى ما يملكان من سرعة ولياقة.

***

الملف الحادي والثلاثون

اعترى "داموس" الجنون، رمَى بشرره في وجه "سُلاس" قائلًا:

- كيف لا تعرفين الجواب؟!

- فلتحترق في "فم النار"، لم يخبرنا المُعلم "آصف" بالجواب، من أين لي أن أحصل عليه؟!

- هل أنتِ واثقة أنكِ قرأتِ السؤال بشكل صحيح؟

عبست قائلة:

- لا أدري.. أظن.. لا أعرف.. تعلم أن قدراتي لا تعمل دائمًا بشكل جيد.

- وضع هذا الخَرِف لغزًا لا يعرف أحدٌ جوابه، ألم يستطع هذا المتعالي أن يعلمكم شيئًا نافعًا.

- تحدَّث بأدب عن المُعلم "آصف" يا أعرج.

استشاط غضبه قائلًا وقد ساورته رغبة في ضربها:

- لمن تقولين "يا أعرج"؟

أجابته هازئة تشير إليه:

- لا أرى شيئًا معتلًا هنا سوى قدمك.. وعقلك بالطبع.

أقبلت "بِنَان" تباعد بينهما بعنف، تصيح بغضب تردد صداه داخل النفق:

- هلا كففتما عن هذا العبث، ألا تدركان أننا في وضع خطير.

ثم قالت لـ "سُلاس" وقد اعتراها بصيص من الأمل:

- مؤكد أن المُعلم "آصف" لمَّح لكم عن الجواب الصحيح، تذكري يا "سُلاس" أرجوكِ.

هربت بنظرها صوب الجدار قائلة بخفوت:

- كلا يا "بِنَان" لم يخبرنا بشيء عن ذلك أبدًا.

- إنها نفاية كاذبة، تريد أن تستأثر بالقوة لنفسها.

- بل أنت الحقير يا أعرج.. آااه كم أنا بحاجة إلى ساحة الصراخ الآن.

قطع شجارهما صوت "القزم"، يهتف متلهفًا:

- "بِنَان"، لقد جئت.

اندفعت إليه "بِنَان"، تتواتر عليها اللهفة والاشتياق، قالت جذلة مستبشرة:

- لقد أتيت، أنت بخير.. بخير؛ أليس كذلك؟

أشرق في محياه صباح البِشر، يطرب قلبه لحديث قلبها، قال مطمئنًا:

- بخير أكثر من أي يوم مضى.

ثم اكتسى وجهه بقناع الجدية، وقال:

- الوضع خطير بالخارج، يجب أن نفتح القبو، لم يبقَ أمامنا أمل سواه.

ثم أردف باهتمام:

- إلى أين وصلتِ؟

ما إن وقعت أنظاره على "داموس" حتى انتفض مغضبًا، انقض عليه بشراسة بعثت بالدهشة في قلوب الجميع، صرخت "بِنَان" تدفعه عن جسد "داموس" الذي أسقطته المفاجأة أرضًا. ضجَّ صوت "سُلاس" بالضحك وهي ترسل الحماس في نفس "القزم" ليقتص من "داموس" كما شاء. استند "حَبُوك" إلى الجدار خائفًا وهو يحذِّر "سُلاس" أن تبتعد عن مرمى الضربات لئلا يصيبها ضرر. ظلَّ "القزم" يهتف بكلمة واحدة، وهو يكيل إليه اللكمات:

- خائن.. خائن.. أيها الخائن.

دفع به "داموس" بضربة قوية سددها إلى بطنه. خامر "القزم" ألم حارق فخارت قواه. انتهز "داموس" الفرصة واعتلى جسد خصمه، رد له الصاع صاعين. ضربت "سُلاس" ظهره بعنف، وجذبته "بِنَان" بقوة ملتاعة، وهي تقول:

- "داموس" توقف ستقتله، "داموس" احذر لا تؤذِ عينيه.

استطاعتا الفصل بينهما، امتلأ صدر "القزم" حقدًا وكرهًا، قال من بين أنفاسه المتلاحقة مشيرًا إلى "داموس"، وبيده الأخرى يتحسس موضع الألم:

- أنت خائن لعين يا "داموس".



قالت "بِنَان" بدهشة محتدة:

- توقف عن نعته بذلك.

أطال النظر إلى "بِنَان"، قال مشفقًا عليها مما سيضطر إلى كشف النقاب عنه:

- بسببه تم إلقاؤكِ في "فم النار" يا "بِنَان"، بسببه مات المُعلم "آصف" وكل تلاميذه، لقد وشى بالجميع وفضح أمر المهمة، إنه عميل لـ "جادور".

هَمَّ "داموس" بأن ينقض عليه وهو يزمجر بعنف، دفعته "بِنَان" بقوة فصاح:

- لا تصدقي هذا النفاية، كلنا نعرف أن سبب إلقائكِ في "فم النار" هو سَبُّك لقائد الجَلاوزة "راعون".

استنهض "القزم" يرد كلامه باحتقار:

- لا، ليس لهذا السبب، بل لأنك أردت أن تثبت ولاءك لفرقتك التي يقودها "جادور" تلميذ "راعون" غير الوفي.. دفعت بـ "بِنَان" إلى خوض مواجهة مع "راعون"، كان هذا شرط "جادور" كي يضمك إلى فرقته.

ذهبت "بِنَان" بذاكرتها إلى آخر احتفالية "للفداء الكبير" قبل إلقائها في "فم النار"، تذكرت كيف أنها بتحريض من "داموس" توَّجت انتصارها على "جادور" في هذا اليوم بكلمات نارية وجهتها إلى الشعب لتزيل عنهم قيود الولاء لـ "راعون" الذي يتحكم فيهم كالخراف. وكيف أخبرها "داموس" أنها بشجاعتها ستستحوذ على ثقة وإعجاب الجميع، وبخاصة "آصلان"، ولعل فعلتها تبلغ مسامع مُعلمه "آصف"، فيكافئها لشجاعتها

بأن يضمها إلى تلاميذه، حتى ولو في الخفاء. فداعبت عقلها الأحلام، وانساقت بحماسة وإخلاص وراء كلماته. لكن كل ذلك أفضى إلى نتيجة عكسية، وانقلبت الأمور في لحظات، ولم يصدقها أحد.

سرى الهم في جسدها مسرى الدماء، فوجئ "القزم" بها تصُب عليه جام غضبها، قائلة بعناد من يخشى التصديق، ومن عينها تند عبرة ترجوه أن يكذب ادعائه:

- هذا غير صحيح، إنه أخي لن يفعل ذلك بي أبدًا.

تجرَّع غُصص الكرب لا يدري أي الخيارين أصلح لها، أن تكتشف خيانة أخيها، أم تظل بأوهام حبه وإخلاصه متعلقة. استعرت بها الظنون تنظر إلى "داموس" تارة وإلى "القزم" تارة أخرى، قالت في محاولة يائسة:

- إن كان ما تقوله صحيح فكيف عرفته؟.. من أخبرك بذلك؟.. ولماذا تثق فيمن أخبرك، لعله يُبْطن العداء لـ "داموس"، ويتأوَّل عليه بغير علم.

- وهل يفعل المُعلم "آصف" مثل ذلك؟

سألها متحديًا، فلاذت بالوجوم. تساءلت "سُلاس":

- هل قابلت المُعلم "آصف"، ألم تقل لـ "بِنَان" أنه مات؟

- ترك رسالة قلبية، قرأتها، وعلمت كل شيء.

بادرته "سُلاس" بفضول:

- وهل تعرف ما هو الشيء المخفي في القبو؟

تعلَّقت به أربع عيون متلهفة إلى الجواب، أعمل نظره يتفرس فيهم قبل أن يقول بيقين:

- لا أعرف تحديدًا ما هو.. فقط أعرف أنه شيء عظيم جدًا، كان بحوذتنا وفقدناه، ويجب أن نستعيده الآن.

ثم أردف متحديًا يحدِّق في "داموس":

- شيء أعظم من أن يمسَّه خائن يسعى إلى مجد شخصي.

- سأريك من هو الخائن يا قزم "ريشَع"، عملت عنده كالخادم وسُقت "بِنَان" إليه، والآن ترميني بدائك وتنسل.

كان مستعدًا لهجوم "داموس"، لذلك ما إن انقض عليه حتى سدد إلى صدره ركلة عنيفة، دفعت به إلى الارتطام بالجدار ثم السقوط أرضًا، متجعد القسمات نهض يتلمَّس موضع الألم، اتقدت النار بعينه يريد به فتكًا، فواجهه "القزم" بجلد.

صرخت بهما "بِنَان" ليتوقفا عن التقاتل، دنا منها "القزم" فأبصر وجهًا يتفجع ويتلهف ويتحسر، تتساقط نفسها غمًا وأسفًا. قال يهزها هزًا:

- ألازلت لا أستحق ثقتكِ، ها.. أجيبيني بصدق هل تظنين أنني أسعد بإيلامك الآن؟

أخذتها شرقة ألم كادت تتكون فيها روحها، فأردف يستميلها، فلا أدلة يملكها، ولا براهين يدنيها:

- ألا أعرف مبلغ ألمكِ، ألا أعرف كيف تحترق بكلماتي روحكِ، هل أفعل ذلك بكِ عابثًا، ها..؟ أجيبيني.. ماذا سأجني من ذلك سوى أن أحترق بعذابكِ.

رنت إلى "داموس" ليقول لها شيئًا، ليؤكد لها أنه أخوها، يحبها ويحميها، ولا يجرؤ على أن يؤذيها. لكنه انصرف إلى فخ "آصف" يسعى لحله، إنه تمامًا كالفخ الذي صادفها مع "القزم" في رحلتهما إلى مسكن "آصف"، ثلاثة خيارات بثلاثة أشكال محفورة، لكن هذه المرة السؤال معلوم، قرأته "سُلاس" فازدادت حيرتها.

هزها "القزم" ثانية فتطلعت إليه برجاء أن يسحب كلامه، ويخبرها أن ذلك لم يكن سوى مزاح ثقيل، أو رعونة دفعه إليها كرهه لـ"داموس". همس لها "القزم":

- "بِنَان".. أرجوكِ لا تقطعي الحبل.

غرسَ نبتته في منبت خصب، فحلَّقت حولها طيور الهوى، تُخضب السماء بزهرة وِد، طاب عودها، وبسق فرعها، وفيأت ظلالها، وعبقت حواسه بشذى عبيرها، تزفها إليه نسمات الوجد. تبوح له بسرها عين سكنها ألق النجوم، فما عاد الباب مغلقا ولا الطريق مختوما.

- أسمع الآن الشك يتردد بين حنايا قلبك، يجب أن تحسمي أمركِ الآن، إما أن تصدقي كلامي كله فتأخذيه، أو تكذبيه كله فتتركيه.

أمسك "داموس" بالقرص الخشبي الأول يتحسسه، يمرر أطرافه على النسر المحفور في منتصفه، اندفعت "بِنَان" تزجرة ملتاعة:

- "داموس" لا تفعل.

صاح "القزم" يشير إليه محذرًا بعنف:

- إياك أن تفكر في ذلك.



باري نصيحتهما في عجرفة، وقال بزهو يسحب أذيال الشقاء:

- هذا هو الاختيار الصحيح إذن.

- "داموس" لا تفعل.. احذر.. ستقتلنا جميعًا.

أعياه تسرعه وشطحات تفكيره، رسم بنفسه دربه ومآله، فما صدَّق ولا آمن إلا بضلال أوهامه. يظن نفسه على الأبطال محسوبًا، والزج بغيره في دروب المنايا شجاعة، طالما في سبيل عقيدة وقناعة! غشى عقله أستار التطرُّف، فما اهتدى إلى أن التضحية إيمان لا رَيب فيه، التضحية اختيار لا إجبار فيه. الوسيلة الفاسدة لا يُصلحها نُبل النوايا.

انفتح السد عن حجرٍ كبيرٍ ذي نتوءات مدببة، ساوى جسده بالأرض، توقف فوقه ثانية كأنما استطاب المقام، فمنحت تلك الثانية للآخرين فرصة للنجاة.

هتف بهم "القزم" أن تسلقوا الجُدر، فامتثلوا لأمره قبل أن يتدحرج الحجر منطلقًا كالسهم من الرمِّية. امتزج بكاء "بِنَان" بصرخات "سُلاس"، خارت قوى هذه الأخيرة ففقدت توازنها، لولا أن تلقفها "القزم" تتدلى بجواره كالبندول لصفعت وجه الأرض بجسدها.

استبد بـ "بِنَان" جزع يذيب لفائف القلوب، لا تقوى على الاقتراب من جثة "داموس"، فجعة فيه، لا تدري أتبكي ألم فقده، أم نزف خيبتها فيه. تتقطع أنفاسها حسرات، ويصدع قلبها زفرات، خاشعة الطرف استبقت دمع الغمام. ضاقت عليها المسالك فاستندت إلى الجدار تتخفى فيه، عله يبتلعها ويبعدها عن هذا المكان.

دنا منها "القزم" آسفًا مشفقًا، يضيق ذرعًا بعجزه عن مواساتها بالكلمات، توجه صوب جثة "داموس" ووقف قبالتها جامدًا للحظات، ثم وبمساعدة "حَبُوك" أزاحها وواراها خلف صخرة صغيرة بجوار الجدار، والتي عليها كُتب السؤال.

حثَّها بعدما نمى إلى مسامعه خطوات ترتج عند مدخل النفق:

- يجب أن نتحرك الآن، أرجوكِ تماسكي بقي القليل.

نظرت "سُلاس" مرتعدة الأطراف إلى الصخرة، كأنما تنظر إلى جثة "داموس" المحطمة، فسرت فيها رعدة أخرى، حال "حَبُوك" بينها وبين الصخرة بجسده، قال بحنان دافق:

- لا تنننظري.

قرأ "القزم" السؤال متشممًا الصخرة، محاولًا أن يفصل بين رسالة "آصف" ورائحة الموت، وأسمع من حوله يقول:

- رمز الإيمان.. يجب أن نختار الرمز الذي يشير إلى الإيمان.

ثم أردف مفكرًا، يعمل عقله سريعًا وهو ينظر إلى الثلاثة أقراص الخشبية:

- نستبعد النسر فقد أثبت فشله مرتين، بقي الشجرة والجناح، أيهما نختار؟

قالت "سُلاس" رغم سهام الشك التي أصابت عقيدتها:

- كلاهما يرمز إلى الإيمان، فالشجرة تهبنا الحياة ويجب أن نؤمن بها، والجناح خُلق من الطبيعة ويجب أن نؤمن به، كلاهما نشأ من بذرة الحياة.

قال "القزم" بنفاذ صبر دون أن يلتفت إليها:

- لا وجود لبذرة الحياة، الأمور لا تسير على هذا النحو، هناك صانع، "آصف" أيضًا آمن بذلك، هكذا فهمت من رسالته الأخيرة.

- ممن هو؟

- لا أعرف.. لكني سأعرف.

تداعت حصون صبره قائلًا بعصبية:

- لا يمكن أن يعطينا "آصف" لغزًا لم يخبرنا بحلِّه، هيا يا "سُلاس".

- لا شيء برأسي.. لم يخبرنا أبدًا أن للإيمان رمزًا.

وقف أمام القرصين تتآكله الحيرة، شجرة وجناح، إحداهما ترسخ في الأرض والأخرى موطنها السماء، أرض وسماء، أيهما يكون للإيمان رمزًا؟.. الشجرة تضرب بجذورها في الأرض ولا تبرحها، والجناح يحط فوق الأرض حينًا، ثم لا يلبث أن يطير عاليًا إلى مكان لا يبلغه سواه، بين السحاب، هناك في أقصى السماء.

سمع رفرفة جناح مُعبَّقة برائحة الحنين!.. ظن أنه واهمٌ، أصاخ السمع ثانية، واستل حواسه من غمدها. لا ليس واهمًا، إنها رائحة قوية لكن يحجبها رمال وصخور.. وخطايا وشرور. سأل "بِنَان" أن تقترب من السد وتخبره إن كانت تسمع هذا الصوت، أخبرته خائرة القوى أنها لا

تسمع شيئًا، فقط رائحة السراب.. فطلب ذلك من "سُلاس" و"حَبُوك"، فنفى "حَبُوك"، وهتفت "سُلاس":

- نعم.. أسمعها.

لحن سعادة يطرب الفؤاد، ويبعث بدفء الحنين إلى العروق. ابتعد خطوة ومس رمز الجناح.. ثم دفَع!

لم يكد "جادور" وباقي فرقته يسمعون صوتًا عاتيًا حتى توقفوا عن السير داخل النفق، الصوت يشتد ويقترب، فيزداد خوفهم، لم يمنح الزمن أيًّا منهم فرصة للتفكير في الهرب.

تدحرجت الصخرة تحطمهم كما تتحطم قطرات المطر فوق بلادة الجبال، يفر كل منهم من أخيه وصاحبه وبنيه طلبًا للنجاة، انتشرت رائحة الموت ممتزجة بالصرخات، فلحق آخرهم بمصير أولهم.

***



الملف الثاني والثلاثون

رفرفت ببقايا جناحين صغيرين تصول وتجول داخل سكنها، أو إن شئت الدقة لقلت سجنها. أربع جدران مغلقة، لا يموج فيه ريحٌ ولا تلوح فيه شمسٌ، يتسرب بعض الهواء من فتحة مُسيَّجة بسقفه، ولا شيء سوى ظلام ليلة قمرها مُحاق. تتذكريوم أن كانت ملكة آمرة ناهية، يمتثل لأمرها مئات الآلاف من النمل!. ملامح قوية وقسمات بارزة، في وجه نحيل حاد التراسيم، أكسبها مهابة ووقارًا، يقر في النفوس ما إن ترنو إليه الأبصار. يصرخ قلبها بالحنين إلى آلاف من النمل حملتهم ببطنها أيامًا وليالي، وما إن وضعتهم بيضًا صغيرًا حتى حُرمت من مس أجسادهم الغضة الدبقة، وإرواء ظمئهم من نبع أمومتها الذي لا ينضب. لكن بقيت روحها بروحهم متصلة، حتى وإن لم يعرفوا أنهم ببطنها كانوا بذرة قُدِّر لها أن تنبت وتخرج إلى نور الكون.

حكَّت جسدها الاسطواني ذا الستة أرجل، وحركت قرنيها أمام أعينها الخمسة بلون العنب، فمكنتها الثلاثة عيون بجبينها من اختراق حُجُب الظلام، موجات ضوئية تمكنها في الظلام من رؤية مالا يراه إنسان.

تتفرَّس في أوجه أولئك الأربعة الواقفين بأعتاب مسكنها، دنت من أحدهم تتحسس اعوجاج ظهره بقرنين طويلين يقومان بمقام اليدين، تحرك فمها الحاد كالسكين بهمهمات غير مفهومة. تتشممهم، تتعرفهم، تتذكريوم أن نزعوا من أحضانها.

شخصت أعينهم بذهول، أربع نملات وخامسهم كربهم، تتزاحم رؤوسهم الاسطوانية بأسئلة كالمطارق، يحصدون من شجرة المعرفة

بلهفة ثمارًا تزيح عنهم حُجب الجهل، ولوثة العقل، وشطط الفكر. ارتجف "حَبُوك" لمس قرنيها جسده، فداعب قرنيها بوجهه النحيل، تشممها، وفرك ببطنها رأسه، سرت به لذة ما شعر بها يومًا. تهيمن عليه وتفوقه طولًا وحجمًا، فيمد رأسه عاليًا لينال من النظر إليها صبوة.

حلَّق فضولهم باتساع المدى، ونشدوا لأسئلتهم أجوبة. مسَّت واحدًا تلو الآخر بلهفة، فتعلقت وجوههم بوجهها، يتلمسون فيه كل موضع، اقشعرت أجسادهم يغالبهم الحنين إليها، فردت أقدامها باتساع مسكن، فأقبلوا يتمسح كل منهم بجسدها همه، تتحدث قلوبهم بغير توقف، تحكي وتحكي بغير تحفظ. آمال، وأحلام، وآلام، وجروح. فيغدق قلبها عليهم بالحنان، يكفكف الدموع، ويرمم الشروخ.

رنا إليها أكثرهم فضولًا، وأشدهم حبًا لرمز الحقيقة، ومن أجلها بذل الغالي والنفيس. فمسَّت بقرنها صدره كأنها تشكره، وبقلبها طفقت تحاوره. ففهم الجميع ما تقول. وقد ظنوا دومًا أن للقلب لغة لا يعرفها إلا الأمراء، فما قدروا أن البصيرة هبة لا يحظى بها إلا من كانوا للإيمانِ سُفراء.

ناجاها "القزم" قائلًا:

- اشتقت إليكِ طوال حياتي، حتى ولو لم أعرف إلى من أشتاق.

- .....

- لو كنت أعرف أن الأمان سيسكن قلبي بمرآكِ، وأن هويتي لن أجدها إلا عندكِ، لحاربت الجميع للوصول إليكِ.

- .....

- كنت أثق أنني أنتمي لشيء أعظم من بذرة شجر تذروها الرياح، يُخلق منها الروث والدود وموطئ القدم.

قالت له بصوت رخيم:

- أنت عظيم بقدر ما ينطق به جسدك من القدرة والإبداع، بقدر ما يرتله الكون من حِكَم وآيات.

- لماذا حبسوكِ عنا؟

- ليضعفوكم، ويفرقوكم، ويصنعوا من الجهل سلاحًا يرديكم، يقوي مُلكهم، ويُثبت عروشهم.

- وما السبيل إلى إصلاح ما أفسدوه؟

- سنخبر الجميع بالحقيقة، فيحيي من يحيي عن بينة، ويهلك من يهلك عن بينة.

- والصانع؟.. هل هو حقًا موجود؟

- ماذا تظن أنت؟

- أشعر أنه موجود.. لكن أين هو من كل ذلك.. لماذا يتركنا نتعذب إن كان يملك القدرة على دفع الأذى عنا؟

- لو لم يتدخل المُخرب لما حسبنا الأذى أذى، ولتعاملنا معه كما كنا نفعل دومًا؛ سُنة من سنن الكون.

- من هو هذا المُخرب؟

- إنه سبب كل الشرور.. يتبع سُبل الشيطان خطوة بخطوة. ويعيث فسادًا في البلاد والعباد.

- ولماذا يؤذوننا؟

- غيرة وحسدا، لأن النمال لا تملك سلطة الاختيار، أما هم فخُلقوا بها وأساؤوا استخدامها، حملوا الأمانة وضيعوها، حصدوا ثمار كل بذرة فاسدة زرعوها، ثم أرادوا التنصل من ثمرهم، فزعموا أنهم بقدرة الصانع مجبرون على غرس الشر.

تساءلت"بِنَان" مشدوهة وقد شغفها الحديث فضولًا:

- وكيف تتفق قدرة الاختيار مع قدرة الصانع؟

انحنت ملكة قلوبهم والتقطت حبة رمل بأحد قرنيها، ثم تقدمت صوب الجدار، وأخفت عيونها بالقرن الآخروهي تقول:

- ماذا سيحدث الآن إن أنا رميت حبة الرمل للأمام؟

أجابت "بِنَان":

- سترتطم بالجدار.

ألقت الملكة بحبة الرمل فأصابت الجدار وتساقطت أرضًا، لم تفطن "بِنَان" إلى مرادها، أطل المرح من أعين "القزم" واطمأن قلبه بالجواب، قالت الملكة بحنان الأمومة، وبلاغة الحكماء:

- أنتِ علمتِ أن الحبة ستصيب الجدار لأنكِ امتلكتِ قدرة على الرؤية لم أمتلكها أنا عندما حجبت عيني عن الجدار، تفوقتِ عليّ بقدرتك، واستشرفتِ مصير حبة الرمل.

ثم أردفت بأعين متوهجة:

- لقد اخترت بنفسي أن أقذف بالحبة تجاه الجدار، وليس في أي اتجاه آخر. فلم تمنعني قدرتكِ عن الاختيار، ولم يأتِ اختياري بشيء يتعارض مع قدرتكِ وعلمكِ المسبق بأن الحبة ستصيب الجدار.

ثم ختمت كلامها بخلاصة حديثها:

- القدر لا يلغي الاختيار.. لكن عين الصانع ترى مالا نرى.

***



عودة إلى الواقع

- نمل!!

لم يستطع دكتور "نائل" أن يمنع نفسه من أن يهتف مشدوهًا، غير مصدق أن كل ما قرأ عنه في تلك الملفات كانت حكاية لمجموعة من النمال! عاد يُقلِّب سريعًا في الملفات الاثنين والثلاثين بأعين متسعة، وعقل مشتت، يعيد قراءة مقطع هنا، وفقرة هناك، ولازال وجهه يحمل آثار الصدمة، ثم ردد مرة أخرى:

- نمل!.. لكن كيف؟!

وكأن "النيوترينو" يراقبه من طرف خفي، واستقر في علمه أنه انتهى للتو من قراءة كل الملفات التي تركها أمامه منذ ساعات. دلف إلى الحجرة بوجه طليق، يتعارض بشكل صارخ مع وجه دكتور "نائل" المرهق. أخرج "النيوترينو" من جيب سترته أنبوبًا يُشبه القلم وأخرج منه واحدة من النمال ثم وضعها بداخل فمه. هذه المرة لم يراود دكتور "نائل" نفور وتقزز، بل شعور غريب بعد تلك الليلة الطويلة التي أمضاها في عالم مجموعة من النمال. طن رأسه بأسئلة كثيرة يتلهف لمعرفة أجوبتها، لكن قبل أن يتوجه إلى "النيوترينو" بأيها، بادره "النيوترينو" قائلًا، وهو يفتح أمامه بحركة من عينه ملفًا آخر يحمل الرقم ثلاثة وثلاثون:

- فاتك هذا الملف، كتبه حاسوبي المتطور خلال الليل، هيا اقرأه الآن، وسيكون لدينا بعدها حديث طويل.



الملف الثالث والثلاثون

رفعت "بِنَان" رأسها لتنظر إلى وجه الأم الملكة، تملأ عينها منها، ثم سألتها:

- من حبسك هنا؟

- حبسني من اغتصب أرضنا.

- ملك "مينورا"!.. كيف؟!

تطلعت إليها أربعة أوجه متلهفة لحديثها، فقالت:

- حدث كل شيء بعد معركتنا مع محاربي"مينورا" الذين أغاروا على النصف الغربي من مملكتنا، على أرض "باسطين"، واحتلوا كل شبر فيها، بعدما كانت هي وأرض "النسر" مملكة كبيرة، وطنًا واحدًا يسعنا جميعًا. ولم يكتفوا بذلك فأغاروا على أرض "النسر" أيضًا. ثم أشاعوا أنني قُتلت، لكن الحقيقة هي أنني طُعنت في ظهري، سلَّمني بعض الخونة إلى ملك "مينورا".

- هذذا فظظيع.

أردفت الملكة وكأنها لم تسمعه:

- "آصف" هو الوحيد الذي امتلك من العلم والحكمة ما مكَّنه من معرفة مكاني، كنت أتواصل معه على الدوام من خلال رسائل خاصة.. رسائل كيميائية يفرزها جسدي، كنت أخبره بمكان اختطافي وبوصف المكان الذي ساقوني إليه، أترك له على الأرض والجدران آثارًا يفرزها

جسدي، فتمكَّن من الوصول إليَّ بالفعل عبر هذا النفق، لكن وقتها كنتم أُمة مستضعفة، فخشي أن يقتلني ملوككم وأمراؤكم ولا يتحرك واحدٌ منكم للدفاع عني، فانتظر.. وانتظرت.. حتى يتمكن لنا النصر.

فأعد هذا الفخ على الباب الذي حفره بنفسه للوصول إليَّ. ثم مضى وقت طويل على حبسي بدون عاملات ينظفنني فضعفت رائحتي وفقدت التواصل معه.. لكنني كنت على ثقة أنه أبدًا لم ينسني، كان آخر ما قاله لي: "سآتي لإنقاذك، أو سيفعل تلامذتي.. سأعدهم من أجل هذا اليوم"!

ران الصمت طويلًا قبل أن يقول "القزم" وصوته يحمل آهات وحسرات:

- لكننا لازلنا ضعفاء، لقد قتلوا المُعلم "آصف" وكل تلاميذه، لا يوجد سوانا نحن الأربعة، ماذا من الممكن أن نصنع بمفردنا، كيف بإمكاننا أن نحميكِ.

نظرت إلى فتحة السقف المسيجة وهي تقول:

- صحيح أنني لم أعد أستطيع بث الرسائل، لكن بإمكاني استقبالها، أنا على علم بكل ما يحدث لأبنائي في الخارج، لذلك أنا واثقة أن الوقت قد حان.

تبادلوا نظرات قلقة، وعادوا واحدٌ تلو الآخر يدفنون رؤوسهم في جسد الملكة، ينعمون بلحظات من السكينة والصفاء قبل معركتهم الأخيرة.

تقدَّمهم "القزم" في المسير متأهبًا، ومن خلفه الملكة يحاوطها من كل جهة واحدٌ منهم، "بِنَان" في المؤخرة، و"سُلاس" و"حَبُوك" كل في جهة. اندفعوا كرأس سهم إلى النفق يبحثون عن أي منفذ للهرب، مروا على جثث "جادور" وفرقته حتى وصلوا إلى الصخرة التي سدت مدخل النفق، كاد أن يصيبهم اليأس لولا كلمات الملكة المشجعة. طفق "القزم" يتحسس

الجدار وهو يدق عليه بأطرافه. لم يفهم أحد في البداية ماذا يصنع، لكن "بِنَان" فهمت مُراده، فحذت حذوه مع الجدار المقابل، وسارا عائدين في اتجاه القبو. تذكر جيدًا يوم هروبهم من نفق أهل "باسطين"، كيف أزاح أحدهم ورقة شجر بلون الجدار يوارون خلفها فتحة للهرب. صاح "القزم" ببهجة وقد عثر على فتحة مماثلة. تعاونوا جميعًا على قطع الورقة الملتصقة بها لتخفيها عن الأنظار، فظهر من خلفها فتحة للهرب، تطل مباشرة على الغابة. صنعوا فتحة تسع جسد الملكة، وعاونوها على الخروج منها. عندما أصبح الجميع فوق سطح الأرض تنفسوا الصعداء، وتبادلوا نظرات الفرح والانتصار.

لم يفارق "حبُوك" قدم أمه لحظة، كأنما يعوض حرمانه الطويل من القرب منها والعمل على خدمتها. كان أول من بدأ في تنظيفها بلعابه، بهمة أوردته السعادة، شاركه الجميع في هذا العمل الجليل، فما انتهوا إلا بعدما توهَّج جسدها ببريق ساحر. انتشر ثلاثة منهم للبحث عن الطعام، وبقيت "بِنَان" في رفقتها كمحارب متأهب يقظ، تدور بعينها في كل اتجاه. عادوا بقطع من التين الجاف، وبذور من العنب، وحبة ضخمة من البقوليات، وقطعة من البلور الأبيض الملكي ظفر بها "القزم" وقدمها إلى أمه بفخر واعتزاز، كانت بحاجة إلى طاقة لن يمنحها لها إلا السكريات. لم تهنأ بالطعام وحدها، قدمت لكل منهم حصة التهمها بنهم شديد. ولأول مرة تهب "سُلاس" رحيق بطنها بحب لا يشوبه مذلة، غاب عنها في هذه اللحظة شعور الهوان الذي لازمها منذ أن عوقبت بالنفي إلى مساكن الشعب واتخاذ بطنها قربة لتخزين العُسيل، تُطعم به الجوعى رغمًا عنها. الآن أخذت تزَقَّمَتهُم بسعادة واحدًا تلو الآخر، فمًا لفم، فشربوا جميعًا حتى ارتووا.

تباحثوا طويًلا فيما يجب أن تكون خطوتهم القادمة، كانوا في منتصف الغابة، أقرب إلى "باسطين" منهم إلى "النسر"، فاتخذوا من ذلك إشارة عضدتها الأم الملكة بقولها حازمة النبرات:

- يجب أن نصل إلى الجدار الغربي لهذا العالم، يجب أن نتحرر جميعًا.

هتف "القزم" بلهفة:

- هل هذا صحيح بالفعل، إذن الرسالة التي تركها "آصف" عند الجدار الشرقي قبل موته كانت صحيحة، لقد قال فيها أن الطريق الوحيد للنجاة هو الوصول إلى نهاية العالم، عبر الجدار الغربي الذي يقع غرب "باسطين".

أكدت الملكة قائلة:

- نعم هذا صحيح، نهاية العالم هي المكان الوحيد الذي يمكننا فيه أن نبدأ حياتنا من جديد، دون أن نخضع لتأثير المُخرب وتحكماته فينا، هذا ما توصل إليه "آصف" قبل أن تنقطع الرسائل بيني وبينه.

فكر الجميع للحظات طالت، ثم أعاد "القزم" بقوله متشككًا:

- لكن نحن أربعة فحسب، كيف بإمكاننا أن نحميكِ وفي الوقت نفسه نصل إلى الجدار الغربي في "باسطين".

بادرته "بِنَان" مذكِرة إياه:

- لسنا أربعة فحسب، أهل "باسطين" كلهم معنا، لا تعرفهم إنهم لا يهابون الموت.. أنا على ثقة تامة أن الكثير منهم لازال على العهد.

أضافت "سُلاس مُقترحة:

- يجب أن نصل إلى نفقهم الذي مررت عبره مع "بِنَان" أثناء خروجك من "باسطين"، يجب أن يتم ذلك بسرعة فأصوات الحرب الدائرة فوق أرض "النسر" لم تهدأ لحظة.

شاركهم "حَبُوك" قائلًا بحماس:

- نعم، سنباغتهم، ستُكسبنا المفاجأة الكثير من القوة. أهل "باسطين" أقوياء، يتأهبون منذ زمن طويل لهذا اليوم، سيمدوننا بحمض النمليك الحارق، أنا واثق أأن النصر سيكون حليفنا.

صدَّقت الأم الملكة على خطتهم، استنهض الجميع يسيرون بالتشكيل نفسه، يحاوطونها بأجسادهم وأرواحهم. مروا بشجرة "البَشَام" فتعاونوا على قطع إحدى وريقاتها، ونهلوا من لبنها الذي أهريق كالسيل، حلوًا ومغذيًا. وقفوا عند حافة الغابة المطلة على "النهر الأسود"، يطيلون النظر يمينًا إلى الأجساد المتلاحمة فوق التل الأحمر الذي تبدَّى لهم. حثُّوا الملكة على المغادرة لكنها وقفت متجمدة بمكانها، يتلوَّن وجهها بألوان الألم، تبصر من بعيد جثث أبنائها يطؤها بعضهم البعض، تلمس حقدًا وكرهًا وغضبًا ما ألفته في نفسها، وما أحبت أن تراه ينهش في نفوس أبنائها.

مسَّها "القزم" ليُذكِّرها أن للوقت ثمنًا. أخبرتها "بِنَان" أن انتظار الخير منهم لا رجا فيه، وأنهم استحقوا بذنوبهم العقاب. شرح لها "حَبُوك" أنهم جهلاء ضعفاء يتوجهون حيث يُسار بهم، لا يقوون على مساعدة أنفسهم فضلًا عن مساعدتها.

وحدها "سُلاس" وقفت تحدِّق فيهم لا تحيد عنهم بأنظارها، ترى فيهم ذلًّأ وخنوعًا، وآثامًا وشرورًا، واستسلامًا واستضعافًا، وتكبرًا وتجبرًا على كل من يبارزهم بعلمه، ويناطحهم بنقاء شيمه. رأت فيهم نبتة أضعفتها تربة فاسدة، وماءً آسنًا، فلم تجد بجيدها ثمارًا تطرحها، ولا رحيقًا تجود به. وما جعل خافقها يغوص كمدًا، أنها رأت فيهم نفسها!

التفتت إلى "بِنَان" التي تهز رأسها أسفًا، تسارق النظر إلى الضفة الأخرى، وتساءلت في نفسها تُرى لو علمت الآن بأنها من أوقعتها في هذا المأزق الذي كاد أن يودي بحياتها! ساعدت "جادور" على النيل منها! حتى ولو لم تكن تعلم أن ما نثرته فوق الفِطْر بالقاعة الزراعية هو سم قاتل سيكون دليل إدانة "بِنَان". حتى ولو لم تكن تعلم أن "جادور" سيجرؤ على تسميم ما معه من فطر ويقتل به الثلاثمائة الذين أهداهم إياه، وحتى لو تعجَّبت كيف لم تفكر "بِنَان" بأنها الفاعلة رغم أنهما الوحيدتان القادرتان على النفاذ من حارس البوابة الذي يحرس قاعتها الزراعية. حتى لو جهلت كل ذلك فستظل في عين "بِنَان" آثمة لا رجا من إصلاحها، وربما لو كانت تملك القدرة لدفعت بها تحت أقدام الجلاوزة، ولهزت رأسها أسفًا قائلة: "لقد استحقت العقاب".

خفق قلب الملكة بقوة، ربما لطبيعتها الأنثوية المرهفة، أو لوقود مشاعر أمومة تمور بدمائها، أو لصفات ملكية حكيمة تموج بعقلها، أو ربما اجتماع كل ذلك هو ما جعلها تقف هناك بلا أي رغبة لمفارقة موضع نظرها. تعلقت بالحنين إليهم منذ لحظة وضعتهم بيضًا صغيرًا شفافًا، لا تمر عدة أيام إلا وترى زمرة من محاربي"مينورا"، يتدلُّون من فتحة السقف المسيجة بسجنها والتي لا تتسع لفرارها، يتركون لها قطرات ماء، ويغتصبون منها نصف ما تضعه من البيوض، تاركين لها النصف الآخر طعامًا لها، قطرات ماء مقابل أن ينعم نصف أبنائها بالحياة!.. تطوف أحلامها على أطلال ماضٍ قريب بعيد، تتمسك بتلابيب أمل إحيائه من جديد. ولما أتيحت لها الآن الفرصة لذلك، لم تقوَ على الانصراف عن أبناء يصنعون الموت، ولا يتزودون له إلا بخزي وعار.

لعل الضياء لا تحويه جُل القلوب، لكن تلك الزمرة التي تنشق قلوبهم عن فطرة لم تمت، سوى أن غشيها ظلام الجهل والخرافات، تستحق أن تتطهر من أدرانها، تستحق أن تنعم بالحرية، وإن كانوا على موعد مع درب

المنون، فلتكن ميتة مشرفة بيقين لا تساوره الظنون. وفهم لطبيعة أدوارهم في الحياة، وما خُلقوا من أجله، وفُطروا عليه.

تسلَّحت بقلب أوتي سعة من الرحمة، وبعثت برسائل أفرزها جسدها، عهود حب واشتياق، ودعوة ووفاق، تدعوهم إلى درب النجاة فاليوم لا عاصم إلاه. أصدرت أمرها لأربعتهم أنها لن تطأ أرض "باسطين" إلا بعدما تنقذ من أبنائها من لازال يحمل بقلبه مثقال حبة خردل من الخير. فامتثلوا لأمرها، وغذوا المسير في اتجاه أرض "النسر"، عبروا البركة فجن جنون "البنغول" آكل النمال، يراهم من فوق الجسر، ولا يستطيع أن يُمسك بهم بفمه الطويل. خرجوا بعد سير شاق من الغابة.

وكانت الغلبة في حرب اليوم من نصيب الجلاوزة، التفوا حول الشعب في دائرة حوافها من نار قلوبهم، وشرر عيونهم، وأسلحة قاطعة وحمض مُميت. أطلَّت الملكة عليهم تجذب أنظار الجميع، فتعلَّقت بها العيون، وساد لحن السكون..!

مرت من خلالهم فلم يجرؤ على أن يوقفها أحد، انبهروا لمرآها، لم يسبق لهم أن رأوا ملكة من النمل بهذا الحجم، وبتلك العظمة والمهابة، تواصلت بقرونها مع كل القرون التي مرَّت بها من أبنائها، تبثهم حنينها، وتقص عليهم ما جهلوا. الشعب الذي نسي أنه كان يتواصل مع بعضه في الماضي من خلال قرونهم التي تُقربهم، وتوحِّد مقاصدهم ورغباتهم، أمسى يُقبل عليها بقرونه، يحكها بقرنيها، فقالت وقالت، واستمعوا لها، أعرض وكذَّب البعض دعوتها. واستجاب وصدَّق كثيرون، تغشى قلوبهم سكينة لم يألفوها، ونزعة إلى الجمال بنفوسهم احتوتها، ونفروا من كل رمز قدسوه، يجتذبهم رمزٌ أكبر ما خُلق إلا ليتقدس. وأقبلوا يلبون نداء التطهر من دنس الجهل والخرافات، خشعوا خشوع السماء والشجر وذرات الرمال، وقطرات الندى وسفوح الجبال، يروون ظمأهم بلذة الإيمان، ومعبدهم فسيح باتساع الأكوان.

لم يُفرق نداء الملكة بين ملك وفقير، وجلواز وأمير، فأقبل من اجتمعت قلوبهم بوفاق، تخفق بشغف تتوق إلى مسابقة الريح إلى حيث تأمرهم أمهم الملكة، إلى أرض "باسطين"، إلى بوابة الحرية، وقارب النجاة. ارتجت أرض "النسر" بغضب "راعون" وما تبقى معه من الجلاوزة والأمراء، الذين يخشون انتزاع مقاليد الحُكم من بين أيديهم، فتوجهوا صوب الغابة يقطعون الطريق على الملكة وأبنائها، بعدما علموا أن كذبة الطحالب السامة التي تُغطي البركة قد انكشف أمرها، فأشار "القزم" على الملكة بالاتجاه صوب "النهر الأسود".

دارت مواجهة دامية بين "راعون" وبعض أبناء الملكة، ومضى آخرون برفقتها إلى حيث أشار "القزم"، يطيلون النظر إلى سطحه، يبرز "كلب النهر" يروح ويغدو، حينًا من أقصى اليسار، وأحايين أخرى من أقصى اليمين. لم يكن عليهم فحسب مواجهة هذه السمكة المخيفة ذات الأنياب الحادة القاطعة، بل مواجهة مخاوفهم كذلك، وكان هذا على نفوسهم أشد من مواجهة السمكة الشرسة. كانت المعركة لازالت تدور رحاها بين من استجاب من أبنائها إلى دعوتها وبين "راعون" وما تبقى معه من الجلاوزة، أما الملوك والأمراء فغلقوا دونهم الكهف. وعندما احتدمت المعركة وطالت، هرب "راعون" من الساحة وتخفَّى تحت الأرض، بمساكن الشعب، مع ما تبقى من الملوك والأمراء والجلاوزة، أخلوا الكهف عن بكرة أبيه، ورُدوا إلى أسفل سافلين.

أمر "القزم" من معه بأن يتشبث كل منهم بالآخر لصنع قارب كبير، يعبرون به إلى الضفة الأخرى ويحملون الملكة فوقه حتى لا يمسها سوء. تشابكت الأطراف وتزاوجت القرون كتعشيق التروس، كما لو أنها صُنعت لتتحد، ويشد بعضها بعضًا، وكل منهم يحمل بجيب بطنة قطعة من الفطر السام الذي أخرجه الجلاوزة من القاعة الزراعية إلى العراء. صنعوا دائرة صغيرة بأجسادهم الملتحمة، لم تلبث أن زادت في حجمها

باتحادهم جميعًا، جدَّفت أقدامهم مع تيار النهر، يحملهم إلى الضفة الأخرى، كانوا يعلمون أنهم يخاطرون بحيواتهم، لكنها بدت في أعينهم بلا معنى إن بقوا على هذا الجانب من النهر، يستمرون في العيش في قبور سُميت بمساكن، وأهواء تخفَّت في رداء القوانين.

لم يجتازوا منتصف المسافة حتى كان ثمة خطر يلوح في الأفق، برز رأس"كلب النهر" يرصد أولئك المجانين الذي أتوا لعنده طواعية، يتفحصهم، يدور حولهم، يستعد لمباغتتهم، ثم ينقض عليهم ويقضم قضمة كبيرة، شدوا من عزم بعضهم البعض ألا تنفصل أطرافهم عن بعضها أبدًا، فتشبثهم هو سر نجاتهم، ولم يُثنِ الخوف من عزمهم و"كلب النهر" يحوم حولهم مختالًا كصياد فرح بطريدة سهلة لا حول لها ولا قوة.

ينظر إليهم كمجموعة من النمال الصغيرة التي لا وزن له، أين هم من قوة جسده، وأسلحته الفتاكة، لا قِبَل لهم بمقاومته، إنما خلقوا ليصيروا فريسة عاجزة عن الوقوف بوجهه، تستسلم لمشيئته دون أن تزعجه بمقاومة لا معنى لها. يعرفون حجمهم جيدًا وحجم صائدهم كذلك، فيخلصوا إلى أنهم مهما حاولوا لن يملكوا صده عن نيل مآربه. قضمة أخرى وكادت بعض الأطراف أن تدع بعضها بعضًا من هول ما يحدث، هتافات "بِنَان" الحماسية ألهبت عنادهم وشحذت من عزمهم، وكذا فعلت "سُلاس" و"حَبُوك"، فتكاتفت أجسادهم، وتآلفت قلوبهم، لعلها لأول مرة منذ أن وهبوا الحياة.

قضمة ثالثة أصابت أحد جوانب القرص الدائري الذي صنعوه بأجسادهم، لكن همهم انصب على ألا يقترب "كلب النهر" من الأم التي يحملونها فوقهم. أرسلت الشمس نورها لتكمل فراغ الدائرة، نسجت خيوطا ذهبية بأجسادهم السمراء فباتوا خليطًا من ليل ونهار، وضوء وظلام، كل منهم آية، لا تحل إحداها محل الأخرى. لم يظهر "كلب النهر" على السطح مرة أخرى، هتك السم جدار معدته، وأرسل بطعناته في

محيط جسده، فود لو تقيأ بطنه بكاملها ليتخلص مما حوته من فريسة استهان بها، وظن أنها لصغر حجمها وضعف إمكانياتها لا تملك من الذكاء والحكمة ما يجعلها ندًا له، خصمًا يبارز، لا لقمًا سائغة تشبع جوعه. أذهبت سطوة الألم بأنفاسه، ولم يستردها ثانية أبدًا.

***



الشيطان يبتسم

لم يكد دكتور "نائل" ينتهي من قراءة الملف، حتى سرى الخدر في أطرافه، تيبست عضلات ظهره وكتفيه، فحاول أن يتمطَّع رغم القيد الملتف حول معصميه، صرخ ألمًا وهو يرنو إلى "النيوترينو" يتوسل إليه قائلًا:

- لقد هلك جسدي تعبًا، أرجوك فك قيدي قليلًا، انظر أنا أضعف من أن أحاول الهرب.

صدَّق على كلامه وجهه المتعب، وجسده خائر القوى. ضغط "النيوترينو" زرًا بإسورة معصمه فانفك القيد، تنهد دكتور "نائل" براحة. تأمل الضمادة التي تُغطي أصبعه المبتور فشعر بنبضات الألم تخفق من جديد، أو لعلها أوهام نسجها عقله ما إن رأى هذا الفراغ بكفه. سأله "النيوترينو" بنفاذ صبر:

- والآن.. هل توافق؟

نظر إليه دكتور "نائل" بحيرة، فانفجر "النيوترينو" ضاحكًا، يرفع كفيه أمام وجهه:

- لقد نسيت أنني لم أشرح لك الأمر بعد.. لكن دعنا أولًا نرى ماذا أسفرت عنه نتائج التحقيقات.

قالها وضغط زرًا آخر بمعصمه فتحول الجدار إلى شاشة مرة أخرى، وبعد متابعة عدة دقائق فغر خلالها دكتور "نائل" فاه دهشة، ارتج المكان بضحكات "النيوترينو" وهو يقول:

- ليتك ترى وجهك الآن، إنه مضحك جدًا.

قال دكتور "نائل" ولا يزال ذاهلًا:

- كيف فعلت ذلك؟، كيف صنعت شخصًا يشبهني إلى هذا الحد، ليس في الملامح فحسب بل في بصمات الأصابع والعين والأذن، حتى أن خبراء الطب الشرعي لم يتمكن أي منهم من اكتشاف أنه شخص مزيف، كيف تمكنت من ذلك؟

- إنه سري الخاص، ونتاج سنوات من التجارب والأبحاث.

قالها "النيوترينو" بفخر، أخرج من جيبه علبة صغيرة مخملية، فتحها ووضعها على الطاولة بينهما، تأمل دكتور "نائل" محتواها بفضول، لم يجد سوى نقطة سوداء دقيقة في منتصف علبة شديدة البياض، فرفع أنظاره إلى "النيوترينو" حائرًا، فتلقفها "النيوترينو" بالشرح:

- لقد قضيت ثلاثين عامًا من عمري في تطوير أبحاثي باسخدام تقنية النانو، حتى تمكنت بمساعدة مجهر القوة الذرية من صناعة ربوتات دقيقة جدًا، هذا الذي تراه يفوق حجمه أضعاف ما أنا قادر على صناعته.

ثم استطرد وهو يريح ظهره إلى المقعد، ويطرق بأصابعه فوق الطاولة:

- عالَم النانو الأصغر من حجم الشعرة بخمسين ألف مرة، بديع جدًا إلى حد مُذهل، ما إن تلجه حتى تعجز عن الخرج منه.

ثم أردف بحماس وهو يميل إلى الامام:

- هذه الربوتات الصغيرة قادرة على أن تفعل كل شيء، بإمكانك أن تحقن بها جسدًا مصابًا بالسرطان فتتوجه مباشرة إلى تلك الخلايا الخبيثة وتفتتها في ثوان، بإمكانها القضاء على الفيروسات والبكتريا

والطفيليات مهما بلغت قوتها وشدتها، ومهما صغر حجمها وتاه في خلايا الجسد ودمائه.

انتقل حماسه إلى دكتور "نائل" فهتف بذهول:

- هذا رهيب!! لا يمكنني أن أتخيل فوائد شيء كهذا، إنه مستشفى كاملة تحملها في جيبك، تستغني بها عن أمهر الأطباء وأقوى الأدوية تأثيرًا!! بإمكانك أن تضرب كل شركات الأدوية حول العالم في مقتل وتحتكر سوق الدواء لنفسك، بإمكانك أن تصبح أغني أغنياء العالم بهذا الاختراع..!

توقف دكتور "نائل" عن الكلام عندما أبصر بسمة ساخرة ترتسم بطلاقة على شفتي "النيوترينو"، والذي أفصح يقول:

- عذرًا عزيزي دكتور "نائل" فمشاريعي مختلفة كثيرًا عن أحلامك هذه.. طموحاتي تتجاوز ذلك إلى حد بعيد.

ثم أردف وهو يتحسس الروبوت الصغير بين أصبعيه:

- باستخدام تقنية النانو الثورية، وبمساعدة هذا الاختراع المذهل تمكنت من تتبع وادٍ من النمل ونقله إلى معملي بمنتهى البساطة.. إن هذه الروبوتات تعمل كحفَّار ممتاز، اقتطع الوادي بكامله ونقلته إلي مكان التجربة.كما تقتطع قطعة من الكعكة في مطبخك بشعاع ليزري.

ثم أردف وهو يتأمل دكتور "نائل" منبهر النظرات، وقد راقه الأثر الذي أحدثه فيه:

- وبهذه الربوتات تمكنت من نقل أصوات وأفكار ومشاعر ورغبات وأحلام النمال إلى الحاسوب الخاص بي، ثم قمت بتحليل كل هذه المعلومات وترجمتها إلى صيغ مفهومة، مستعينًا بتجارب علماء الحشرات الذين تمكنوا من ترجمة بعض أصوات النمال، وهذا التقرير الذي قرأته هو تجربتي الأولى في هذا المضمار، وأظنك أدركت أن التجربة مستمرة حتى

هذه اللحظة، كتبها حاسوبي بدقة متناهية كما لو كان نملة تعيش معهم.. بل أقرب من ذلك، كما لو كان هو هم.

- هذا مُذهل.. مُذهل وخارق.

ثم أردف دكتور "نائل" بشغف فاضت به عيناه:

- لقد احتلت عليهم وصنعت ظروفًا مناخية حقيقية عاشوا في ظلها وصدقوها، كيف فعلت ذلك؟

بفخر نطقت به قسماته أجابه "النيوترينو":

- لأنني أملك المقدرة.

أصبح جلوس دكتور "نائل" فوق المقعد غير محتمل، فآلام عضلاته تزداد حدة، سأله دكتور "نائل" بألم وهو يحاول أن يحرك جسده بقدر ما يسمح المقعد:

- ماذا تريد مني؟.. ولماذا قتلت العالِمين؟

أخرج "النيوترينو" نملة أخرى من الأنبوب الذي يحمله، ووضعها في فمه متلذذًا، تأملها دكتور "نائل" فتمكن من رؤية بطنها المنتفخ.

- مممممم طعمها حلو كالعسل.

ثم أردف بخبث غامزًا بعينه:

- أتراها تكون إحدى الأميرات المنبوذات؟

- أجبني أرجوك.

- قتلتهما لأنهما رفضا مساعدتي.. روبوتاتي المطيعة صنعت معطفًا بشريًّا يشبه أحد عمال الصيانة للطائرة الخاصة بالبروفيسور "كينان

أورغو" وللطباخ الخاص بدكتور "أكمل صائب"، وهي نفس الطريقة التي تمكنت بها من صناعة معطف بشري يشبهك.

ثم استطرد بفخر:

- كنت أضطر إلى سلخ أحدهم لأصنع من خلاياه معطف يصلح للإرتداء بعد المرور بخطوات معقدة، لكنني توصلت إلى استنساخ الخلايا وصناعة المعاطف البشرية منها دون أن اضطر إلى سلخ الضحية.

ازدرد دكتور "نائل" ريقة بصعوبة، تلوح في عينيه نظرة خوف هائلة، مط "النيوترينو" شفتيه قائلًا:

- لكن للأسف إعادة تشكيل الخلايا لا يدوم، فقط أقل من ٢٤ ساعة ويتحلل المعطف المستنسخ ويظهر الجسد الحقيقي الذي يخفيه. ثم قال بإبتسامة واسعة:

- تخيل ذلك، النساء في الماضي كن يستخدمن من جلود الحيوانات مثل الثعالب والكلاب معاطف لأجسادهن، والآن بإمكاني أن أستخدم من أجسادهن معاطف لي.

سأله دكتور "نائل" بنفاذ صبر:

- ماذا تريد مني، ما دخلي أنا بقصة المعاطف تلك؟

دنا منه "النيوترينو"؛ مال إليه فتحركت السلسلة التي تطوق عنقه أمام وجه دكتور "نائل"، فاهتز الشمعدان السُباعي الذي تدلى منها، فاستقرت فوقه أنظار دكتور "نائل" المضطربة، يلفح وجه أنفاس "النيوترينو" وهو يقول بحزم:

- أريد إعادة التجربة، لكن هذه المرة على نماذج بشرية، أعلم بأبحاثك في مجال النانوبيولوجي، وأدرك جيدًا أنك قادر على مساعدتي، كان من

المقرر أن يساعدني زميل لي، لكن الغبي قُتل في حادث سير، ستكون بديلًا جيدًا لزميلي الذي فقدته.

هتف به دكتور "نائل" بحدة:

- هل أنت مجنون، نماذج بشرية!.. كيف؟.. ولماذا؟

- "كيف" سنتحدث فيها لاحقًا، أما "لماذا" فالإجابة بسيطة جدًا، فهذه التجربة إن نجحت فسأتمكن من السيطرة على العالم.

خرجت كلمات دكتور "نائل" بصعوبة من شفتين تختلجان:

- أريد أن أشرب.

ازدادت قسمات "النيوترينو" قسوة واستطرد بنشوة كأنما لم يسمعه:

- كانت تجاربي في البداية قاصرة على فكرة تملكتني وهي ماذا يحدث إن حولنا النمال إلى بشر؟! فعمدت إلى حقنهم بكل المشاعر البشرية التي غابت عن عالم النمال، الحقد، الكره، الحسد، الغيرة، الحب، هل تعلم ماذا حدث، حولتهم تلك العواطف كما لو كانوا بشرًا مثلنا، وتخلوا عن الخصلة الوحيدة التي تتميز بها النمال عنّا: (التضحية)..! لم يتخلوا عنها فحسب، بل شوهوا معناها.

تنفس بعمق، أخذت نبرات صوته مأخذ الجَد، وعيناه تلمعان بشدة:

- والآن أريد أن أعكس التجربة، وأحوِّل البشر إلى نمال، سأنزع عنهم كل هذه المشاعر التي تميزهم عن النمال، إن تمكنت من تحويلهم إلى نمال فسيكونوا مجرد جيشٍ يسمع ويطيع بلا اختيار، بلا أسئلة، بلا اعتراض، بلا خوف ولا اضطراب، سيدينون لي بالطاعة العمياء، تمامًا كما يحدث في المجتمع الحيواني، كما نشاهد في خلايا النحل أو أسراب الجراد وكثبان النمل.



التقط أنفاسه ثم أردف:

- هل تعلم كيف يتم تدريب شخص على عملية انتحارية، كهذا الشخص الذي حل مكانك في المؤتمر؟

نظر إليه دكتور "نائل" بحيرة، فاستكمل "النيوترينو" حديثه دون أن يبدو عليه أنه كان ينتظر جوابه:

- بدءًا من العثور على شخص بائس، متذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والدأب على جذبه إلى المعتقد الذي تريده، مرة بالعقل والمنطق، وأخرى بالحيلة أو اللعب على نزعاته العاطفية الفائرة، ثم تدريبه تحت ظروف قاسية حتى لا يُفسد الأمر في آخر لحظة، إن هذا مرهق ومُكلف، ويتطلب الكثير من الصبر، الصبر يعني وقتًا، والوقت هو عدوك الأشرس، الشيء البغيض الذي يتربص بك ليُفسد عليك حياتك، ويطفي فيك كل ومضة حلم.

ثم قال وقد عاوده حماسه:

- لكن مفهوم التضحية عند النمال مختلف عن نظيره لدى البشر، مفهوم لا تحركه هوى العاطفة بل آلية المصلحة، مجرد صفة غريزية تتقيد بها النمال ولا تقوى معها على التفكير أو العصيان.. هذه هي الجنة التي أحلم أن أشيد أركانها على الأرض.

- أنت شيطان!

- لا بل أنا صانع، قادر، ومُبدع، وستنجح تجربتي، وتحقق حُلمي، وسأكون أنا الصانع الأعلى والأوحد.. سأملك أقدار العالم كله بين يدي!

استبد التوتر بدكتور "نائل"، تراوده خيالات تلك التجربة الفريدة التي قرأها منذ قليل، وهذا العرض بمشاركة هذا المجنون في تجربته الجديدة، التجربة التي لم يسبق لعالِم أن خاض مضمارها. لاح أمامه اسمه بجوار

"النيوترينو" في كل الصحف، سيصبح حديث الجميع في المؤتمرات والمحافل العلمية عن تجربتهما المشتركة المذهلة، سيتربع عرش العالم الذي لا يؤمن إلا بالعلم، سينصبونه سيدًا حتى لو باءت جهودهما بالفشل، سيكفيه المشاركة في مثل هذه التجربة، لكن سيكون لديه شروط كثيرة تضمن سلامته، فـ"النيوترينو" مُلاحق من قِبل الجميع الآن. نظر إلى الملف الأخير الذي يحمل الرقم الثالث والثلاثين ثم توجه إلى "النيوترينو" بسؤاله:

- أظن أن تجربة النمال اقتربت من نهايتها الآن.

أطلق "النيوترينو" ضحكة عالية وهو يسأله:

- لماذا تقول ذلك؟

اضطرب دكتور "نائل"، ثم قال بحماس:

- لأن نمال مملكة "النسر" سيتوجهون إلى "مينورا" ومعهم الملكة، وسينتصرون عليهم، وعندها سينتهي كل شيء، بل سيثبت ذلك فشل التجربة إذ أنهم استطاعوا رغم كل شيء أن يضحوا بأنفسهم من أجل غاية نبيلة، ولم تستطع كل هذه المشاعر البشرية التي حقنتهم بها من أن تُفسد ذلك.

لاحت على شفتي "النيوترينو" بسمة ساخرة وهو يقول:

- إنك تستبق الأحداث عزيزي دكتور "نائل"، وتعطي هؤلاء النمال حجمًا أكبر مما تحتله أجسادهم الضامرة المريضة وعقولهم الخربة. لقد عاشوا طويلًا عبيدًا مستضعفين، يألفون الطاعة وينبذون العصيان، أما محاربي"مينورا" فإنهم شجعان أقوياء ولهم في فنون الحرب ألف باع، سترى أنهم سيفرون من أمامهم كما تفر الخراف أمام زئير الأسود.

ثم مال إليه مستطردًا بخبث:

- كما أن إيمان محاربي "مينورا" قديم جدًا، ترسَّخ في عقولهم وقلوبهم وكل ذرة من خلاياهم، بالوعد الذي بثثته عبر روبوتاتي الصغيرة، فآمنوا به أشد الإيمان. أما إيمان هذه النمال الضامرة فإيمان هش، لا يقوى على مواجهة الفتن والشبهات، يسهل التلاعب بهم ما إن تصنع لهم كذبة احترافية، ومقادير صناعة كذبة احترافية هي أن تمزج الكذبة بحقيقة ما، ثم تُلقي عليها برداء القُدسية، عندها لن يجرؤ أحد على تكذيبك، وحتى وإن فعل أحدهم فسينقض عليه الآخرون ينهشوه لإهانته رمزهم المُقدس.

انطلق صوت صافرة من حاسوب "النيوترينو" الهوائي، فتأمله دكتور "نائل" بفضول بالغ وهو يفحص أحد الملفات، ثم بدا وكأنه قرر شيئًا فالتفت إلى دكتور "نائل" قائلًا بخبث:

- أرى اللهفة تكاد تُخرِج عينيك من محجريهما، حسنًا فلنقرأه سويًا لتعلم دقة ما أخبرتك به، إنه ملف جديد، ترجمه الروبوت الإلكتروني الآن وأوصله بحاسوبي، هيا فلنتصفح معًا الملف الرابع والثلاثين.

واتسعت ابتسامته.

***



الملف الرابع والثلاثون

آلاف النمال أحاطت بالأم الملكة، يرفعونها فوق الرؤوس، يسيرون بعزيمة تدك الجبال الراسيات إلى بوابة "باسطين"، تساورهم طاقة كبيرة، وحلم مشروع بالمرور عبرها إلى بر الحرية.

لم تقف البوابة بصمود أمام أعدادهم الغفيرة، تخطوها سريعًا يمرقون فوق جثث حراسها إلى الساحة الكبيرة، كان دخولهم إلى "باسطين" مُباغتًا، كاد يتوج رقابهم بأوسمة النصر، لولا أن تخطى "ريشع" هول المفاجأة سريعًا، وانتشرت أوامره بين المحاربين تحثهم على الثبات في وجه هذا الطوفان البربري، لن يتركوا وطنهم بسهولة لهؤلاء الهمج، سيحاربون لآخر قطرة من دمائهم، لن يتخلوا عن قسَمهم فوق قبر "مينورا" قائدهم العظيم، بألا يسمحوا لأحد أن يسلبهم وطنهم، ويطردهم منه مرة أخرى.

اهتزت قلوب أبناء الملكة أمام عنف قتال محاربي"مينورا"، يتفوقون عليهم بأسلحتهم وحمض النمليك الحارق الذي امتلأت به بطونهم، وبإيمان رسخ في قلوبهم، لا يتبدل ولا يتغير. تساقط المئات أمام أعين الملكة الأم، يطوّقِها أبناؤها، يحمونها، ويتلقفون الموت فوق صدورهم بدلًا عنها. تمتلىء نفوسهم بإخلاص كبير، ورغبة في التضحية بالنفس تفوق كل تصور، لكنهم لا يجيدون فنون القتال، ولم يسمعوا من قبل من

يشد من عضدهم ويؤكد على امتلاكهم القوة الكافية لمواجهة هؤلاء المحاربين الأشداء.

أخذ الموت بأرواح مئات أُخر من أبناء المملكة. تقهقرت صفوفهم، وارتجت قلوبهم بالهلع. أخذ "القزم" يصرخ فيهم من جهة، و"بِنَان" من أخرى، يعلمان أنه لا فرصة للتراجع الآن، التقدم والتراجع سيُنهيان القصة بالطريقة نفسها. ففضلوا الموت بكرامة فوق أرض "باسطين"، مُقبلين غير مُدبرين.

أصاب الهلع محاربي"مينورا" في مقتل، عندما انبثقت الأرض عن آلاف من أهل "باسطين" المرابطين دومًا في الثغور، ينضمون إلى شعب "النسر"، يقفون معهم ظهرًا بظهر. ملتفين حول الملكة الأم، يرج هدير أصواتهم قلوب أعدائهم، تؤازرهم الأرض والسماء، وكأن الطبيعة انضمت إلى صفوفهم.

- احذروا، "الجوييم"! إنهم يخترقون صفوفكم.

منذ زمن طويل يبذل محاربو "مينورا" الغالي والنفيس، وينسجون الحيل والأساطير حتى يتجنبوا المواجهة مع أهل "باسطين"، أو من اعتادوا على تسميتهم بـ "الجوييم " الأنجاس!.. يعلمون أنهم لا قِبل لهم بمواجهة أعدادهم، ولا قوة إيمانهم ولا شجاعتهم وإقدامهم. ظنوا أن باطن الأرض، والأنفاق التي أرغموهم على العيش فيها ستُنهك قوتهم، وتُبدد عزمهم، وتُدمر نفوسهم. لكنهم ما قدروهم حق قدرهم.

احتمى محاربو "مينورا" بمساكنهم فوق الشجر بعدما لفظتهم الأرض والسماء، وضاق عليهم الكون بما رحب. لكن أبناء المملكة أرغموهم على

المواجهة عندما تسللوا إلى حصونهم فوق الأشجار، يحطمونها فوق رؤوسهم. التفت "القزم" إلى "بِنَان" قائلًا:

- احمي الملكة، لدي عمل يجب أن أتمه.

تكفَّلت بالرد "سُلاس" التي سددت للتو طعنة قاتلة بفمها الحاد كالسكين إلى رأس محارب شجته إلى نصفين، قائلة:

- لا تقلق، أنا و"حَبوك" هنا أيضًا.

اتخذت مكانه حول الملكة، تنظر إليه بقلق مبتعدًا يسابق الريح، يقضم بشراهة أطراف من يمر بهم من محاربي "مينورا". مر بأحد القتلى من جلاوزة مملكته، فملأ بطنه بما احتفظ به الجلواز من حمض النمليك الحارق، وهو يتحسسه بقرنيه كأنما يشكره على ما أبلى اليوم من شجاعة. تسلق الشجرة الشمعدانية ذات السبعة أفرع بعدما رشق عددًا من المحاربين بالحمض فذابت أجسادهم.

وكما توقع، كان "ريشَع" والملك بقاعة الحكم، يلوذان بالجبن فرارًا من المعركة، ما إن وقعت أعين "ريشَع" عليه حتى صرخ يستنجد بمحاربيه. أقبَل عليه "القزم" بجسد منتصب وهامة لا تنحني، وعين تنطق بقوة غذت بها دماؤه الشفافة كل خليه بجسده، ثم قال:

- كنت أثق أننا سنلتقي مرة أخرى.

ثم أضاف وابتسامة متحدية تلوِّن وجهه:

- لكنني لم أتخيل أن لقاءنا الأخير سيكون بهذه المتعة.

قال "ريشَع" وقسماته تنطق بكل آيات البغض:

- قزم لعين.

اتسعت ابتسامة "القزم" قائلًا:

- أول قاعدة في الحرب، لاتستهن أبدًا بعدوك، انظر ماذا تسبب فيه هذا "القزم"، لقد دُكت حصون مملكتك، وأوتي بعاليها سافلها.

تطاير الشرر من عيني "رِيشَع" قائلًا:

- كان يجب أن أقتلك بنفسي، لقد ظننت أن "الجوييم" سيمزقونك ما إن يروك ويعلموا أنك أحد أمراء "النسر"، كان يجب أن أحطم رأسك اللعين بفكي.

- من تدعونهم "جوييم" كانوا دومًا كالشوكة في حلوقكم، والآن أمسوا سيفًا على رقابكم.. انظر إليهم يا "رِيشَع" كيف ذابت أجسادهم بين شعب "النسر" فلا تكاد تميز بينهما.

- لن تفهم أبدًا، لن يفهم الأقزام مثلك كيف تُدار مقاليد الحكم، حتى لو أتيت بملوك وأمراء آخرين لمملكتك فستظل القصة تتكرر وتتكرر.

تحسس "القزم" بطنه مستعدًا، ثم قال:

- حتى لو تكررت ألف مرة، ستجد في كل مرة قزمًا مثلي قرر أن يقاوم التماثل والقولَبة، ويرفض كل ما يقدم له من حلول جاهزة!

التقط أنفاسه، ثم قال بحزم:

- لقد انتهى العهد الذي بينك وبين ملوك "النسر".. لكي تعيش مصالح كل منكم بأمان، كان لابد من عقد معاهدة "الشرف مقابل السلام".

ثم أردف والشرر يتطاير من عينيه:

- في المرة الماضية رضيت أن أكون لكم قزمًا، لكن هذه المرة لم أعد قزم "مينورا".. أنا ومنذ الآن بطل "باسطين".

قالها وقد أيقن أن الأفكار التي يعتنقها، والرمز الذي يقدسه هما ما يحددان حجمه الحقيقي، ما إذا كان قزمًا أم عملاقًا. نطق الغضب من قسمات "ريشَع" يهتف به متحديًا:

- لن تربح مهما فعلت، لدى أجدادنا عهد أبدي مع الصانع.

ارتجفت أوصال "القزم" على ذِكر الصانع، ظنَّ أن "ريشَع" هو أول الكافرين به، لكنه فاجأه قائلًا، وهو يشير إليه بقرنيه بازدراء:

- نعم، الصانع معنا، ويؤيدنا، لا نخطو خطوة إلا بأمر منه.

ثم رفع رأسه بخشوع مردفًا وهو يطرق أرضًا بأقدامه:

- لقد وعد الصانع أحفاد القائد العظيم "مينورا" أن يكونوا أسيادًا على هذه الأرض، وعلى العالم كله، ولا شيء ستفعله أنت أو شعبك الجاهل يمكنه أن يغير ذلك.

باغت "القزم" الملك الذي حاول التسلل هربًا أثناء حديثهما، ووجَّه فمه صوب رقبته، يحدِّق في "ريشَع" بشماتة قائلًا:

- كِشْ ملك.

ضجَّت القاعة بضحكات "ريشَع" وهو يتمسَّك بأحد الأفرع قائلًا:

- ألم تفهم بعد.. ليس للملك دورٌ في هذه اللعبة.

قضم "القزم" رقبة الملك فتدحرجت أرضًا حتى ارتطمت بذيول عرشه.

ثم انطلق في إثر "ريشَع"، أراد أن تكون نهايته على يديه، لكن عشرات من المحاربين أحاطوا بـ"ريشَع" يهرولون به بعيدًا. توقف "القزم" عن محاولة اللحاق بهم مغتاظًا. يعلم أنه لن يستطيع منازلة كل هؤلاء المحاربين ليصل إلى "ريشَع". غشيته سكينة العارفين، وتسرب إليه اليقين، إن كان لا يقدر فسيدع أمره بين يدي من يملك موازين القوة، من يقول للشيء كن فيكون، سيترك مصيره لقرار الصانع، غشيته الراحة إذ آوى إلى ركن شديد، أكبر منه وأقدر. من يدري لعل هذه ليست معركته الأخيرة، ولا تزال تنتظره جولات أخرى، وسيمنحه هذا الوقت الكافي ليعد لها العدة ويتجهز بجهازها. لكن بقى لكلمات "ريشَع" أثر كريه في نفسه. عاد مخترقًا الصفوف تطؤ أقدامه أشلاء أعدائه. استقر أمام رأسٍ مقطوعٍ لأنثى ظن يومًا أنه رأى جسدها منزوع الرأس، عثر الآن على الرأس المفقود، لكن هذه المرة بغير جسد!

وقف يلوذ عن الملكة، روحه لها فداء. دنت منه "بِنَان" وسألته متلهفة:

- هل قتلت "ريشَع"؟

لم يسألها كيف خمنت أنه ذاهب في أثره، أشار برأسه نفيًا، ازداد سواد وجهه، فغلبها الفضول لتسأله عما ألَمَّ به، ألقى ما في صدره من زفرات وقصَّ عليها ما قاله "ريشَع"، يلتمس عندها الراحة من تلك الظنون التي وسوس بها "ريشَع" فملأت فؤاده، وانتهي به الحال قائلًا وهو يدني منه رقبة أحد المحاربين ويقضمها بفمه:

- هل تظنين أنه صادق، وأن الصانع معه لا معنا؟

أجابته "بِنَان" بيقين لا يتزحزح:

- الصانع الذي تبحث عنه لا يُمكنه أن يأمر "ريشَع" بكل هذه الشرور، إنه موهوم، مخدوع.. وستتأكد بعد قليل من صدق قولي عندما نصل إلى نهاية العالم.

فقال بلهفة:

- والوعد الذي تحدَّث عنه؟

- إنه كاذب، وحتى لو كان هذا الوعد حقيقيا فقد بطُل الآن.

سألها "القزم" بحيرة:

- كيف؟

قالت بثقة تزيح عنه غمام الجهل:

- لأن هؤلاء ليسوا أحفاد "مينورا".. عندما تاه أبناؤه في الأرض، نشروا تعاليمه، فآمن بها البعض، واشتغل آخرون بتحريفها، قضى أحفاد "مينورا" نحبهم منذ زمن طويل جدًا، "ريشَع" ومحاربوه ليسوا من نسل "مينورا" حتى وإن تسموا باسمه.. لذلك فحتى إن كان هناك وعدٌ فليس لـ"ريشَع" ومحاربيه منه نصيب.

كانت الغلبة حتى هذه اللحظة لأبناء الملكة، التي رنت إليهم بفخر، تُلهب نفوسهم بهتافات قوية. صاح بهم "القزم" أن توجهوا إلى حيث الجدار الغربي. وهناك لم يجد حُراسه من المحاربين، هرب بعضهم يولون الدبر، واقتطف الموت رؤوسًا أخرى أينعت. تطايرت الحجارة الصفراء لهيكل البقرة أسفل أقدامهم، وتشتت في الأرجاء كبضاعة كاسدة.

كان "القزم" من أوائل الواصلين إلى الجدار الأملس، حاول البعض أن يسترق النظر عبره لكن عجزوا تمامًا عن رؤية ما يستتر خلفه، إلا "القزم" هتف بحماس شديد:

- يوجد شيء يتحرك خلف هذا الجدار، إنني أراه!

أفْسَحُوا الطريق للملكة التي عجزت بدورها عن رؤية ما يشير إليه "القزم" ويجزم بوجوده. لكنها رغم ذلك لم ترمه بالكذب.

قذف الجدار الشاهق بالمهابة في نفوسهم، يصل الأرض بالسماء، صعد بعضهم إلى آخره في محاولة لبلوغ السحاب، وما إن مسُّوا السماء بأيديهم حتى سرت الكهرباء في أجسادهم، فاحترقت وتساقطوا أرضًا.

سرى الخوف في قلوبهم فتوجهت إليهم الملكة بمقالة حماسية تحثهم على التقدم بثبات.

للحرية ثمن غال، لا يقدر عليه إلا من كانوا لعقيدتهم أوفياء!!

أتوا الزاوية السفلى للجدار، التي تصل الجدار الغربي بالجدار الجنوبي، رشقوها بحوامض بطونهم، لم تسفر محاولاتهم الأولى عن نتيجة تُذكر، لكن آلاف مؤلفة من النمال تتقدم بإصرار، يفرغ كل منهم ما بحوذته من حامض النمليك، اتحدت جهودهم لمواجهة هدف واحد، فكان ولا بد من أن تتداعى أمامهم كل الحصون، ويأتي النصر لهم صاغرًا.

صنعوا فتحة كافية لعبور أجسادهم، دون الملكة عظيمة الحجم، خرجوا من رحم عالمهم الضيق الخانق إلى براح الكون الواسع. استنشقت الصفوف الأولى نسمات الحرية، يبذلون جهدهم لتوسيع الفتحة لعبور

الملكة والآخرين. مسَّ "القزم" وجه "بِنَان" فتوجهت صوبه، أشار إلى جسدٍ عملاقٍ، دار رأسه لحظات، ثم قال بانبهار:

- انظري هناك، إنه هو! الصانع.

تعلقت أنظارها بالعملاق، تستشعر بخوف مهابته وسطوته وعظمته، توجه إليها "القزم" بعينيه سائلًا بسؤال يعرف جوابه لكنه شغوف بسماعه منها:

- هل أنتِ معي؟

حوَّلت أنظارها إليه، أجابت سؤاله بأن شبكت قرونهما ببعضها، أدنت وجهها من وجهه، فمسَّ تجويف عينها وكأنه يعتذر منها، أنه يومًا كان يقف في صفوف من سببوا لها الأذى، وانتزعوا عينها منذ مولدها ليبنوا بها صرحًا من الوهم وعرشًا من الأساطير يمكنهم من التحكم فيها، لتظل أبد الدهر تستشعر في نفسها الدونية والتصاغر، وبأن مُلكهم عليها قاهر. رسمت بسمة عذبة وندت عينها فخرًا وعزة بما أصبحت عليه، بعدما نبذت دماؤها كل ذرة من رِق.

***



النهاية.. أو لعلها البداية

هبَّ "النيوترينو" من مقعدة ملتاعًا مع آخر كلمة قرأها في الملف. اقترب من الجدار الزجاجي ذي الإضاءة الحمراء، اللون الوحيد الذي تعجز النمال عن رؤيته، فيحجب عن حوضهم الزجاجي الذي ضم عالمهم المصطنع كل ما يدور خارجه، إلا "القزم" الذي لم يعلم في نفسه تلك القدرة، يظن أن الجميع يرون كل الألوان التي يراها، لا يعلم كم هو فريد حقًا. قفز "النيوترينو" خطوة إلى الخلف وهو يرمق بأعين متسعة النمال الهاربة من الفتحة التي صنعتها. هتف "النيوترينو" بدكتور "نائل" وهو يجمع بعض النمال الفارة بكفه، يحتضنهم بأصابع مرتعشة، ويحاول إعادتهم من حيث خرجوا:

- ساعدني، يجب أن نعيدهم إلى داخل الحوض، هيا تحرك.

باءت جهودهما بالفشل، لم يتمكنا من إجبار النمال على العودة إلى العالم الوهمي، فاستوقد غضب "النيوترينو"، وأمسى أكثر عنفًا في التعامل معهم، دعس بأصابعه بعض النمال، علَّ الخوف يقرع قلوب الأخريات ويسوقهن إلى الامتثال لرغبته. لكن النمال التي خرجت عن سيطرة ملوكها وأمرائها لم يهبها ذاك الذي يسومها سوء العذاب، فقد ألفوا العذاب وألفهم، كرفيقَي سفر في رحلة طويلة!

ساقته لوثة الغضب إلى أن يتوجه إلى أحد الأدراج، ويخرج قارورة صغيرة تنثر رذاذًا قاتلًا، ألقى بها في أيدي دكتور "نائل" ودفعه ليواجه الجدار الزجاجي، فسلب السائل السام عشرات الأرواح من النمال. تراجع هو إلى باب الغرفة المفتوح، يجثو أرضًا ويحف براحتيه من نمال كست

الأرض كسجادة سوداء، ثم يدعسهم بين كفيه بشراسة، يعصف بهم، وفي قلبه عليهم حقدٌ لا ينحل عقده.

وغر صدر "القزم"، واستعرت بداخله نار البغضاء، وهو يُبصر الجثث المُحطمة، المتناثرة تحت أقدام العملاق. تمكن و"بِنَان" من الوصول إلى الجدار المقابل حيث يقف "النيوترينو" بوجه يتطاير منه الشرر، يصرخ بعنف وهو يشير إليهم:

- لا يُمكنكم أن تُفسدوا تجربتي، هيا عودوا إلى مساكنكم.

بدا وكأن خسارته لوقت وجهد شاق استغرقهما في بناء تجربته قد أذهب بعقله، أردف وهو يدعس بأقدامه عشرات النمال ويُحطمها بسخط مغلف بالنشوة:

- أنتم مجرد حشرات غبية لا وزن لها.

استغل "القزم" فرصة ثبات أحد قدمي"النيوترينو" على الأرض فتشبث و"بِنَان" بأطراف سرواله، كاد أن يسقط لولا أن أمسكته "بِنَان" تسحبه إليها، هرولا عبر طريق طويل أسود كالظُلمة التي تسبق نور الفجر. ولا تزال سوائل دكتور "نائل" تدفع بهم إلى درب المنون. طفق "النيوترينو" يزمجر:

- أنا من صَنعتكم، أنا من وهبتكم الحياة، أتفهمون، لا يمكنكم أن تعصوا لي أمرًا.

وصل "القزم" و"بِنَان" أخيرًا إلى طريق أبيض مشرب بالحُمرة، تضرب بأرضه جذور شعر منتصب، هوت كف العملاق فوقهما فأخطأتهما، ثم صرخ بدكتور "نائل" طالبًا للنجاة:

- اقتلهم جميعًا، لقد غزوا جسدي، اقتلهم، اقتلهم.

التفت إليه دكتور "نائل" فلم يُبصر شيئًا، منعته ملابس "النيوترينو" السوداء من تمييز النمال، فأمره بخلع ملابسه، فعل "النيوترينو" وهو لايزال يصرخ مُتجبرًا بصوت مُثقل بالغِل:

- أنا الصانع المُتحكم بأقداركم، أسمعتم؟، سأبيدكم جميعًا وأخلق غيركم.

سمع دكتور "نائل" أزيز الحاسوب الخاص "بالنيوترينو" يبدو أنه سجَّل المشهد الدائر الآن. فتلهَّف لقراءته، دنا من الحاسوب الهوائي واتسعت عيناه إذ أدرك وجود نملتين تقفان على رقبة "النوترينو" تمامًا عند أذنه اليسرى، ومئات من النمال تُلبي نداء "القزم" وتتسلق الجسد العملاق بدبيب منتظم، بمهارة تتفوق على كل جيوش الأرض. فامتزجت نفسه بنزعات خبيثة، أن يحظى بكل هذا المجد بمفرده، ويجر به منافع الشهرة والصيت إلى نفسه، يضم بين جنباته نفسًا لا تشبع، تظل إلى بريق الأضواء جائعة وتواقة. فبإمكان الملفات المسجلة على هذا الحاسوب أن تمده بكل المعلومات اللازمة ليستكمل أبحاث "النيوترينو". راود خياله العناوين العريضة في أعرق الصحف العلمية حول العالم، لكن هذه المرة حملت اسمه فحسب، ببريق ساحر لا يشوهه اسم "النوترينو" المُلوث بدماء ضحاياه.

أسرعت "بِنَان" و"القزم" بالاحتماء خلف شحمة كبيرة متدلية، ومنها استهلوا الطريق إلى فتحة أذنه التي بدت كـ "فم النار" بلا نار. توقف "القزم" عنده يصيخ السمع إلى صوت مضخة سريعة لا تهدأ، فقال وقد ملأته النشوة وهو يشير إلى الداخل:

- هنا المدخل إلى نقطة ضعفه.

سألته متشككة:

- هل أنت واثق؟

- إنه يبدو قويًا من الخارج، لكنه من الداخل هشٌّ مثلنا، أي خطأ صغير في نظام عمله يكفي للقضاء على حياته.

سمعها تتمتم بأسى:

- يبدو أن "ريشَع" أصاب هذه المرة، الصانع يحبه ويكرهنا.

تهلل وجه "القزم" وهو يدير رأسها لتواجهه، ثم يقول مؤكدًا:

- هذا ليس الصانع، إنه المُخرب!

بحيرة سألته وهي تتمسك بإحدى الشعيرات عندما أتى الجسد العملاق بحركات عنيفة:

- كيف عرفت؟

اتسعت ابتسامته وهو يجيبها:

- لو كان الصانع، لما استطعنا التغلب عليه.

- أين الصانع إذن؟

قال بيقين عقد به حبل أمانيه:

- سنجده.. فقط إذا تمكنا من الرؤية بشكل صحيح.. وتتبع ما تركه لنا من آثار وأدلة.

أبصر عينها الوحيدة وقد امتلأت غمًا، دَبَّ الشوق بقلبه لأن يسرِّي همها ويجلي كربها، فهمس لها:

- إنك ترين أفضل مما تظنين، ترين بهذا.

رسم بقرنه طريقًا إلى قلبها. سكنت إلى كلماته واطمأنت فأقر ناظرها، وطار فؤادها طربًا.

استرقت النظر إلى الهوة المظلمة فلم تبصر سوى سيقان شعيرات بارزة، فتعجبت من هذا المخلوق الذي يطرح جسده نباتًا لا ثمر له، استدارت صوب "القزم" تقول بأسف:

- لم تتمكن من معرفة هويتك.

دنا منها بوجه يحمل كل آيات السعادة قائلًا:

- لقد وجدتها.

صاحت مبتهجة:

- هل تذكرت؟!

هز رأسه نفيًا، ثم أردف:

- كلا، لم أتذكر اسمي ، أو حياتي الماضية، ومع ذلك عثرت على هويتي التي لطالما نشدتها حتى عندما كنت أتذكر من أنا.. الآن لم أعد أرى أنني غريبًا عن هذا العالم، بل أنا جزء منه، أؤثر فيه ويستودع في نفسي أثره.

ربما لن يعرف أبدًا أنه من اختار أن يزيح عن عقله كل ما به من ذكريات، ويدع كل الأفكار التي لُقن بها، لكي يبحث عن الحقيقة. لن يعرف أبدًا أنه كان يعيش أميرًا سعيدًا كما السعادة التي يتوهمها غيره من الأمراء، حتى سمع عن "آصف" وساقه الفضول إليه، وبعد زمن طويل بدأ في الاستحواذ على ثقة "آصف" وسقاه من علمه، فتعارضت حياته والقوانين التي يؤمن بها مع العلم الذي تشرَّبه من "آصف". وبعد حيرة طالت به وكادت تصيبه بالجنون، اختار أن يتناول مسحوقًا حضَّره له أحد المداوين المهرة، لنبات نادر ينمو في الصحراء، يُخلصه من كل ما بعقله من ذكريات، ليمسك بنفسه تلابيب الحقيقة. فمضى مع "معاقبه" إلى الغابة، وقرر أن يتناول المسحوق في منتصف المسافة بين الوهم والواقع، ليرسم بنفسه مصيره، ويختار ما يجب عليه أن يؤمن به، بعيدًا

عن أوهام تشبَّع بها عقله، تخلَّى عن كل شيء يملكه، وأراد أن يُولد من جديد.. بينما اختار "معاقبه" الموت مصيره، بعدما فقد كل معنى لحياته بغياب من يحمل خطاياه وآثامه فوق ظهره، كالمدمن يعلم علته، ولا يسعى للتداوي.

ولم يعرف "آصف" أبدًا أن أكثر تلاميذه مشاكسة، وأقدرهم على النقد والمعارضة، هو من سينجح في النهاية في أن يحقق حلمه!

التجارب تصنعنا، فعلينا أن نختار أي التجارب سنخوض. حوالينا أشياء كثيرة يصعب فهمها، وربما من الجيد أنها مُحتفظة برداء الغموض، فالجهل يثير فينا الرغبة في التأمل والتفكر، وفي بذل الجهد لزرع بذور المعرفة، وإروائها بمياه الصبر، فلا لذة تعادل لحظات جني بعض ثمارها، فيما تظل أخرى حبيسة قشرة صلبة يعصى علينا كسرها، وبلوغ لُبها.

ربما لو أحطنا علمًا بكل شيء ببساطة لزهدنا في كل شيء؛ اكتشاف أسرار الكون، التوق إلى عالم مجهول، السفر عبر الزمن بعقولنا ووضع نظريات لما حدث في الماضي، التماس الحقيقة وتتبع الأدلة.. وهل يستقيم للحياة معنى دون خوض غمار مغامرتنا الخاصة؟!

"اليقين يجُبُّ ما قبله"، كان يدون تلك التدوينة فوق جدران ذاكرته عندما أشارت "بِنَان" برأسها إلى باطن الهوة السحيقة، وسألته بمرح بدا متعارضًا مع كل هذا الخراب من حولهما:

- مستعد لمغامرة أخرى معي؟

تحسَّس تذكار بطولته الزائفة، التشوه الذي أصاب وجنته اليسرى، وتبسَّم ضاحكًا من قولها:

- دائمًا!

وقفت "سُلاس" تساعد على إبعاد الآخرين عن رزاز المطر الحارق، وقد حام في سحابة تظلل السماء فوقهم، أسرع "حَبُوك" يسابق ظله بالوقوف أمامها، كأنما سيرهب بغضبه تلك الأمطار فلا تمسها، سمعها تقول بامتنان حقيقي:

- أنا سعيدة أنك هنا.

على الرغم من أنه لم يفهم إن كانت تقصد بـ "هنا" هذا المكان الذي يجمع أنفاسهما، أم تقصد بجوارها، إلا أن كلماتها أطربته، فالتفت إليها باسمًا، ومجترءًا أن يمسها بقرنيه للمرة الأولى.

بعد وقت طويل اقترب أحد أبناء الملكة منها، يتأمل هذا الكون الفسيح الذي بات لهم وحدهم، لا ينازعهم عليه مخلوق، ثم قال بانبهار:

- نهاية العالم أعظم مما كنت أظن، إنها كعالم أكبر يهيمن على عالمنا الصغير.

استرقت النظر إلى الفتحة التي صنعها أبناؤها، واتحدت عندها قلوبهم، يتردد بداخلها أصداء أول قرار ستتخذه فوق هذه الأرض الجديدة، لن تُغلق فتحة الجدار قط، سيظل درب النجاة مفتوحًا لمن امتلك بقلبه البصيرة ليهتدي إليه. ثم ارتدت بنظرها إلى الأرض الفسيحة أمامها والتي تعادل ضعفي عالمهم القديم، ترنو بغبطة إلى الجُدر الأربعة البيضاء بنقاء سائل الحياة في عروق شجر "البَشَّام"، تطوقها من كل اتجاه. تمشَّت خطوات على جبين العملاق المُتفصد عن قطرات عرق غزير، وقد سكنت أنفاسه وتساوى جسده العاري بالأرض. توجهت إلى أبنائها قائلة وهي تشير بقرنيها في كل اتجاه:

- هنا ينتهي كل شيء، لقد وصلنا إلى نهاية الكون، لا شيء خلف هذه الجدران.

تساءل أحدهم بفضول لم يعتده، انبثق بداخله كنبتة يافعة:

- إنني لأتساءل، ماذا يوجد عند الثلاث نهايات الأخريات، ماذا كنا سنجد لو عبرنا الجدار الشرقي أو الشمالي أو الجنوبي، هل كنا سنعثر على نهاية رائعة كتلك؟!

أشرق وجه الملكة تقول بحنان:

- إنها حياة واحدة نختبرها، وطريق واحد نختاره، لا يمكننا أن نعرف نهايات كل الطرق التي لم نسلكها.

دنا "حَبُوك" من أحد الجدران يتحسسه باهتمام عظيم، طافت نظراته بشغف فوق وجه "سُلاس" التي منحته ابتسامة حماسية، وفكرة مجنونة أخذت تروح وتغدو بين رأسيهما.

سأل أحدهم الملكة ينشد حكمتها:

- وماذا سيحدث لنا الآن؟

حدَّقت فيها الزمرة الباقية على قيد الحياة، تتنازع قلوبهم بين خوف ورجاء، عيونهم لا تتحول عن تضاريس وجهها، يرون فيه عالمًا مليئًا بالتجاعيد، كل واحدة تخُط حكمة، وتجربة، وحكاية. بينما تُعاهد نفسها أن تُسخِّر ما تبقى من حياتها لتُعلمهم أن الحضارة الراسخة تتشكل لبناتها من قلب مُعمر بالإيمان، وعقل يزخر بالعلم، ويد تصدق بالعمل. قالت بعد صمت طال، وكأنها أُلهمت شيئًا، يبُث الثقة بصدورهم:

- أقدارنا لا تختارنا، بل نحن من نصنعها.

***

لم يكد يخرج إلى ضوء النهار حتى احترقت عيناه بعد ليلة طويلة أمضاها تحت الأرض، فرفع ساعده ليحجُب النور عن عينيه!.. ويده

الأخرى حبيسه جيب بنطاله، تُطبق بشدة على قرص صلب بحجم عُقلة الإصبع، يحوى ثمار علم شغف به. يجر جسده إلى حارس المبنى الذي انطلق مسرعًا في نجدته بعدما تعرَّف عليه ذاهلًا، فوجهه يملأ كل الصُحف والقنوات.

استلقى فوق نقالة ومنها إلى عربة الإسعاف، وقد اشتعل المكان المهجور بحركة الصحافة ورجال الشرطة بعدما تسرب الخبر الصادم إليهم في لمح البصر.

فتح عينيه فلم ير السقف الأبيض لسيارة الإسعاف، ولم يسمع همهمات المُسعفين من حوله، ومن يرافقونه بلباسهم الرسمي المتأنق، كل ما رآه وسمعه أحلام تقافزت داخل رأسه، أماكن لم يذهب إليها عقله من قبل.. تجارب رهيبة تفوق كل تصور!

تتنازعه رغبتان بشراسة، واحدة تدفعه في اتجاه العمل على اختراع عظيم يفيد البشرية جمعاء، وأخرى تدفعه صوب تحقيق رغبة مكبوتة لطالما تجسدت له في أحلام يقظته، لا يعلم في هذه اللحظة أي الرغبتين سترفع راية النصر فوق أشلاء الأخرى، لكنه بات على ثقة من شيء واحد؛ أنه وحده يملك الاختيار.

** تمت بحمد الله **

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا.. ﴾

سورة النمل: الآية ١٨,١٩

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾

سورة الأنعام: الآية ٣٨